

أخبار النساء

ابن الجوزي

أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن عبيد الله بن حمادي بن جعفر المولود في بغداد عام 1116م والمتوفي فيها عام 1201م

أخبار النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

باب ما جاء في وصف النساء

المرأة بين معاوية وصعصعة

قال معاوية لصعصعة: أيّ النساء أحبّ إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى. قال: فأيهن أبغض إليك؟ قال: أبعدهنّ لما ترضى. قال معاوية: هذا النّقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل.

وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النساء إلاّ عرف ذلك في وجهها.

قضاء عمر في المرأة

شكت امرأةٌ إلى زوجها قلّة إتيانه إليها، فقال لها: أنا وأنت على قضاء عمر. قالت: قضى عمر أنّ الرّجل إذا أتى امرأته في كلّ طهرٍ فقد أدى حقّها.

الشّرّ مجلبةٌ للجّماع

وقع بين امرأةٍ وزوجها شرٌّ فجعل يكثر عليها بالجّماع، فقالت له: أبعدك الله!

اقتلها وعليّ إثمها

جاء رجلٌ إلى علي، رضي الله عنه، فقال له: إنّ لي امرأةً كلّما غشيتها تقول قتلنتي. فقال: اقتلها وعليّ إثمها.

غدرت به زوجته فقتلها

غزا ابن هبيرة الغساني الحارث بن عمر فلم يصبه في منزله، فأخرج ما وجد له، واستاق امرأته فأصابها في الطّريق، وكانت من الجمال في نهاية، فأعجبت به، فقالت: له أنج فوالله لكأني به يتبعك كأنه بغير أكل مراراً. فبلغ الخبر الحارث فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه، وأخذ امرأته. فقال له: هل أصابك؟ فقالت: نعم، والله ما اشتملت النساء على مثله قط. فلطمها ثمّ أمر بها فوثقت بين فرسين ثمّ أحضرهما حتى تقطعت. ثمّ أنشأ:

آية الودّ حبّها خيتعور
بعد هذا لجاهل مغرور

كلّ أنثى وإن بدا لك منها
إنّ من غرّه النساء بودّ

رأي الحكماء وغيرهم في المرأة

قال بعض الحكماء: لم تنه قط امرأةٌ عن شيءٍ إلاّ فعلته. للغنوي:

فإنّه واقعٌ لا بدّ مفعول

إنّ النساء متى ينهين عن خلقٍ

ولغيره:

إنّ النساء وداهنّ مقسّم
وغداً لغيرك كقها والمعصم

لا تأمن الأنثى حبتك بודהا
اليوم عندك دلها وحديثها

رأي أعرابي في النساء

سئل أعرابي عن النساء، وكان ذا همٍّ بهنّ، فقال: أفضل النساء أطولهنّ إذا قامت، وأعظهنّ إذا قعدت، وأصدقهنّ إذا قالت، التي إذا ضحكت تبسّمت، وإذا جودت؛ التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها؛ العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الولود، التي كلّ أمرها محمود.

الذنب يساوي الطلاق

طلّق رجلٌ امرأته، فقالت له: أبعده صحبةً خمسين سنةً قال: ما لك عندنا ذنبٌ غيره؟.

رأي عبد الملك في الجوّاري

قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جاريةً للمتعة، فليتخذها بربريةً ومن أراد للولد فليتخذها فارسيةً؛ ومن أرادها للخدمة فليتخذها روميةً.

الأصمعي وبنات العمّ

قال الأصمعي: بنات العمّ أصبر، والغرائب أنجب. وما ضرب رؤوس الأبطال كابن عجمية.

أعوذُ بعذك يا أمير المؤمنين من جور مروان

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم بمجلسٍ كان له بدمشق على قارعة الطريق، وكان المجلس مفتّح الجوانب لدخول النسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لجلسائه: لم يخلق الله ممّن احتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثمّ قال: يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصّته فوالله لئن كان فقيراً لأغنيته، ولئن كان شاكياً لأنصفته، ولئن كان مظلوماً لأنصرته، ولئن كان غنياً لأفقرته. فخرج إليه الرسول متلقياً فسلم عليه فردّ عليه السلام. ثمّ قال له: ممّن الرّجل؟ قال: سيدي أنا رجلٌ أعرابيٌّ من بني عذرة، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلامه نزلت بي من بعض عمّاله. فقال له الرسول: أصبحت يا أعرابي؟ ثمّ سار به حتّى وقف بين يديه فسلم عليه بالخلافة ثمّ أنشأ يقول:

ويا ذا الندى والجود والتأبيل الجزل
فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل
شواني شيئاً كان أيسره قتلي
وجار ولم يعدل، وأغصبني أهلي
بسجن وأنواع العذاب مع الكبل
تأبّيت، ولم أستكمل الرّزق من أجلي
فقد طار من وجدٍ بسعدى لها عقلي

معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل
أنتيك لما ضاق في الأرض مذهبي
وجد لي بإنصافٍ من الجائر الذي
سباني سعدى وانبرى لخصومتي
قصدت لأرجو نفعه فاتأبني
وهمّ بقتلي غير أن منيتي
أغثني جزاك الله عني جنّة

فلما فرغ من شعره قال له معاوية: يا إعرابي إني أراك تشتكي عاملاً من عمّالنا ولم تسمعه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصّتك معه يا أعرابي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عمّ خطبتها إلى أبيها فزوّجني منها. وكنت كلفاً بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقرابة. فبقيت معها يا أمير المؤمنين، في أصلح حالٍ وأنعم بال، مسروراً زماناً، قرير العين. وكانت لي صرمة من إبلٍ وشويهات، فكننت أئولها ونفسي بها. فدارت عليها أفضية الله وحوادث الدهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئاً، وصرت مهيناً مفكراً، قد ذهب عقلي، وساءت حالتي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلما بلغ ذلك أباهما حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطردني، ودفعها عني. فلم أدر لنفسي بحيلةٍ ولا نصرّة. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكياً بعمّي، فبعث إليه، فلما وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيّها الرّجل لم حلّنت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا

زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأتت الجارية مسرعة، فلما وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السجن. فبقيت كأني خررت من السماء في مكانٍ سحيق، ثم قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوجها مني، وأنقدك ألف دينار، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهم تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوجتها منك. فلما كان من الغد بعث إليّ، فلما أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردني إلى السجن، فلما كان في اليوم الثاني قال: عليّ بالأعرابي. فلما وقفت بين يديه، قال: طلق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسأط عليّ يا أمير المؤمنين خدامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثم أمر بي إلى السجن؛ فلما كان في اليوم الثالث قال: عليّ بالإعرابي، فلما وقفت بين يديه قال: عليّ بالسيف والنطع وأحضر السياف، ثم قال: يا أعرابي، وجلالة ربي، وكرامة والدي، لئن لم تطلق سعدى لأفرقن بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقاءً واحدةً على طلاق السنة، ثم أمر بي إلى السجن فحبسني فيه حتى تمت عدتها ثم تزوجها، فبنى بها، ثم أطلقني. فأتيتك مستغيثاً قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدي الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبها بلا عقل، ثم انتحب حتى كادت نفسه تقيض. ثم أنشأ يقول:

في القلب مني نارٌ	والنار فيه الدمار
والجسم مني سقيمٌ	فيه الطيب يحار
والعين تهطل دمعاً	فدمعها مدرار
حملت منه عظيماً	فما عليه اضطبار
فليس ليلى ليلٌ	ولا نهاري نهار
فارحم كئيماً حزيناً	فؤاده مستطار
اردد عليّ سعادي	بثيبك الجبار

ثم خرّ مغشياً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئاً، فلما نظر إليه قد خرّ بين يديه قام ثم جلس، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضارراً في حدود الدين، وإحساراً في حرم المسلمين: ثم قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث ما سمعت بمثله. ثم قال: يا غلام عليّ بدواة وقرطاس فكتب إلي مروان: أما بعد، فإنه بلغني عنك أنك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين، وانتهكت حرمةً لرجل من المسلمين. وإنما ينبغي لمن كان والياً على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضّ بصره وشهوته، ويزجر نفسه عن لذاته. وإنما الوالي كالراعي لغنمةٍ، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذنباً فمن يحوطها بعده. ثم كتب بهذه الأبيات:

وليت، ويحك أمراً لست تحكمه	فاستغفر الله من فعل امرئ زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ	مع القراطيس تمثالاً وفرقان
حتى أتانا الفتى العذريّ منتحباً	يشكو إلينا ببثٌ ثم أحزان
أعطي الإله يمينا لا أكفرها	حقاً وأبرأ من ديني ودياني
إن أنت خالفتني فيما كتبت به	لأجعلنك لحماً بين عقباني
طلق سعاد وعجلها مجهزةً	مع الكميت، ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بلغت في بشر	ولا كفعلك حقاً فعل إنسان
فاختر لنفسك إما أن تجود بها	أو أن تلاقى المنايا بين أكفان

ثم ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبي البريد. فلما وقفا بين يديه قال: اخرجنا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجنا بالكتاب حتى وردا به عليه، فسأما ثم ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردده، ثم قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلما نظرت إليه قالت له: سيدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلقك وأجهزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثم يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلقها وجهزها ثم كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

أوفي بنذك في رفيق وإحسان	لا تعجلن أمير المؤمنين فقد
ككيف أدعى باسم الخائن الزاني	وما ركبت حراماً حين أعجبتني
منك الأماقي على أمثال إنسان	أعذر فإنك لو أبصرتها لجرت
عند الخليفة إنس لا ولا جان	فسوف يأتيك شمس لا يعادلها
حتى أضمن في لحدٍ وأكفان	لولا الخليفة ما طلقتها أبداً
حتى خلفته بأوصابٍ وأحزان	على سعادٍ سلامٍ من فتى قلبي

ثم دفعه إليهما، ودفع الجارية على الصفة التي حدث له. فلما وردا على معاوية فك كتابه وقرأ أبياته ثم قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثم أمر بالجارية فأدخلت إليه، فإذا بجارية رعبية لا تبقى لناظرها عقلاً من حسنها وكمالها. فعجب معاوية من حسنها ثم تحول إلى جلسائه وقال: والله إن هذه الجارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النعمة مع حسن الصفة، لقد كملت النعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثم قال: عليّ بالأعرابي.

فلما وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلو، وأعرضك عنها ثلاث جوار أبارك مع كل جارية منهن ألف درهم، على كل واحدة منهن عشر خلع من الخز والديباج والحريز والكتان، وأجري عليك وعليهن ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهن حظاً من الصلوات والنفقات؟ فلما أتم معاوية كلامه غشي على الأعرابي وشهق شهقة ظن معاوية أنه قد مات منها. فلما أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شرّ بال، وأسوأ حال، أعوذ بعد لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثم أنشأ يقول:

كالمستجير من الرمضاء بالنار	لا تجعلني هداك الله من ملك
يمسي ويصبح في هم وتذكار	أردد سعاد على حران مكتئب
وأسعر القلب منه أي إسعار	قد شفته قلق ما مثله قلق
حتى أعيب في قبيري وأحجاري	والله والله لا أنسى محبتها
فإن فعلت فإني غير كفار	كيف السلو وقد هام الفؤاد بها
لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعار	فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرم

ثم قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كل ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:

إلي نساء ما لهن ذنوب	أبى القلب إلا حب ليل وبغضت
فأبهت حتى لا أكاد أجيب	وما هي إلا أن أراها فجاءة

فلما فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك مقر عندنا أنك قد طلقتها، وقد باننت منك ومن مروان، ولكن نخيرها بيننا. قال: ذلك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحول معاوية نحوها ثم قال لها: يا سعدى أينا أحب إليك: أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره، أو مروان في غضبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأظماره؟ فأشارت الجارية نحو ابن عمها الأعرابي، ثم أنشأت تقول:

أعزّ عندي من أهلي ومن جاري	هذا وإن كان في جوع وأظمار
وكلّ ذي درهم منهم ودينار	وصاحب التاج أو مروان عامله

ثم قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحق من صبر معه على السراء والضراء، وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروعتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم وألحقها في صدقات بيت المسلمين.

الذي جاء شرًّا من الذي مرَّ

قال أبو الخطاب: كان عندنا رجلٌ أهدبٌ فسقط في بئرٍ فذهبت حذبتة وصار آدرأً فدخل عليه جيرانه يهتئون به فقال: الذي جاء شرًّا من الذي مرَّ.

أعرابيٌّ يصف رجلاً جميلاً

ذكر أعرابيٌّ رجلاً جميلاً فقال: والله لو أبصرته العيدان لتحركت أوتارها، ولو رأته عاتق الخدر لطار خمارها. وقال بعض الأعراب:

ماذا تظنّ سليمان إن ألمّ بنا
خُرَّ عامته، حلَّو فكاوته
مرجّل الرأس ذو بردين مزّاح
في كفّه من رقى إبليس مفتاح

رأي عائشة في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلّم

يروى، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، خطب امرأةً من كلب فبعث عائشة رضي الله عنها تنظر إليها، فقال لها: "كيف رأيته؟" قالت: ما رأيته طائلاً. قال: "لقد رأيته طائلاً، ولقد رأيته حالاً تجدنيها حتى اقشعرت كل شعرة فيك". فقالت: وما دونك سترٌ يا رسول الله.

يرى صورته في وجه قتادة

ويروى عن حيان بن عمير أنّه قال دخلت على قتادة بن ملحان فمرّ رجلٌ في أقصى الدار فرأيت صورته في وجه قتادة، وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم، مسح وجهه.

ذو النسب والحسب قريبٌ من الله

وعن عون بن عبد الله، أنّه قال: من كان في صورة حسنة، ونسب، وحسب، ووسّع عليه في الرزق، كان من خلصاء الله.

إشراق الوجه يجلو البصر

ويروى عن عائشة، رضي الله عنها، أنّها قالت: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا في القراءة سواء، فأصبحهم وجهاً. وعن ابن عباس أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "النظر إلى الوجه يجلو البصر؛ والنظر إلى الوجه القبيح يورث الفلج".

جمال الوجه فتنة لعباد الله

قال حليان المغنّي: دخلت دار هارون الرشيد فإذا أنا بجارية خماسية، أحسن الناس وجهاً، على يدها سطران مكتوبان بالغالية، فقرأتهما فإذا هما ممّا عمل في طران الله، فتنة لعباد الله وقال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جاريةً بيعت بألف دينار، فما رأيته وجهاً قط أحسن من وجهها صلى الله عليها. قال: فقلت له يا أبا زكريّا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟ فقال: وما تنكر عليّ من ذلك؟ صلى الله عليها وعلى كلّ مليح: يا ابن أخي الصلّة رحمة.

غدرت بزوجها وخاتته

قال: خرج شامة بن لؤي بن غالب من مكّة حتّى نزل بعمان على رجلٍ من الأزد.

وكان شامة بن لؤي من أجمل خلق الله، فقراه وبات عنده. فلما أصبح قعد يستنّ فنظرت إليه زوجة الأزدي فأعجبها، فلما رمى، مضت إلى سواكه فأخذتها فمصّتها، فنظر إليها زوجها، فحلب ناقه وجعل في اللبن سمّاً

وقدّمه إلى شامة، فغمزته المرأة، فأراق اللبن وخرج يسير. فبينما هو في موضع يقال له خرق الجميلة أهوت ناقتة في عرّفة؟ فانتشلها وفيها أفعى فنهشت مشفريها فحكّتها على ساق شامة فمّات. فقالت الأزد:

إذا ناقتي حلّت بلبيلٍ ففارقت
فقلت لها حتّي قليلاً فإنني
غدرت بنا بعد الصّفاء وخنّتنا
جملة لما أنبتت منها قرينها
وإياك نخفي عبرةً سترينها
وشرّ مصافي خلّة من يخونها

الصّبا تبلسم قلب المحزون

قال سليمان بن أبي سمخ تزوّج رجلاً من تهامة امرأةً من نجدٍ فلمّا نقلها إليه، قالت له: ما فعلت ريحاً من نجد كانت تأتينا يقال لها الصبا ما رأيتها ههنا؟ فقال: يحجزها عنّا هذان الجبلان. فأنشأت تقول:

أيا جبلي نعمان بالله خلياً
فإنّ الصّبا ريحٌ إذا ما تنقّست
أجد بردها أو يشف منّي حرارةً
نسيم الصّبا يخلص إليّ نسيمها
على قلب محزون تجلّت همومها
على كبدٍ لم يبق إلا صميمها

فرّقهما الفقر وجمعهما معاوية

قال الزّبير حدثني أبي، قال: كان عندنا بالمدينة رجلاً من قريش كانت له امرأةٌ تعجبه ويعجبها، وكانت تحول بينه وبين الرّزق، وكلّ ذلك يحتمله لشدة محبّته إيّاها فلمّا ساءت حاله وكثر دينه قال:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه
وصار على الأذنين كلاً وأوشكت
فسر في بلاد الله والتمس الغنى
ولا ترض من عيشٍ بدون ولا تتم
وما طالب الحاجات من حيث يبتغي
شكى الفقر أو لام الصّديق فأكثر
قلوب ذوي القربى له أن تنكّرا
تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
وكيف ينام الليل من كان معسرا
من النّاس إلّا من أجدّ وشمّرا

فلما أصبح قال لامرأته: أنا، والله أحبّك، ولا صبر لي على ما نحن فيه من ضيق العيش، فجهّزني. فجهّزته، فخرج حتّى قدم على معاوية بن أبي سفيان فقام بين الصّقّين، فأخبره بحاله، وأنشده الشّعر. فرّق له، وأمر له بألف دينارٍ وقال له: لقد دلّني حالك على محبّتك لأهلك وكرهيتك لفرأهم فخذ وانصرف إليهم فأخذها وانصرف راجعاً.

ألا أيّها الغيران

وأنشد الزّبير بن بكار: لجميل بن معمر:

لئن كان في حبّ الحبيب حبيبه
ألا أيّها الغيران بي أن أحبّها
فلو متّ كان الموت يخلف للهوى
وتحسب نسوانٌ إذا جنّت زائراً
فتخبركم عنّا جنوبٌ مضلّة
إذا بلغتكم حاجة رجعت لنا
حدودٌ لقد حلّت علي حدود
بسخطك ينمو حبّها ويزيد
لها في فؤادي الوجد وهو جديد
بثينة أني بعضهنّ أريد
وتخبرنا هتف العشيّ برود
إليكم بأخرى مثلها فيعود

يا حبذا أم الوليد

وأنشد أيضاً لجميل بن معمر العذري:

على عجل والنّاعجات وقوف
لنا ولها بالمنحنى ومصيف
وبطن كطيّ السّابريّ لطيف

تمتعت منكم يا بئين بنظرة
فيا حبذا أمّ الوليد ومربّع
بئنان يسترن الوشاح عليهما

أنصرم حبلي يا جميل؟

وأشدها في مثل ذلك أيضاً:

مجال القذى منها بثينة بالكحل
إليك الهوى قيد الجنبية بالحبيل
ما مسّ رأس من دهان ولا غسل

بثينة قالت يا جميل وسوّدت
أنصرم حبلي يا جميل وقادني
وقالت لقينا ما لقيت من الهوى

أنت طالق

قال عليّ بن المغيرة كانت زينب بنت يوسف بن الحكم بن أبي عقيل أخت الحجاج بن يوسف لأبيه وأمها الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي عند المغيرة بن شعبة فرأها يوماً تتخلل بكرة فقال لها أنت طالق والله لئن كان هذا من غذاء لقد جشعت ونهمت، وإن كان من عشاء لقد أنتنت وقذرت، فقالت قبّح الله الذواق والمطلاق ولا يبعد الله، والله ما هو الذي ظننت، ولكنه استمسك بين أسناني شطيّة من السّواك.

وكان سبب قول التّميري فيها: إنّ أباهما يوسف بن الحكم مرض، وكان يزيد معاوية قد ولّاه صدقات الطائف وأرض الشّراة، فنذرت إن الله عافاه أن تمشي إلى الكعبة معتمرة من الطائف، وبين الطائف ومكة يومان وليلتان، فمشت ذلك في اثنين وأربعين يوماً، وكانت جميلةً وسيميةً فلقبها التّميري، وهو محمّد بن عبد الله بن نمير الثقفي، ببطن نعمان فقال:

به زينب في نسوة عطرات
وأقبلن لا شعناً ولا غبرات
يلبّين للرّحمن مؤتجرات
تطلّع رياه من الفترات
ويمشين شطر الليل معتمرات
وأبدت بنان الكفّ للجّمرات
برؤيتها من راح من عرفات
بليت بطرف فاتك اللّحظات
ويقطعن دور اللّهُو بالحجرات
وكنّ من أن تلقينه حذرات
أوانس ملء العين كالظّبيات
بطوناً لطف الطّي مضطمرات
يناع غصون الورد مهتصرات
خرجن من التّعير معتمرات
تقطع نفسي إثرها حسرات
من الحبّ إنّ الحبّ ذو غمرات
على لوعة الأشواق والزّفرات
بللت رداء العصب بالعبرات
لذي عبرة لو كنّ معتبرات

تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
تهادين ما بين المحصب من منى
مررن بفحّ رائحاتٍ عشية
لها أراج بالعنبر الورد فاغم
يخبئن أطراف البنان من التّقى
وليست كأخرى أوسعت جنب درعها
ومالت تراءى من بعيد فأفتنت
تقسمن لتي يوم نعمان إنني
يظاهرن أستاراً ودوراً كثيرة
ولما رأيت ركب التّميري أعرضت
دعت نسوة شمّ العرائن كالدماء
فأبدين لماً قمن يحجين زينبا
قلت: يعافير الطّباء تناولت
فلم تر عيني مثل ركب رأيت
وكدت اشتياقاً نحوها وصبابة
وغادرت من وجدي بزئيب غمرة
وظل صحابي يظهر من ملامتي
فراجعت نفسي والحفيظة إنّما
وقد كان في عصياني النّفس زاجر

زينب سبب نفي التميري وعذابه

قال مسلم بن جندب الهلالي كنت مع عبد الله بن الزبير بنعمان و غلام ينشد خلفه، وهو يشتمه أقبح الشتم. فقلت له: ما هذا؟ فقال: دعه فإني تشببت بأخت هذا الحجاج بن يوسف. فلما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير دعا الناس إلى البيعة، فتأخر محمد حتى قام في آخر الناس ولم يجد من الحضور بدأ. فلما دنا منه قال: أمحمد؟ قال نعم: قال: أتشدني ما قلت. فأنشدته قصيدتي هذه فقال: لولا أن يقول قائل لضربت عنقك، أنج لا نجوت ولا تعد فقال: لا تعرضت لاسم زينب ما بقيت.

قال: ولما خاف التميري من الحجاج عاذ بأبيه يوسف بن الحكم. فلما أرسل عبد الملك الحجاج لقتال ابن الزبير، قام إليه يوسف بن الحكم وقال له: يا أمير المؤمنين إن فتى من ذكر زينب بما يذكر به العربي ابنة عمه، وقد علمت أن هذا لم يزل يتقلب عليه. قال عبد الملك: أليس التميري؟ قال: بلى، قد سمعت شعره فما سمعت مكرها ثم أقبل على الحجاج وقال: لا تعرض له.

ويقال إن عبد الملك لما بلغه شعر التميري كتب إلى الحجاج: قد بلغني ما كان من قول التميري، فلا تدنه فتقطعه، ولا تقصه فتغره. ولكن أهمله واله عنه. فلم بهجه الحجاج ومن قوله فيها:

تشتر بمكة نعمة
أكرم بتلك مواقف
ومصيفها بالطائف
وبزينب من واقف

ومن شعره فيها أيضاً:

وما أنس من شيء، فلا أنس شاديا
تشربه لون الزرافي في بياضه
بمكة مكحولاً أسيلاً مدامعه
أو الزعفران خالط المسك أدرعه

ترك زوجته وتعلق بأروى وقسطا

قال الزبير بن بكار: حكى الحسن بن علي مولى بني أمية قال: خرجت إلى الشام فلما كنت بالسماهة ودنا الليل رفع لي قصر فأهويت إليه، فإذا أنا بامرأة لم أر قط مثلها حسناً وجمالاً. فسلمت، فردت علي السلام، قالت: ممن أنت؟ قلت: من بني أمية. قالت: مرحباً بك، أنزل، فأنا امرأة من أهلك. فأنزلتني أحسن منزلٍ وبتت أحسن مبيتٍ.

فلما أصبحت قالت: إن لي إليك حاجة. قلت ما هي؟ فأشارت إلى دير، وقالت: إن في ذلك الدير ابن عمي، وهو زوجي، وقد غلبت عليه نصرانية في ذلك الدير، فتمضي إليه وتعظه. فخرجت حتى انتهيت إلى الدير، فإذا برجلٍ في فئانه من أحسن الرجال وأجملهم. فسلمت عليه، فردّ وسأل. فأخبرته من أنا، وأين بتت، وما قالت المرأة. فقال: صدقت، أنا رجلٌ من أهلك من أهل الحارث بن الحكم. ثم صاح: يا قسطا. فخرجت إليه نصرانية عليها ثياب حبرات وزنانير ما رأيت قبلها ولا بعدها أحسن منها. فقال: هذه قسطا، وتلك أروى، وأنا الذي أقول:

وبدلت قسطا بعد أروى وحبها
وما هي أما ذكرها بنبطية
كذلك لعمرى يذهب الحب بالحب
كبدر الدجى أوفى على غصن رطب

شاطرته مالها ولم تدعه للسفر

قال الزبير بن بكار: حدّثني عبد الملك بن عبد العزيز قال كانت بنت أبي عبيدة بن المنذر بن الزبير عند أبي بكر بن عبد الرحمن من محرمة وكان يخدمها وكانت ذات مال، ولا مال له. وكانت تضنّ عنه، فخرج يريد الشام بطلب الرزق، فلما كان ببعض الطريق رجع فمرّ بجلساته بالمصلّى فقالوا: زاد خير. ثم دخل عليها فقالت له: أبخير رجعت؟ فقال لها:

بينما نحن من بلاكت فالقا
خطرت خطرة على القلب من
ع سراعا، والعيش تهوي هويًا،
ذكراك وهنأ، فما استطاع مضياً

قلت: لبيك، إذ دعاني لك الشوق

ق وللحاديين حب المطايا

قالت له: لا جرم والله لأشاطرتك مالي فشاطرته إياه ولم تدعه للسفر بعد.

منزل الأحبة الخالية تثير الشوق

روى إبراهيم بن حسن بن يزيد، عن شيخ من ساكني العقيق قال: أتني لواقفٌ بالعقيق، وقد جاء الحاج، إذ طلعت امرأة على راحلة وحولها نسوة، فنظرنا إليها، فأعجبنا حالها. فلما كانت حذاء قصر سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، عدلت إلينا، ونحن ننظر. فنزلت قصرًا من تلك القصور فأقامت فيه ساعة ثم خرجت، فركبت ومضت، وإن عينيها لتنتقن دموعاً. فقلت: لأنظر ما صنعت هذه المرأة؟ فدخلت القصر، فإذا كتاب يواجهني في الجدار، فقرأته فإذا هو:

أليس كفى حزناً لذي الشوق أن يرى، منازل من يهوى معطلةً ففرا؟
بلى، إن ذا الشوق الموكل بالهوى، يزيد اشتياقاً كلما حاول الصبر!

وتحتة مكتوبٌ: وكتبته آمنة بنت عمر بن عبد العزيز. وكان سفيان بن عاصم زوجها فتوقى عنها.

شكت إلى الله عقوق أبنائها

ذكروا عن عائشة، رضي الله عنها، أنها لما قدمت البصرة خطبت وبحضرتها الأحنف بن قيس وموسى بن طلحة ورجالاً من وجوه العرب، فقالت بعقب ذلك: إنني أتيت أطلب بدم الإمام المذكور برمته الحرمات الأربع. فمن ردنا عنه بحق قبلناه، ومن ردنا عنه بباطل قاتلناه. فربما نصر الظالم على المظلوم والعاقبة للمتقين. قال لها موسى بن طلحة: قد فهمنا كلامك، فما الأرق حرمات؟ فقالت: حرمة الشهر، وحرمة البلد، وحرمة الإمامة، وحرمة الختونة، لا يصلح إمرأ بعده أبداً. فقال لها الأحنف رحمه الله: إنني سألتك ومغلط لك في المسألة فلا تجدين عليّ. أعندك عهدٌ من رسول الله في خروجك هذا؟ قالت: لا. قال لها: أفعدك عهدٌ من رسول الله أنك معصومةٌ من الخطأ؟ قالت: لا. قال لها: صدقت، أن الله رضي لك المدينة فأبيت إلا البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فنزلت بين الحرس الضبي. ألا تخبريني يا أم المؤمنين للحرب قدمت أم للصلح؟ قالت: بل للصلح، فقال لها: والله لو قدمت وما بينهم إلا الخفق بالنعال والقذف بالحصبا، ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواقبهم؟ قالت: لقد استغرق حكم الأحنف هجاه أي، إلى الله أشكون عقوق أبنائي.

أقنعوه فعفا الحجاج عنهم

ذكروا، أنه لما قتل الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث، وأسر من معه، أمر بضرب رقابهم. فقال رجلٌ منهم: أيها الأمير إنني أتيت إليك بشيء. قال: وما هو؟ قال: إنني كنت جالساً يوماً عند عبد الرحمن فأخذ في عرضك، ففاضلته عنك. قال: ومن يشهد لك بذلك؟ فقال رجلٌ من الجماعة يشهد له بما قال فقال: اتركوه. ثم قال للرجل: أفلا كنت مثله؟ قال له: بغضي فيك لم يدعني أتكلم فيك بمثل ذلك. فقال: واتركوا هذا لصدقه. ثم قام رجلٌ آخر فقال: أيها الأمير لئن كنا أسأنا في الخطأ لما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أف لهذه الجيف، أما والله لو كان فيكم من يتكلم والله ما قتل منكم أحد.

باب يذكر فيه من صيره العشق إلى الأخلاط والجنون

خبر فورك المجنون

قال بعضهم: مررت بفورك المجنون وقد أتاه أهله بطبيب، يقال له عبد العزيز، ليعالجه. فسملت وقلت: ما خبرك يا أبا محمد؟ فقال: خبري والله مع هؤلاء المجانين ظريفٌ. أنا عاشقٌ وهم يظنون بي جنة وقد أتوني بهذا الطبيب ليعالجنني. ثم أنشأ يقول:

أتوني بالطبيب فعالجوني
على أن قيل مجنونٌ غريب

طبيب الأجر فيه عساه يوماً
وما صدقوا الفتى محوي قلبي
وما بي جنّة لكن قلبي
وما عبد العزيز طبيب قلبي

من الأيام يعقل أو يتوب
أجلّ من أن يعالجه الطبيب
به داء تموت به القلوب
ولكنّ الطبيب هو الحبيب

خبر المجنون أبي عبد الله

وقال آخر: مررت بمجنون بيده قصبه وفيها عذبة، وهو يقول:

إذا ما راية رفعت بنجد
تلقأها عرابة باليمين

قال فأخذت بيد الغلام الذي كان يتعشقه فوقفت بين يديه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال في ساعة بديهية:

أصبحت منك على شفا جرف
وأراك نحوي غير ما ثقة
يا من أطل بصدّه أسفي

متعرّضاً لموارد التلّف
متحرّفاً من غير منحرف
كففي عليك أشدّ من أسفي

فورك في جماعة من الصبيان

وقال بعضهم: اجتزت بفورك المجنون وهو في جماعة من الصبيان راكب قصبه، وهو يقول: من كان عاشقاً منكم فيقف في الميمنة، ومن كان معشوقاً فليقف في الميسرة. ووقف هو في القلب، ففكر وقال:

إلى من أشتكيك إلى من
إلى كم يدوم الهجر والعتب بيننا
فيا لائمي في أحمد لو رأيت
أتعجب أن قالوا بفورك جنّة

إلى كم ترى في قصتي غير محسن
سألتك بالرحمن ألا رحمتني
لما لمتني في حبه، وعذرتني
بنفسي ومالي من هواه أجنني

ثم قال: احملوا على بركة الله. فحملت الميمنة على الميسرة، وأخذ كل عاشق معشوقه.

قال ولقيته في يوم خميس في جماعة من الصبيان، منصرفاً. من تشييع غلام كان يحبه، وهو يحدثهم ويلطم خده ويقول: ما أحرّ الفراق؟ فقلت: يا أبا محمد، من أين أقبلت؟ قال: من تشييع الحجاج. وبكى، وقال:

هم رحلوا يوم الخميس عشية
فلما تولوا ولت النفس معهم،
إلى جسد ما فيه لحم ولا دم
وكذبت فيك الطرف، والطرف صادق

فودعتهم لما استقلوا وودعوا
فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
ولا فيه إلا أعظم تتقعقع
وأسمعت أذني فيك ما ليس أسمع

أخبار علوية المجنون

قال الحسن بن رفاعة: رأيت علوية المجنون يوماً وفي عنقه حبلٌ والصبيان يجرونه، فلما رأني قال: يا أبا عليّ بماذا يعذب الله أهل الجرائم يوم القيامة؟ قلت: بأشدّ العذاب. قال: فأنا، والله، في أشدّ من عذابه. لو عذب الله أهل جهنم بالحبّ والهجر والرفاء لكان أشدّ عليهم، ثم قال:

انظر إلى ما صنع الحبّ
أنحل جسمي حبّ من لم يزل
لم يبق لي جسم ولا قلب
من شأنه الهجران والعتب

من دونه الأستار والحجب

ما كان أغناني عن حبّ من

قال: وحضرته وقد أتوه بطبيبٍ يعالجه، والطبيب يعاتبه ويقول له: لو تركتني لعالجتك ورجوت أن تبرأ، فقال في ذلك:

أنا منك أعلم أيها المتكلم
أنا عاشقٌ، فإن استطعت لعاشق
هيهات، أنت لغير ما بي عالمٌ
دائي دسيسٌ، قد تضمّنه ال
ما بي أجلّ من الجنون وأعظم
براً مننت به وأنت محكّم
وسواك، بالداء الذي بي أعلم
هوى، تحت الجوانح ناره تتضرم

خبر بعض المجانين

قال: ومررت ببعض المجانين وهو جالسٌ وحده متفكراً، فقلت: ما خبرك؟ قال:

أقول بأعلى الصّوت ما بي جنّة
وما بي جنونٌ غير أنّ بليّتي
بنفسي وأهلي، من أرى الموت جهرةً،
وما بي إلا حبّ من ليس ينصف
إذا انكشفت منه أرقّ وألطف
إذا ما بدا منه البنان المطرّف

شعر فورك في غلامه غلب

قال: وكان فورك يتعشّق غلاماً يسمى غلباً فأتاه بعض إخوانه فقال: إنّي خارج نحو غلب، فهل من حاجة؟ فقال:

نعم أوصيك إن أبصرت غلباً
وقل هذي وصية مستهام
فقبل وجنتيه وإن تأبى
إليك قتلتته شغفاً وحبّاً

وصف ظبية بالعفاف فأكرم

ودخل مهدي على بعض ولاة اليمامة، فسأله الوالي عن مجلسه مع ظبية، واستنشد ما قال فيها من الشعر. وكان ابن ظبية حاضراً، فأنشده مهديّ بيتين يصفها فيهما بالعفاف. فقام ابنها فنزع عن نفسه جبّة خزّ ووشاحاً ألفاهما على مهدي لماً وصف أمّه بالعفاف.

القيطنون ونكاح الفتيات

قال أحمد بن يحيى: كان القيطنون متمكناً على أهل المدينة. وكان قد سامهم خسفاً، وشرط عليهم أنه لا تدخل امرأة على زوجها حتى يبدأ بها. فزوج مالك بن عجلان الخزرجي أخته. فلما جهّزها وأراد إهداءها إلى زوجها، وهو قاعدٌ في مجلس الخزرج، إذا خرجت أخته على الحيّ سافرةً. فغضب مالك، ووثب إليها ليتناولها بالسيف، وقال لها: فضحتني، ونكست رأسي، وأغضضت بصري. فقالت له: الذي تريد بي أنت شر من هذا وأقبح وأفصح. إن كنت تهديني إلى غير بعلي فيصيني، فهذا شرٌّ من خروجي سافرةً حاسرةً! فقال مالك: صدقت، وأبيك.

وسكت عنها، فلما رجعت إلى خدرها دخل إليها، فقال لها: هل فيك من خير؟ فقالت: أيّ خير عند امرأةٍ إلا أن تنالك؟ فقال لها اكنمي ما أريده. قالت: نعم. فشرح لها ما عزم عليه. فلما أمست أتتها رسل القيطنون ليأتوه بها، فلبست وتعطّرت وتحلّت، ولبس معها وتعطّر واشتمل على السيف ومضى معها في جملة نساءها إلى قصر القيطنون. فلما خلا بها في مشربة له، ودنا منها تنحّى نساؤها عنها إلا مالك وحده، فقال القيطنون: بحقّ التوراة ألا أمهلنتي ساعةً حتى ترجع نفسي فيها إليّ، وتركت أختي هذه تؤانسني عندك، فأني ألفتها من بين أهلي؟ فقال: نعم. فلما هدأت ساعةً قال: تقدّمي إلى فراشك حتى ألك. فقام القيطنون إلى باب مشربته فأغلقه، وأتى فراشه. وكشف مالك عن السيف ثمّ ضربه به حتى برد. فاجتمع الحيان من الأوس والخزرج فسودوه على أنفسهم، وملكوه، إذ أراحهم من عار الدهر. ودلت اليهود بعد ذلك فلم ترفع رأساً.

خبر سلامة الزرقاء مع عبد الرحمن بن أبي عمارة

قال الزبير بن بكار: كان عبد الرحمن بن أبي عمارة من عبادة أهل مكة، فسمي القس من عبادته. فمر ذات يوم بدار سهل بن عبد الرحمن بن عوف مولى سلامة الزرقاء، وهي تغني، فسمع غناءها، فبلغ منه كل مبلغ، فراه مولاهما وتبين ما لحقه، فقال له: هل لك أن تدخل إليها وتسمع منها؟ فامتنع وأبى، فقال له: أنا أقعدك في موضع تسمع من غنائها ولا تراها ولا تراك. ولم يزل به حتى دخل وسمع غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك أن أخرجها لك؟ فامتنع بعض الامتناع، ثم أجابه. فأخرجها إليه، وأقدها بين يديه، وغنته، فشغف بها، وشغفت به. وكان أديباً ظريفاً. واشتهر أمره معها بمكة حتى سموا سلاماً القس.

وخلا معها يوماً، فقالت له: أنا، والله، أحبك فقال له: أنا، والله، كذلك. قالت له: أحب أن أضع فمك على فمي. قال: وأنا، والله. قالت: فما يمنحك من ذلك، فوالله إن الموضوع لخالي؟ فقال لها: ويحك، إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين". وأنا أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. ثم نهض وعيناه تذرفان من حبها وعاد إلى الطريقة التي كان عليها من التسك والعبادة. وكان يمر في بعض الأيام بابها فيرسل إليها بالسلام فيقال له: أدخل فيأبى. وقال فيها أشعاراً كثيرة، وغنته بها. فمنها:

تمشي بمزهرها وأنت حرام	إنّ التي طرقتك بين ركائب
في ذاك أيقاظ ونحن نيام	باتت تعلقنا، وتحسب أننا،
فإذا الذي ما بيننا أحلام	حتى إذا سطع الصبح لناظر
فاعجب بما تأتي به الأيام	قد كنت أعدل في السفاهة أهلها
طرق الضلالة والهدى أقسام	فاليوم أذرهم وأعلم أنما

وفيها قوله:

تحية من زيارته لمام	على سلامة القلب السلام
كأن لقاءها شيء حرام	أحب لقاءها، وألوم نفسي،
وحنت نحوه، أذن الكرام	إذا ما حنّ مزهرها إليها
كأنهم وما ناموا نيام	فمدّوا نحوها الأعناق حتى

وله فيها أشعار كثيرة تركت ذكرها هنا لأنها مستقصاة من أخبارها في كتاب طبقات المغنين.

عبد الملك بين عزّة وبثينة

قال: وفدت عزّة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلما دخلنا عليه انصرف إلى عزّة، وقال لها: أنت عزّة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزّة ولكني أم بكر الصمريّة. قال أتروين قول كثير فيك؟

ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيّر	لقد زعمت أنني تغيّرت بعدها
عهدت، ولم يخبر بسرك مخبر	تغيّر جسمي والخليفة كالتي

قالت: لست أروي هذا، ولكني أروي غيره حيث يقول:

من الصمّ لو يمشي بها العصم زلت	كأنّي أنادي صخرة حين أعرضت
فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّت	صفوحاً فما تلقاك إلا بحيلة

ثم عطف على بثينة فقال لها: ما رأي جميل حين لهج بذكرك بين النساء كلهن؟ قالت: الذي رأى فيك الناس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتى بدت سنّ له سوداء، كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما.

تغير العادات بالنسبة لعلاقة الرجل بالفتاة

وقال محمد بن يحيى المدني: سمعت عطاء يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً كاملاً يفرح إن رأى مرآها، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. فاليوم يشير إليها، وتشير إليه، فإذا التقيا لم يشكوا حباً، ولم ينشدا شعراً. وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه.

هل قبلة المشتاق جناح

وحكى أبو الحسن المدايني قال: هوى بعض المسلمين جارية بمكة فأرادها، فامتنعت عليه. فأنشدها:

سألت الفتى المكّي هل في تزاور
وقبلة مشتاق الفؤاد، جناح؟
فقال: معاذ الله أن يذهب الهوى
تلاصق أكباد بهنّ جراح

فقلت له: بالله، إنك سمعته وسألته فأجابك بهذا الجواب؟ قال: نعم. فزارته وجعلت تقول: إياك أن تتعدى ما أمرك به عطاء.

الحسنات يذهبن السيئات

وروى عبد الرحمن بن نافع، أنّ أبا هريرة سئل عن قول الله عز وجل "الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم". فقال: هي النظرة والغمزة والقبلة. وقال مجاهد: هو الرجل يلتم بالذنب مرة ثم لا يعود، وبإسناد عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنّ رجلاً جاء إليه فقال له: إني أخذت امرأة في البستان فأصبت منها كل شيء، إلا أنّي لم أنكحها فاصنع ما شئت؟ فسكت عنه، صلى الله عليه وسلم. فلما ذهب، دعاه فقراه عليه "أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنّ الحسنات يذهبن السيئات" الآية.

ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟

قيل لأعرابي: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أمتع عيني في وجهها، وقلبي من حديثها، وأستر منها ما لا يحبه الله ولا يرضى بكشفه إلا عند حلّه. قيل: فإن خفت أن لا تجتمعا بعد ذلك؟ قال: أكل قلبي إلى حبها، ولا أصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدا.

سبعة يظلمهم الله بظلمه

ويروى عن أبي هريرة، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنّه قال: "سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمسجد حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقه فلم تعلم شماله ما تنسّر يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه".

الزبّاء وعمر بن أبي ربيعة

وعن عبد الملك بن قريش الأصمعي قال: بصرت الزبّاء بعمر بن أبي ربيعة، وهو يطوف بالبيت، فتنكرت له وفي كفها خلوق، فمسحته بثوبه، فقال:

أدخل الله ربّ موسى وعيسى
مسحت كفها بجيب قميصي
لو تجازى القلوب بالودّ أمسى
جنة الخلد من ملاني خلوقا
حين طفنا بالبيت مسحاً رقيقا
قلبها مانلاً إلينا شفيقا

فنظر إليه عبد الله بن عمر في تلك الحالة ينشد الأبيات، فقال: ما هذا زي المحرم وما يحلّ للمحرم أن يقول مثل هذا القول في هذا الموضع فقال: يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما سمعت، فوربّ هذه البنية، ما حلت إزارى على حرام قط.

ليلي الأخيالية والحجاج

قال الهيثم بن عدي دخلت ليلي بنت عبد الله الأخيالية على الحجاج وعنده وجوه الناس وأشرافهم. فاستأذنته في الإنشاد، فأذن لها، فأنشدته قصيدة مدحته بها. فلما فرغت من إنشادها، قال الحجاج لجلسائه: أندرون من هذه الجارية؟ قالوا: لا نعلم، أصلح الله الأمير، ولكننا لم نر امرأة أكمل منها كمالاً، ولا أجمل منها جمالاً، ولا أطلق لساناً، ولا أبين بياناً، فمن هي؟ قال: هذه هي ليلي الأخيالية صاحبة توبة بن الحمير الذي يقول فيها:

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشط نواها واستمر مريرها

ثم قال لها: يا ليلي ما الذي رابه من سفورك حيث يقول:

وكننت إذا ما زرت ليلي تبرقت فقد رابني منها الغداة سفورها

قالت: أصلح الله الأمير، لم يرني قط إلا متبرقةً وكان أرسل إليّ رسولاً أنه يلّم بنا، ففطن الحيّ لرسوله، فأعدوا له وكمنوا، وفطنت لذلك، فلم يلبث أن جاء، فألقيت، برقعي وسفرت له، فلما رأى ذلك أنكره وعرف الشرّ، فلم يزد أن سلم عليّ وسأل عن حالي وانصرف راجعاً. فقال الحجاج لها: لله درك فهل كانت بينكما ربيبة؟ قالت: لا، والذي أسأله أن يصلحك إلى أن قال مرة قولاً ظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت له مسرعةً هذا الشعر. وأنشأت وهي تقول:

وذي حاجة قلنا له لا تبج بها فليس إليها ما حبيت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب خليل

فلا، والذي أسأله صلاحك، ما كلفني بشيء بعدها استربتته حتى فرّق الدهر بيني وبينه.

العفاف أيام زمان

قال أبو عثمان: قد ترى الأعرابي، وظاهره ظاهر الجفاء، فما هو إلا أن يعشيق حتى تجده أرقّ من الماء، وألطف من الهواء. ومع ذلك يلقي أحدهم عشيقته فيترشّفها ويعانقها من دون الثياب ويمنعه التكرّم ويحجزه الورع عن وطنتها وإن أمكنته. قال ابن هرمة.

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها لحلالها مدفوع

ويقتصرون على الحديث والقبل واللمس. للعشيق من حبيبته نصفها الأعلى قال العتيبي: قبل لبعض الأعراب، ما الذي ينال أحدكم من عشيقته إذا خلا بها؟ قال اللمس والقبل والحديث. قال فهل يطوها؟ قال: بأبي أنت وأمّي ليس هذا عاشقاً هذا طالب ولد.

قال: وكان الشرط بين العاشق ومعشوقه إذا خلوا أن يكون له نصفها الأعلى من سرّتها إلى قمّة رأسها يصنع فيها ما شاء، ولبعلمها من سرّتها إلى أخصصها. وأنشد ابن الأعرابي في مثل ذلك:

فللخل شطر مطلق من عقاله وللبلع شطر ما يرام منيع

وأنشد أبو عمرو بن العلاء في نحوه:

لها نصفان من حل وبِل ونصف كالبحيرة ما يهاج

يقول نصفها الأعلى لعشيقها طلق، ونصفها الآخر عليه كالبحيرة- فإنها كانت في الجاهلية حراماً لا تهاج ولا تركب ولا تمنع من كلاً ولا ماء- وأنشد الأصمعي لبعض ظرفاء العرب يخاطب بعلى عشيقته:

فهل لك في البدال أبا زنيم

وأفنع بالأكارع والعجوب

قال إبراهيم بن بشارة الناظم: قد يمكن الرجل أن يحتجز عن ذلك ما دام ليس له هنالك إلا الحديث والقبلة، فأما إذا ترشّفها وعانقها من دون ثيابها فلا بد أن ينعظ وينشط وإذا أنعظ وهو في الإزار معها انتقض العزم، كما قال عبد الرحمن بن أمّ الحكم:

وكأس ترى بين الإناء وبينها
ترى شاربها حين يعثرونها
فما ظنّ ذا الواشي بأبيض ماجدٍ
دعنتي أخوا أمّ عمرو ولم أكن
دعنتي أخواها بعد ما كان بيننا
قذى العين قد نازعت أم أبان
يميلاً أحياناً ويعتدلان
وبيضاء خودٍ حين يلتقيان
أخاها ولم أضع لها بلبان
من الأمر ما لا يفعل الأخوان

عادات أهل طبرستان في الزواج

وقد ذكرنا: أنّ أهل طبرستان لا تتزوج الجارية منهم حتى يستظهر بها حولاً كاملاً محرماً ثمّ يقدم بها فيخطبها إلى أهلها ثم يتزوج بها، ويزعمون مع ذلك أنّهم يجدونها بكرأ، وقد عانقها في إزار واحد سنة تامّة وهو لا يستظهر بها، ويحتمل وحشة الاغتراب، وانقطاع الأسباب إلا من عشق غالب. ولا يجوز أن تواتيه الجارية إلا وبها شبه الذي به. وإنّ من أعجب العجب أن يمكثا متعانقين في لحافٍ واحدٍ ثمّ يحتجزان عن الزنا تكراً وتحرّجاً! وهذا التكرّم عند علوج طبرستان من العجائب.

العقلاء والمجانين

ومن قول سهيل بن هارون: ثلاثة من المجانين وإن كانوا عقلاء: الغضبان، والعزبان، والسكران. فقال له أبو عبيد الله الخليلع: والمنعظ يا أبو عمرو؟ فقال: والمنعظ. وضحك وأنشد:

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو
بصاحبك الذي لا تصحينا

فقيّد ثقيف عاشق زوجة أخيه

قال الأصمعي: كان فتى من ثقيف شديد الحياء، كريماً أديباً، فبينما هو جالس، إذ مرّت به امرأة من أجمل النساء فلم يتمالك أن قام من الحياء من مجلسه ليعلم من هي، وأين تريد. وقد كلف بها واشتدّ عشقه لها، فأتبعها حتى دخل منزل أخيه فإذا هي امرأته، فضاق به الأمر ولم يدر ما يصنع، وكنم شأنه، وجعل ما به يزداد كل يوم حتى نحل جسمه، فأنكر شأنه أخوه وأهله وسألوه عمّا به. فلم يخبرهم بشيء من أمره. فدعا أخوه الأطباء فعالجوه فلم يغنوا عنه شيئاً، فلما أعياهم ما به، وزاد سقمه، سلّمه أخوه إلى الحارث بن كلدة وكان من أطباء العرب فنظر إليه الحارث فلم يرى به داء ينكر، غير أنّه ظنّ أنّه عاشق. فخلا به الحارث فسأله، فأبى أن يقرّ له بشيء. فلما أعي الحارث جعل يسأل عن أسمائهم وأسماء نسائهم، والفتى ملقى بين يديه، كلّما سميت امرأة منهم نظر الحارث وجه المريض حتى جاء اسم امرأة أخيه فارتاح وتنفس، واغرورقت عيناه بالدموع. فعلم الحارث أمره، وقال لأخيه: إذهب فجنّني بجميع أهليكم، ولا يتخلّف عني منهم امرأة ولا رجلاً، فأبى قد وقعت على دائه. فخرج أخوه حتى أتى أهله، فجميعهم في منزل ونقل الحارث المريض إليهم، وقال: لا يغيبنّ عنه امرأة ولا رجلاً. فلما نظر الرجل إلى امرأة أخيه خفت عنه بعض ما كان يجده. فعرف الحارث ذلك منه، فأمر بشاة فذبحت، وأخرج كبدها فوضعها على النار، ثمّ أطعمه منها فأكل ثمّ مزج له شربة خفيفة فسقاه، وفعل به ذلك أياماً يزيد في كلّ يوم شيئاً قليلاً في مطعمه ومشربه. فحسنت حاله، ورجع إليه بعض جسمه.

فلما رأى الحارث أنّه قوي بعض القوّة صنع له طعاماً وهياً له شرباً ثمّ أحضر الفتى وأخاه قطعما وشربا، وأمر الحارث أخاه أن ينصرف وقام هو وكلّ هو بالفتى من يسقيه ويغنيه، وقال: احفظ حديثه، وكلّ ما يتكلّم به، وحدّثه كلّ حديثٍ تعرفه في العشق وأخبار العشاق، وأشعارهم. فلما أخذ الشراب في الفتى تغنى:

أهل ودّي، ألا سلموا
وقفوا كي تكلموا:

من فؤادي وأنعم
وفؤادي متيم
أبد الدهر يسقم.

أخذ الحي حظهم
فهومي كثيرة،
وأخو الحب جسمه

فلما أصبح الحارث، دعا الموكل بالفتى فسأله، فعرفه بكل شيء، فحدثه وأنشد الأبيات التي تغنى بها. فدعا أخاه
فعرّفه إنه عاشقٌ لامرأته. فقال له: يا أخي أنا أنزل لك عنها وتنزّوجها. فلما سمعه الفتى استحيا وخرج هارباً
على وجهه، فلم يقفوا له على خبرٍ إلى اليوم فسَميَ فقيد تقيف.

من يفعل مثقال ذرة خيراً يره

وروى نافع مولى ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بيننا ثلاثة نفرٍ يمشون إذ أخذهم المطر
فأووا إلى غار في جبل. فانحط عليهم من الجبل صخرةٌ فانطبقت عليهم، وقال بعضهم: انظروا أعمالاً عملتموها
لله صالحاً، فادعوا الله بها. فدعوا الله، تبارك وتعالى، فقال أحدهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شبخان
كبيران، وامرأةٌ وصبيان، فكنت أرعى عليهم فإذا رحلت إليهم حلبت، وبدأت بوالدي أسقيهما قبل بني. وإنّي لم
أت يوماً حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقامت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من
نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، فجعلوا يتضاغون تحت قدمي، فلم يزل ذلك دأبهم حتى طلع الفجر. فإن
كنت تعلم إنّي فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عني فرجةً نرى منها السماء. ففرّج الله له فرجةً.
وقال الآخر: اللهم إنك تعلم إنه كانت لي ابنةٌ عمّ فأحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها فأبّت
حتى أتيتها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فجنّتها بها، فلما قعدت بين رجليها، قالت: يا عبد الله، اتق
الله ولا تفضنّ الخاتم إلا بحقه. فقامت عنها فإن كنت تعلم إنّي فعلت ذلك ابتغاء وجه ربك، فأفرج عني فرجةً من
السماء. ففرّج الله جل ثناؤه فرجةً.

وقال الآخر: اللهم إنك تعلم أنني استأجرت أجيراً فلما قضى عمله، قال: أعطني حقّي. فأعرضت عنه وتركته، ثم
اشتريت بحقه بقراً وراعياً لها فجاءني بعد حين، فقال لي: اتق الله ولا تظلمني، وأعطني حقّي. فقلت له: اذهب
إلى تلك البقر وراعيها. فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أنني فعلت ابتغاء وجهك، فأفرج لنا ما بقي. ففرّجها الله
عنهم."

هذا طالب ولد

قال الأصمعي: قلت لأعرابية من بني عذرة: أنتم أكثر الناس عشقاً فما تعدّون العشق فيكم؟ قالت: الغمزة والقبلة
والضمة. ثم قالت:

وغمز كف، وعضد .
إن نكح الحبّ فسد.

ما الحبّ إلا قبلة،
ما الحبّ إلا هكذا،

ثم قالت: وأنتم يا حضر، كيف تعدّون العشق فيكم؟ قلت: يقعد بين رجليها ويجهد نفسه. فقالت: يا ابن أخي، ما
هذا عاشقاً هذا طالب ولد.

السبيل لدخول المرأة إلى الجنة

وروي عن عبد الرحمن بن عوف، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا صلّت المرأة خمسها، وحفظت
فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت الجنة.

راودته عن نفسها فأبى

عرض الحجاج سجنه يوماً، فأتي برجل فقال له: ما كان جرمك؟ قال: أصلح الله الأمير، أخذني العسس وأنا
مخبرك بخبري، فإن يكن الكذب ينجي فالصدق أولى بالنجاة. فقال: ما قصّتك؟ قال: كنت أحملاً لرجلٍ فضرب
الأمير عليه العيب إلى خراسان، فكانت امرأته تجد بي وأنا لا أشعر، فبعثت إليّ يوماً رسولاً قد جاء كتاب
صاحبك فهلم لتقرأه. فمضيت إليها، فجعلت تشغلني بالحديث حتى صلينا العشاء، ثم أظهرت لي ما في نفسها،

ودعتني إلى السوء، فأبيت ذلك. فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحنّ ولأقولنّ أنك لص. فلما أبيت عليها صرخت فخرجت هارباً. وكان القتل أهون عليّ من خيانة أخي. فلقيني عسس الأمير فأخذوني. وأنا أقول متمثلاً:

رَبِّ بِيضَاءِ ذَاتِ دَلٍّ وَحَسَنِ
لَمْ يَكُنْ شَأْنِي الْعَفَافَ وَلَكِنْ
قَدْ دَعَتْنِي لَوْصَلَهَا فَأَبَيْتُ
كَنْتُ نَدْمَانَ زَوْجَهَا فَاسْتَحَيْتُ

فعرّف صدق حديثه وأمر بإطلاقه.

يعاملها بما يرضي الربّ

قيل لبعض الأعراب، وقد طال عشقه لجارية: ما أنت صنّع لو ظفرت بها ولا يراكمما غير الله؟ قال: إذا، والله لا أجعله أهون الناظرين، لكنّي أفعل بها ما أفعل بحضرة أهلها، حديث يطول، ولحظ قليل وترك ما يكره الربّ، وينقطع به الحبّ.

ردّ الجارية ولك الجنة

قال محمد بن عبيد الزاهد: كانت عندي جاريةً فبعتهَا، فتبعتهَا نفسي، فسرت إلى مولاها مع جماعة إخوانه، فسألوه أن يقبلوني ويربح عليّ ما شاء، فأبى، فانصرفت من عنده مهموماً مغموماً، فبتت ساهراً لا أدري ما أصنع، فلما رأيت ما بي من الجهد، كتبت اسمها في راحتي، واستقبلت القبلة. فكلّ ما طرفني طارق من ذكرها رفعت يدي إلى السماء وقلت: يا سيدي هذه قصتي. حتى إذا كان في السحر من اليوم الثاني، إذ أنا برجل يدق الباب، فقلت: من هذا: أنا مولى الجارية. ففتحت، وإذا بها. فقال: خذها بارك الله لك فيها! فقلت: خذ مالك والريح. فقال: ما كنت لأخذ ديناراً ولا درهماً. قلت فلم ذلك؟ قال: أتاني الليلة في منامي أت فقال: ردّ الجارية على ابن عبيد الله، ولك الجنة.

جود عبد الله بن جعفر

وكان عبد الرحمن بن أبي عمّار فقيه أهل الحجاز قد مرّ بنخّاس معه فتيات، فنظر إليهنّ، فتعلّق بواحدةٍ منهنّ، فاشتدّ وجده بها، واشتهر بذكرها، حتى أتى إليه عطاء ومجاهد يعذّبونه. فلم يكن جوابه إلا أن قال:

يلومونني فيك أقوامٌ أجالسهم
فما أبالي أطل اللوم أم قصر

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر فخرج حاجاً بسببه، وبعث إلى مولى الجارية واشتراها منه بأربعين ألفاً، وأمر قيّمة جواريه فحلّتْها وزينتها. وبلغ الناس قدومه، فدخلوا إليه للسلام عليه وفيهم عبد الرحمن بن عمّار. فلما أراد الشخوص استجلسه، فقال له: ما فعل حبّ فلانة؟ قال: مشوب اللحم و الدّم والمخّ والعظم والعصب. وأمر الجارية فأخرجت إليه، وقال: هي هذه؟ قال: نعم، أصلحك الله. قال: إنّما اشتريتها لك، فوالله ما دنوت منها، فشأنك بها، فهي لك مباركة. وأمر له بمائة درهم، وقال له: خذ هذا المال لنلّا تهتمّ بها وتهتمّ بك. قال، فبكي عبد الرحمن فرحاً وقال: يا أهل البيت قد خصّمكم الله بأشرف ما خصّ به أحداً من صلب آدم، فلتهنّكم هذه النعمة، وبارك لكم فيها. فكان هذا الفعل بعض ما اشتهر به عبد الله بن جعفر من الجود.

الزنا أنواع

وقيل لأعرابي: أتعرّف الزنا، قال: وكيف لا. قيل: فما هو؟ قال: مصّ الرّيقة، ولثمّ العشيقة، والأخذ من الحديث بنصيب. قيل: ما هكذا نعدّه فينا! قال: فما تعدّونه؟ قيل: النّقّ الشديد أن تجمع بين الرّكبة والوريد، وصوت يوقظ النّوم، وفعلٌ يوجب كثيراً من الأثام. قال: لله ما يفعل هذا العدوّ البعيد، فكيف الصّديق الودود.

أخبار أهل العفاف

وقيل لآخر: ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أطيع الحب في لثامها، وأعصي الشيطان في أثامها، ولا أفسد بضع عشرة سنين فيما يبقى ذمياً عاره، وينشر قبيح أخباره في ساعة تفقد لذتها. إني إذا لئيم، ولم يلدني كريم.

الحب ما لا يغضب الرب

وقيل لآخر: ما أنت صانع إن ظفرت بمن تحب؟ قال: أحلل ما يشتمل عليه الخمار وأحرّم ما كتّمه الإزار، وأزجر الحبّ عمّا يغضب الربّ.

ليلي وقيس بن الملوّح

وقيل لليلي هذا قيس مات لما به من عشقك. قالت: ولقد خفت والله أن أموت بذلك منه. قيل لها: فما عندك حيلة تخفّ ما به؟ قالت: صبري، وصبره، أو يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

عفراء وعروة بن حزام

وقيل لعفراء، وقد بلغها ما نزل بعروة، فكادت تبوح بسرّها فقيل لها: أما عندك له حيلة تخفّ ما به؟ فقالت: والله، لأننا أسرّ بذلك وأشوق إليه منه، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النار.

مياة وذو الرمة

وقيل لمياة، بعد موت قابوس: ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته؟ قالت: منعتني من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان قلبي منه أكثر ممّا كان قلبه، غير أنّي وجدت ستره أبقى لنا لما في الصدر من المودة، وأحمد للعافية.

الأمر ما تصفون، ولكن...

وقيل لابنة ملك من ملوك الفرس، وقد أجهدها عشق رجل من أساورة أبيها: لو روّحت عن قلبك بالاجتماع معه، كفت ذلك من وجدك. قالت: إن الأمر على ما تصفون، ولكن ما عذري إذ هتكت ستري، وأظهرت أمري، عند من لا يلزمه عاري، ويرغمه اشتهاري، والله لا كان هذا أبداً.

عفراء بنت أحمر والحارث بن الشريد

وحكى السري بن المطّلب قال: كان الحارث بن الشريد يعشق عفراء بنت أحمر. فلما عيل صبره كتب إليها:

وبي منك في الأحشاء أصدق شاهد
تقوم لقلبي في مقام العوائد

صبرت على كتمان حبك برهه
هو الموت إن لم يأتني منك رقعة

فلما وصلت الرقعة كتبت إليه:

ونلت الذي تهوى برغم الحواسد
بي السوء، ما جانب فعل العوائد

كفبت الذي تخشى وصرت إلى المنى
فوالله لولا أن يقال تظننا

فلما وصلت الرقعة إليه وضعها على وجهه، فلما شم رائحة يدها شهق شهقة فقضى نحبّه. فقيل لعفراء ما كان يضرك لو روّحت عن قلبه وأجبتّه بزورة؟ قالت: منعتني من ذلك قولك عفراء قد صبت إلى الحرث! فوالله لأقتلن نفسي من حيث لا يعلم بي أحد إلا الله. فلحقت به سريعاً.

أسماء بنت عبد الله وكامل بن الرّضين

قال العتبي: عشق كامل بن الرّضين أسماء بنت عبد الله بن مسافر التقيفة، وهي ابنة عمّه، فلم يزل به العشق حتّى صار كالشّن البالي. فلما اشتدّ ما به، شكا أبوه إلى أبيها فزوجها له، فحمل إلى دارها وفيه رمق، فلما دخل الدّار، قال: وأنا بموضع تسمع أسماء كلامي؟ قيل: نعم. فشهو شهوةً قضى مكانه. فقيل لها: يا أسماء قد مات بغصّة. قالت: والله لأموتنّ بمثلها، ولقد كنت على زيارته قادرة فمنعني قبح ذكر الرّيبة، وسماجة الغيبة. وسقطت بالمرض، فلما اشتدّ بها، قالت لأخصّ نساءها: صوّري لي صورته، فأني أحبّ أن أزوره قبل موتي. ففعلت. فلما رأت الصّورة اعتنقتها وشهقت شهوةً قضت نحبها. فدفنت مع الفتى في قبرٍ واحدٍ.

وكتب على قبرهما:

بنفسي هما ما متّعا بهواهما	على الدّهر حتّى غيّبا في المقابر
أقاما على غير التزاور برهةً	فلما أصيبا قرّبا بالتزاور
فيا حسن قبر زار قبراً يحبه	ويا زورةً جاءت بربب المقادر

أوصاف الهوى

العشق لسعة من جنون

قال العتبي: قال أعرابيٌّ: إن لم يكن العشق ضرباً من السّحر إنّه لسعة من الجنون.

الهوى والطلول

وسئلت أعرابيةً عن الهوى، فقالت: هو الهوان غلطٌ باسمه، وإنّما يعرف ما نقول من أبكته المعارف والطلول.

الهوى والنار

وسئلت أعرابيةً عن صفة الهوى، فقالت:

الحبّ أوله ميلٌ تهيم به	نفس المحبّ فيلقى الموت كاللعب
يكون مبدؤه من نظرةٍ عرضت	أو مزحةٍ أشعلت في القلب كاللهب
كالنّار مبدؤها من قدحةٍ، فإذا	تضرّمت أحرقت مستجمع الحطب

وأنشد لأبي جعفر الطّربخي:

ليس خطب الهوى بخطبٍ يسير	لا يبتنّك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يدبّر بالراً	ي ولا بالقياس والتّفكير
إنّما الحبّ والهوى خطراتٍ	محدثات الأمور بعد الأمور

الهوى والبلاء

وقال أعرابيٌّ: إنّ الصّبر على الهوى أشدّ من الصّبر على البلاء، كما أنّ الصّبر على المحبوب أشدّ من الصّبر على المكروه.

الهوى والطّيب

وليم بعض الحكماء على الهوى، فقال: لو كان لذي هوئٍ اختيارٌ لاختر أن لا هوئٍ. وأنشد لمجنون ليلي:

أثنتين صلّيت الضحى أم ثمانيا
بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا
وعظم الجوى أعياء الطيب المداويا

أصلّي فلا أدري إذا ما ذكرتها
أراني إذا صلّيت أقبلت نحوها
وما بي إشراكٌ ولكنّ حبّها

الهوى والموت

وأشد لأبي العتاهية:

أنّ المحبّين في لهوٍ ولذات
خيرٌ له من لقاء الموت مرّات

لا بارك الله فيمن كان يخبرني
لموتة تأخذ الإنسان واحدةً

الهوى وأغصانه

وأشد لأعرابي:

وفي طعمها للعاشقين ذعاف
تقتلن أرواحاً وهنّ ضعاف

وللحبّ أغصانٌ تراها نضيرةً
رأيت المنايا في عيون أوانس

الهوى المتجدد

وأشد:

قلوب العاشقين لها وقود
ولكن مثل ما كانت تعود
أعيد من الشقاء لهم جلود

رأيت الحبّ نيراناً تلتطى
فلو كانت، إذا فنيت تقصّت
كأهل النّار إذ فنيت جلود

سكينة بنت الحسين وعروة بن أذينة

وركبت سكينة بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم مع جواربها، فمرّت بعروة بن أذينة الليثي، وهو في فناء قصر ابن عتبة، فقالت لجواربها: من الشّيح؟ فقلن لها: عروة. فعدلت إليه فقالت له: يا أبا عامر، ترعم أنّك لم تعشق قط وأنت تقول؟:

قد كنت عندي تحت السّتر فاستتر
غطّي هواك وما ألقى على بصري .

قالت: وأبنتتها وجدي فبحت به؛
ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها:

كلّ ما ترى حواليّ من جوارٍ أحرارٍ إن كان خرج الكلام من قلبٍ سليم.

أهل الدعاوي الباطلة

وأما أهل الدعاوي الباطلة، التي ليست أجسامهم بناحلة، ولا ألوانه بحائلة، ولا عقوله بذاهية، فهم عند ذوي الفراسة، يكذبون، وعند ذوي الظرف محرومون. فمن ذلك ما روى العباس بن الأحنف، قال: بينما أنا أطوف، إذ بثلاث جوارٍ أتراب، فلما أبصرنني، قلن هذا العباس. ودنت إليّ إحداهنّ، فقالت: يا عباس أنت القائل؟:

طلعت عليّ بليّة من بابه

ماذا لقيت من الهوى وعذابه

قلت: نعم. قالت: كذبت يا ابن الفاعلة، لو كنت كذلك كنت أنا. ثمّ كشفت عن أضاجع معرارة من اللحم، فأنشأت تقول:

ولمّا شكوت الحبّ، قالت: كذبتني،
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا !
فلا حبّ حتّى يلزق الجلد بالحشّا
وتخرس حتّى لا تجيب المناديا.

أحبّ قلبي وما درى بدني

ومن ذلك، ما روي عن إبراهيم بن المهدي قال: دخل عليّ المأمون فقال: بالله يا عم، هل عشقت قط؟ فقلت: نعم.
يا أمير المؤمنين، وأنا السّاعة عاشقٌ. قال: وأنت على هذه الجنّة والجسم الكبير عاشق؟ فأنشأ يقول:

لأنّه أصفرٌ منخول
وجه الذي يعشق معروف

إلى أن قال:

ليس كمن تلقاه ذا
جنّة كآته للذّبح معلوف

فأجابه إبراهيم:

وقائلٍ لست بالمحبّ ولو
كنت محبّاً لذبت مذ زمن
أحبّ قلبي، وما درى بدني،
ولو درى، ما أقام في السّمّن

وهذان قد ادّعىا المحبّة فضحهما شاهد النّظر ولم يجز إدعاؤهما على ذوي المعرفة والنّظر. وقول إبراهيم أحبّ قلبي وما درى بدني من كثرة المحال أن يتعلّق القلب لسبب فيسلم الجسم منه على حالٍ، ولكنّه لاستحيائه من ادّعائه اعتذر، فقبح في اعتذاره. وأنشدني بعض المشايخ:

وقائلةٌ: ما بال جسمك لا يرى
سقيماً وأجسام المحبّين تسقم؟
فقلت لها: قلبي بحبّك لم يبيح
لجسمي، فجسمي بالهوى ليس يعلم !

والعرب تمدح أهل النّحول، وتذمّ أهل السّمّن والجسوم، وتنفيهم عن الأدب، و تنسب أهل النّحول إلى المعرفة وحسن البيان، وأهل السّمّن إلى الغباوة وبعد الأذهان.

البطننة تذهب الفطنة

زعموا أن من غلب عليه البلغم غلظ جسمه، وكبر شحمه، وزاد لحمه، وقلّ فهمه، وطال نسيانه، وتعقّد لسانه، لغلبة البلغم على قلبه والرطوبة على لثته. ومن كان أغلب مزاجه المرة جفّ جسمه، وقلّ لحمه، وصحّ ذهنه، ودقّ فهمه. وأنه يستدلّ بها على أحسن أدب ذوي الألباب، وصحة أذهان ذوي الآداب. لا تكاد تخطي به الفراسة، ولا تكذب فيه الدّلالة لما أخبرتكم من غلبة أحد المزاجين على صاحبه واستقراره في مركبه. وربما أنجب السّمّن، وخاب الهزال. ولا يكون ذلك إلا في الفرد النّادر من الرّجال ومن أمثلة العرب في ذلك: "البطننة تذهب الفطنة."

المغنية محبوبية والمتوكّل

قال عليّ بن الجهم: لمّا أفضت الخلافة إلى جعفر المتوكّل على الله، أهدى إليه ابن طاهر من خراسان هديّةً جليلاً فيها جوار، منهجٌ جاريةٌ يقال لها محبوبية كانت قد نشأت بالطائف، وكان لها مولىٌ قد عنى بها، فبرعت في فنون الأدب، وأجادت الشعر. وكانت راويةً ظريفةً، مجيدةً للغناء. فقربت من قلب المتوكّل. وغلبت عليه. قال: فخرج عليّ يوماً، وقال لي: يا علي، دخلت السّاعة على قينة وقد كتبت بالمسك على خدّها جعفرأ، فما رأيت أحسن منه، فافعل فيه السّاعة شعراً. فأخذت الدّواة والقرطاس، فانقل عليّ، حتّى كآتي ما عملت بيتاً قط

فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أذنت لمحبوبة أن تقول شيئاً عسى أن يفتح لي. فأمرها، فقالت مسرعةً، وأخذت العود فجسته، وصاغت لحناً، واندفعت وغنت:

وكاتبته بالمسك في الخدّ جعفرأ،
لئن أودعت سطرأ من المسك خدّها،
بنفسي خطّ المسك، من حيث أثرأ
لقد أودعت قلبي من الشوق أسطرا .
فاعجب لمملوكٍ يظلّ مملكه
مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرأ

قال عليّ: وغضب عليها مرّة، وكان لا يصبر عنها، فأمر جوارى القصر أن لا تكلمها واحدةً منهم. فكانت في حجرتها أياماً، وقد تنعّص عيشه لفرأقها، فبكرت عليه يوماً، فقال: يا عليّ. قلت لبيك يا أمير المؤمنين. قال: رأيت الليلة في منامي كأنّي رضيت عن محبوبة فصالحتها وصالحنتي. فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينك وسرّك. إنّما هي عبيدتك، والسخط والرّضا بيدك، فوالله، إنّ لفي حديثنا إذ جاءت وصيفةً، فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عودٍ من غرفة محبوبة. قال: فقم بنا يا عليّ ننظر ما تصنع، فنهضنا حتّى أتينا حجرتها، فإذا هي تضرب العود وتغني:

أدور في القصر، لا أرى أحداً
كأنّني قد أتيت معصيةً،
أشكو إليه، ولا يكلمني
ليست لها توبة تخلّصني.
فهل شفيع لنا، إلى ملكٍ،
قد زارني في الكرى فصالحني،
حتّى إذا ما الصّباح لاح لنا،
عاد إلى هجره فصادمني.

قال: فصاح أمير المؤمنين، وصحت معه. فتلقته وأكبّت على رجله تقبلها، فقال: ما هذا؟ فقلت: يا مولاي رأيت في ليلتي هذه كأنك صالحنتي، فتعلّلت بما سمعت. قال: فأنا والله قد رأيت مثل ذلك. وقال: يا عليّ أرايت أعجب من هذا وكيف اتّفق ورجعنا إلى الموضع الذي كنّا فيه. واصطّح. وما زالت تغنيه هذه الأبيات يومنا ذلك. وازدادت حظوتها عنده حتّى كان من أمره ما كان. فتفرّقت جواريه، فصارت محبوبة إلى الوصيف الكبير، فما زالت باكيةً حزينةً، فدعاها يوماً مع من صار إليه من جوارى المتوكّل فأمرهنّ فغنين. ثمّ أمرها فاستعفته فأبى، فقلن لها: لو كان في حزننا فرحٌ لطلّ حزننا معك. وجيء بعودٍ فغنت به:

أيّ عيشٍ يلدّ لي
كلّ من كان ذا صنأ
لا أرى فيه جعفرا
وسقام فقد برا
تري الموت يشترى
غير محبوبة التي

من أحاديث بني عذرة

ومن ذلك ما حكى جميلٌ بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل حدّثني ببعض أحاديث بني عذرة. فأبى بلغني إنهم أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمك أنّ آل بنيّنة انتجعوا عن حيّهم، فوجدوا النّجعة بموضع نازح فظعنوا، فخرجت أريدهم، فبينما أنا أسير إذ غلّطت الطّريق وأجنّني الليل فلاح لي نارٌ، فقصدتها حتّى وردت على راعٍ في أصل جبلٍ قد انحنى عنه إلى كهفٍ فيه، فسلمت، فردّ عليّ السّلام، وقال: أظنّك قد غلّطت الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل وبت الليلة فإذا أصبحت وقفت على القصد فنزلت فرحب بي وأكرمني وذبح شاةً، وأجج ناره، وجعل يشوي ويلقي بين يدي، ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فوضع به جانب الخبا ومهد لي محلاً خالياً فنمت.

فلما كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقت له ليلتي. فلما أصبحت طلبت الإذن فأبى، وقال: الضّيافة ثلاث. فجلست وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب فإذا هو من بني عذرة، من أشرفهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هذا؟ فأخبرني أنّه كان يهوى ابنة عمّ له، وأنّه خطبها من أبيها فأبى أن يزوّجها ليّها لقلة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجلٌ من بني كلاب وخرج بها عن الحي، وأسكنها في موضعه. وأنّه رضي أن يكون لزوّجها راعياً حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها. وأقبل يشكو قديم عشقه لها، وصبايته بها حتّى أتى المساء، وحان وقت مجيئها. فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائماً على قدميه، وأنشأ يقول:

أعاجها طرباً أو صدّها شغل
حتّى الممات وما لي غيركم أمل
لما اعتذرت، ولا طابت لك العلل
تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لزال وانهدّ من أركانه الجبل

ما بال ميّة لا تأتي كعادتها
لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله
لو تعلمين الذي بي من فراقكم
نفسي فداؤك، قد أحللت بي سقماً
لو أنّ ما بي من سقم على جبلٍ

ثمّ قال لي: اجلس، يا أبا بني عذرة، حتّى أكشف خبر ابنة عمّي. ثمّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي هذه ابنة عمّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمّ وضعها بين يديّ، وقال: على رسلك، حتّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ، حتّى آيست من رجوعه، فلم ألبث أن أقبل ورأس الأسد على يديه فوضعه ثمّ، قال: يا أخي إنك ستراني ميّتاً فاعمد إليّ وإلى ابنة عمّي فأدرجنا في كفنٍ واحدٍ، وأدفننا في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

والشّمل يجمعنا والدار والوطن
فصار يجمعنا في بطنها الكفن

كنّا على ظهرها والعيش في مهلٍ
ففرّق الدهر بالتّصريف إلفتنا

وردّ الغنم إلى صاحبها، وأعلمه بقصّتها.

ثمّ عمد إلى خناق وطرحه في عنقه، فناشدته الله لا تفعل، فأبى وخنق نفسه حتّى مات. فلمّا أصبحت كفنتهما ودفنتهما وكتبت الشّعْر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصّتها، فحزن حزناً خفت عليه الهلاك أسفاً على ما فرط من عدم اجتماعهما.

طعم العشق

وقد روي عن محمّد بن جعفر بن الزبير، قال: كنّا عند عروة بن الزبير وعنده رجلٌ من بني عذرة. فقال له: يا عذري بلغني أنّ فيكم رقّةً وغزلاً فأخبرني ببعض ذلك؟ فقال: لقد خلف في الحيّ ثلاثين مريضاً ما بهم داءٌ إلاّ الحب قد خامر قلوبهم وأنّ فيه من المرارة والنكد والكمد ما هو مستعذبٌ عند أربابه، مستحسنٌ عند أصحابه، حلوّ لا تعدّ له حلاوةٌ، ومرٌّ لا تعدّ له مرارةٌ. قال الكميت بن زيد في ذلك:

سائلٌ بذلك من تطعم أو ذق
فيما مضى أحدٌ إذا لم يعشق

الحبّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ
ما ذاق بؤس معيشةٍ ونعيمها

وقال آخر:

إنّي بأحوال الهوى لعليم
فيطير منه فؤاده ويهيم
بين الجوانح والضّلوع مقيم
إنّ البكاء على الحبيب يدوم
والحبّ فيه شقاوةٌ ونعيم
والحبّ أصغر ما يكون عظيم

يا أيّها الرّجل المعذب بالهوى
الحبّ صاحبه يبيت مسهداً
والحبّ داءٌ قد تضمّنه الحشا
والحبّ لا يخفى وإن أخفيته
والحبّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ
والحبّ أهون ما يكون مبرحٌ

وأنشدني أحمد بن يحيى:

ما أطيب الحبّ لولا أنّه نكد
في حلق ذاتقه مرٌّ ولا شهد

سلني عن الحبّ يا من ليس يعلمه
طعمان حلوّ ومرٌّ ليس يعدله

وأنشد أبو الطيّب:

سلني عن الحب يا من ليس يعلمه
 إنني امرؤ بالهوى ما زلت مشتهراً
 عندي من الحب إن ساءلنتني خبر
 لاقيت فيه الذي لم يلقه بشر
 لكن آخره التغيص والكدر
 الحب أوله عذب مذاقته

عروة بن حزام يموت ملوعاً

وذكر ابن عتيق، قال: بينما أنا أسير في أرض بني عذرة، إذ أنا ببيت جديد، فدنوت منه، فإذا بعجوز تعلل شاباً قد نهكته العلة، وبانت عليه الدلة. فسألته عن خبره، فقالت: هذا عروة بن حزام. فدنوت منه، فسمعتة يقول:

من كان من إخواننا باكباً لغد
 فاليوم، أني أراني اليوم مقبوضاً

فقلت: أنت عروة بن حزام؟ قال: نعم، الذي أقول:

جعلت لعرف اليمامة حكمه
 فقالوا: نعم، تشفى من الداء كله.
 وعرف نجر إن هما شفياني
 وقاما مع العواد بيتدراني.
 فما تركا من سلوة يعلمانها،
 فقال: شفاك الله، والله مالنا،
 ولا شربة إلا وقد سقياني.
 بما حملت منك الضلوع، يدان
 على النحر والأحشاء حدّ سنان،
 فعفرأ أصفى الناس عندي مودةً
 وعفراء عندي المعرض المتواني .

ثم شفق شهقة توهمت أنها غشية فتتحتت عنه، ودنت العجوز فوجدته قد قضى نحب. فما برحنا حتى دفناه.

لا ذنب على أهل الهوى

وبلغ العشق أيضاً مجنون عامر إلى ما ذكرناه في موضعه. قال بعضهم: سمعت أعرابية تطوف وهي تقول اللهم مالك يوم القضا، وخالق الأرض والسماء، ارحم أهل الهوى، وأنقذهم من عظيم البلا، فإنك تسمع النجوى، قريب لمن دعا. ثم أنشأت تقول:

يا رب إنك ذو منّ وذو سعة
 الدّاكرين الهوى من بعد ما رقدوا
 دارك بعافية منك المحبينا
 حتى نراهم على الأيدي مكبينا

فقلت لها: يا هذه أيقال هذا في الطواف؟ فقالت: إليك عنّي، لا يرهقك الحب. فقلت: وما الحب؟ فقالت: جل أن يخفى، ودق على أن يرى: له كمون كعمون النار في الحجر، إن قدحته أروى، وإن تركته تواری. قال: فتبعته حتى عرفت منزلها، فلما كان من غد جاء مطر شديد فمررت ببابها وهي قاعدة مع أترب لها، وهن يقطن لها: أضر بنا المطر، ولولا ذلك لخرجنا إلى الطواف فأنشأت تقول:

قالوا أضر بنا السحاب بقطره
 لا تعجبوا ممّا ترون، فإنما
 لما رأها بعبرتي تحكي،
 تلك السماء لرحمتي تبكي.

وقد زعم قوم أنه لا ذنب على أهل الهوى، ولا وزر على ذوي الضنن. إن خطاياهم تنمحي عنهم لطول بلائهم، وكثرة شقائهم، ولما يلقون من القلق، ويعانون من الأرق.

لو أدرك عمر عفراء وعروة لجمعهما

أبو الحسن الميداني عن الأصمعي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أدركت عفراء وعروة، لجمعت بينهما.

العرجي المحتال

قال الزبير بن بكار: كان العرجي وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يعشق أم الأوقص المخزومي القاضي، وهي امرأة من بني تميم، فكان يتعرض لها، فإذا رآته رمت بنفسها وتسترّت منه. فمرّ بها يوماً وهي في بعض نسوة وهن يتحدثن، فعرفها فأحب أن يراها عن قرب، فعدل عنها ولقي أعرابياً راكباً معه لبن رطب، فدفع دابته وثيابه وأخذ قعوده ولبنه، ولبس ثيابه، ثم أقبل على النسوة. فصحن يا أعرابي: عندك لبن؟ قال: نعم ومال إليهن، وجلس يتأمل التميمية وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً. وهن يشربن من اللبن، فقالت له امرأة منهن: أي شيء تطلب يا أعرابي أضاع منك في الأرض؟ قال: نعم قلبي: فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه، وكان أزرق، فعرفته، وقالت: ابن عمر، ورب الكعبة. ووثبت فسترها نساؤها، وقلن له انصرف عنا، لا حاجة لنا إلى لبنك. فمضى منصرفاً.

أهل العشق صحيح مساكين

قال العتبي: سمعت أعرابية تقول: مسكين العاشق، كل شيء عدوه: هبوب الريح تقلقه، ولمعان البرق يورقه، ورسوم الدّيار تحرقه، والعدل يؤلمه، والتذكير يسقمه. إذا دنا الليل منه هرب النوم عنه، ولقد تداويت بالقرب والبعد فما أنجح فيه دواء. ولقد أحسن الذي يقول:

بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا
على أنّ قلب الدار خير من البعد

داؤهما داؤؤهما

وقال أعرابي: إن لي عيناً دموعاً، وقلباً مروءة، فإذا يصنع كل واحدٍ منهما بصاحبه مع أنّ داؤهما داؤؤهما، وسقمهما شفاؤهما.

البعيدة القريبة

وذكر أعرابي وجده بامرأة فقال: ما ازدادت منّي بعداً إلاّ ازددت بها قرباً.

بعدها دهرٌ والساعة شهرٌ

وذكر أعرابي امرأة كان يواصلها في شبابه، فقال: ما كانت أيامي معها إلاّ كأباهيم القطا قصراً، ثمّ طالبت بعدها شوقاً إليها، وأسفاً عليها، فالיום بعدها دهر، والساعة شهر.

رعت لعيسى الودّ

قال أبو بكر بن دريد: كانت امرأة من لحم يقال لها سعدى تهوى ابن عمّ لها، يقال له عيسى. فلما خشي أهلها الفضيحة قالوا لها: إن نطقت فيه بشعرٍ قطعنا لسانك. فعندها قالت:

خليلي إن أصدتما أو هبطتما
ولا تدعا إن لامني ثمّ لائمٌ
فقد شفّ جسمي بعد طول تجلدي
سأرعى لعيسى الودّ ما هبت الصّبا
بلاداً هوى نفسي بها فأذكرانيا
على سخط الواشين أن تعذرانيا
أحاديث عن عيسى تشيب النواصيا
وإن قطعوا في ذلك عمداً لسانيا.

الطلاق بين سعة الثَّقبَة وسرعة الإنزال

طلَّق أعرابيُّ امرأته: فقالت: لم طَلَّقْتَنِي؟ فقال: لأنَّكَ واسعة الثَّقبَة، حديدة الرِّكبة خفيفة الوثبة. فقالت له: وأنت سريع الإراقة، بطيء الأفافة، ثقيلٌ بين اليدين، خفيفٌ بين الرِّجلين.

لبنى وقيس بن ذريح

وطلَّق قيس بن ذريح امرأته لبنى فندم على ذلك، وقال:

فواكيدي على تسريح لبني	فكان فراق لبني كالخداع
تكتفني الوشاة فأزعجوني	فيا للنَّاس للواشي المطاع
فأصبحت الغداة ألوم نفسي	على أمرٍ وليس بمستطاع
كمغبونٍ يعضُّ على يديه	تبيِّن غبنه بعد البياح

الحجاج وابنة عبد الله بن جعفر

وتزوَّج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر، فلما دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجود على خدِّها، فقال لها: بأبي وأمي، ممَّ تبكين؟ فقالت: من شرفٍ أتضع، ومن ضعةٍ شرفت. فلما كتب إليها عبد الملك بن مروان بطلاقها، قال لها: إنَّ أمير المؤمنين امرني بطلاقك. قالت: هو والله أبرُّ بي ممَّن زوَّجك إباي. فلما مات أبوها لم تبك عليه، فقيل لها في ذلك، فقالت: والله أنَّ الحزن ليبعثني، وإنَّ الغيظ ليصممتني.

زينب بنت مرّة والمغيرة

وكانت زينب بنت مرّة عند ابن تميم لها يقال له المغيرة فجرى بينهما عتاب فطلَّقها ثلاثاً فقالت:

يا أيُّها الرَّاكب الغادي مطيِّته	عرج أبئك عن بعض الذي أجدّ
ما عالج النَّاس من وجدٍ ومن كمد	إلّا وجدت به فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه، وإنِّي في مسرّته	وودّه آخر الأيّام اجتهد.

الإثم لها في الآخرة

كانت عند رجل امرأةٌ يقال لها أم مالك وكان بها معجباً. فأقسمت عليه أمّه أن يطلقها، فذهب عقله، ونحل جسمه. فحضره الموت، فدخلت عليه أم مالك تعوده، فلما ولّت قال لأمّه: يا عجوز ليهنك فقد ابنك في الدّنيا، والإثم لك في الآخرة. ثم أنشأ أن يقول:

لنا حاجةٌ في آل مروان دونها	من النَّفر الغرِّ الوجوه قبيل
فمت كمداً إنَّ كان يومك قد أتى	أو اصبر على ما خلّيت فقليل

فلما خرجت عنه، فاضت نفسه. وما وصلت إلى منزلها حتّى سقطت ميّتة.

ولات ساعة مندم

قال إبراهيم بن عقبة: طلق أعرابيُّ امرأته وحمله على ذلك عقله فندم. وأنشأ يقول:

إذا ذكرت ليلي تفرق دمه	كأن لم تكن عينٌ بها قبل قرّت
وإنَّ ثلاثاً منك لو تعلمينه	دنت دون حلو العيش حتّى أمرّت

راودها عن نفسها ثم تزوجها

أبو العيناء، عن أبي حمزة الغساني قال: نزل أعرابي من بني أسد بببيت أعرابية من بني تميم ضيفاً، فأنته بقرى حاضر، وماء بارد. فجعل ينظر إليها من وراء الستر، ثم راودها عن نفسها، فقالت له: يا هذا أما يقرّ عك الإسلام والكرم؟ كل، وإن أردت غير ذلك فارتحل. فقال لها: زوجيني إذاً نفسك. فقالت له: الأولياء يزوجونك. فخاف أن لا يزوجه للعداوة بين الحيين، فانتسب إلى بني عذرة فزوجه فأقام عندهم زمناً. ثم علموا أنه أسدي فقالوا له: والله إنك لكفء كريم، ولكن نكره أن تنكح فينا وأنت حرب لنا، فحل عن صاحبتنا. وكان يحبها حباً شديداً فطلقها، وقال:

أحبك يا عم حب الحياة
ويعجبني منك عند اللقاء،
ونائي الجبين، شديد النياض،
له وهج كضرام الحريق،
ونيل المنى وبلوغ الظفر
حياء الكلام، وموت النظر
كثيف الجوانب، مثل القمر .
يكاد يمزق جلد الذكر

قال أبو ذكوان: لم تقل العرب فيما يريده الرجال من النساء أحسن من هذا.

عرضوا عليه زواج البصرية فأبى

قال: خرج محمد بن المشيري الخارجي إلى البصرة في طلب ميراث له، وبها نفر من قومه. فأقام بها حولاً ينشدهم ويحدثهم. وكانت امرأة منهم ذات جمال ومال لا يطمع فيها أحد. فقالوا له: يا أبا سلمان هل لك في امرأة منا، سيده في قومها جمالاً وعقلاً، وعفافاً، ورأياً، قد سمعت بمقدمك، فذكرت لها، فزعمت أنك طلقت زوجتك التي خلقتها في بلدك فرغبت فيك، فإن أحببت أقمت عندنا فيما ترى من طيب بلادنا وربعنا، وعلينا صداقك، وما تحتاج إليه؟ فأقبلوا به وأدبروا واجتهدوا فأبى عليهم، وقال في ذلك:

أسألُ بالعراق فراق سعي
لئن ربح الفراق لهجر سعي
إذا عدلوا أقول لهم: لسعدى
حرام أن يقول نساء قوم
ولا تبدي ولا يراها الفراق
علي أشد ما ربح الفراق
خلانق لا يحل لها الطلاق
تركتك أو تحدث بي الفراق

أهكذا تجازى النساء؟!!

سمعت أعرابية تقول لزوجها: يا مفلس، يا قرنان، فقال لها: إن كان ما ذكرت حقاً فواحدة من الله، وأخرى منك، يا زانية، وأنت طالق ثلاثاً.

حرها واسع

خاصمت امرأة زوجها، فطلقها فقالت له: يا هذا، لم طلقنتي وقد كنت لك ناصحة، وعليك شفيقة، وما في عيب إلا ضيق بجبهتي؟ فقال لها زوجها: لو كان الضيق في حرك ما طلقتك أبداً .

الأهوازية أشد ذكاء

كانت لرجل في الأهواز ضيعة بالبصرة، وكان يتعاهدها في حين الانتفاع بالتمار. فتزوج بها امرأة، وانتهى الخبر إلى امرأته الأهوازية فاستخرقت كتاباً على لسان بعض إخوانه بالبصرة يعزیه في البصرية و يقول: إحق المال الذي خلقت ولا تتأخر. وأعطت الكتاب لبعض الملاحين وجعلت له جعلاً. فلما وصل الكتاب إلى زوجها وجد لموتها وجداً عظيماً، وقال للأهوازية: أصلحي لي سفرتي، فإني راكب إلى البصرة. ففعلت، فلما أصبح الغد ركب فرسه، وأعطته السفرة، ثم قبضت على عنان فرسه وقالت له: ما تكثر اختلافك إلى البصرة إلا ولك بها امرأة تزوجتها؟ فقال لها: والله مالي بالبصرة امرأة. للذي وقف عليه من الكتاب. فقالت له: لست أدري ما تقول؛ وإنما تحلف وتقول أي امرأة لي غيرك طالق ثلاثاً بقول جميع المسلمين؟ فللذي وقف عليه الرجل من

موت البصريّة قال في نفسه: تلك ماتت، فلم أغير صدر هذه: فقال لها: كلّ امرأةٍ لي غيرك في جميع الأقاليم فهي طالقٌ ثلاثاً بقول جميع المسلمين. فقالت له: لا تتعبن فقد طلّقت الحبيبة. فندم الرّجل، وأسقط ما في يديه.

شعر قيسٍ بعد زواج ليلى

ولمّا تزوّجت ليلى صاحبة قيس بن الملوّح، هام على وجهه مع الوحش، وكان يقول:

لها في سواد القلب تسعة أسهم	وللناس في ذاك المكان عشير
ولست بمحصّ حبّ ليلى لسائلٍ	من الناس إلا من يقول كثير.
وتنشر نفسي بعد موتي لذكرها،	فموت نفسي مرّةً ونشور.
أتاني بعد ظهر الغيب أن قد تزوّجت،	فكادت بي الأرض البراح تمور
فقلت، وقد أيقنت أن ليس بيننا	تلاق، وعيني بالدموع تفور:
لئن كان تبدي برد إيمانها العلى	لأفقر منّي أنني لفقير.
فما أسرع الأخبار أن قد تزوّجت،	فهل يأتيني بالطلاق. تشير؟

أيريدُه فحلاً لبناته

حكى إبراهيم بن محمّد بن عرفة قال: كانت أمّ عبد الملك بن سعيد بن خالد بن عمرو، عند الوليد بن يزيد بن عبد الملك. فمرض سعيدٌ، وهو بالبادية، فعاده، فدخل عليه وعنده أختها سلمى، فستروها، فرأى منها لمحّة ثمّ قامت، فرأى طولها فطلق أختها وخطبها، فلم يزوجه إياها وكانت أختها أمّ عثمان عند هشام بن عبد الملك، فبعثت إلى أبيها: إياك أن تزوّج الوليد، تريده أن تتخذَه فحلاً لبناتك يطلق واحدةً ويتزوّج أخرى؟ فأبى أن يزوجه. فقال الوليد: العجب من سعيدٍ، خطبت إليه فردني، ولو قد مات هشامٌ واستخلفت لزوّجنيها، فإن زوّجتها فهي طالق، وإن كنت أهواها. وقد ذكرنا حديثه مستقصى في موضعه من هذا الكتاب.

هي طالقٌ ألف مرّة

خاصمت امرأةً زوجها إلى المطّلب بن حبط المخزومي قاضي المدينة، وكانت قالت له: أسأت إليّ وأوجعتني، ووالله ما أستطيع، فإنّ بنتك تمسي من الجوع والجهد وما أقمن إلاّ على الوطن. فقال: أنت طالقٌ إن كان لا يقمن إلاّ على الوطن! فأخبرت القاضي بما قالت، وبما قال. فقال القاضي: بطلب المقادير، وربّ الكعبة، إنّ الأيل ليكون بالمكان الجذب الخسيس المرعى فتقيم فيه بحبّ الوطن. فقال الزوج: كأنّ المسألة، أصلح الله القاضي، أشكلت عليك هي طالقٌ ألف مرّة.

طلّقها وندم

وطلق عليّ بن منظور امرأته فندم عليها ندماً شديداً، فقال:

ما للطلاق فقدته	وفقدت عاقبة الطلاق
طلّقت خير خليةٍ	تحت السّموات الطّباق

وأحبّت امرأة الأعرابي أن تفارقه فقال:

تمنّين الطلاق وأنت منّي	بعيشٍ مثل مشرفة الجمال
-------------------------	------------------------

أحبّ إليه ليلةً طلق فيها نساؤه

قال خالد بن صفوان: ما بتّ ليلةً أحبّ إليّ من ليلةٍ طلّقت فيها نسائي، فأرجع والسّتور قد هتكت ومتاع البيت قد نقل. فبعثت إليّ بنتي سليلة فيها طعامٌ، وبعثت الأخرى إليّ بفراشٍ أنام عليه.

أو ضيق الفرج أو الطلاق

وقيل لامرأة كانت تطلق كثيراً: ما لك تطلقين أبداً؟ قالت: يريدون الضيق، ضيق الله عليهم قبورهم.

طلقها ثلاثاً

وقال أعرابي لامرأته:

أنوّهت باسمي في العالمين
فأنت الطلاق وأنت الطلاق
وأفانيت عمري عاماً فعاماً
ق وأنت الطلاق ثلاثاً توأماً

حلاوة الجماع

عن عروة بن الزبير، عن عائشة، رضي الله عنها: أن امرأة رفاعة أتت إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله إن رفاعة طلقني، فبنت طلاق، وإني تزوجت بعده بعبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هدبة الثوب، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة! لا، حتى تذوقي عسيلة الزوج الثاني ويذوق عسيلتك.

طلقها عدد شعر مؤخرتها

دخل مدني البصرة، فزوج فيها امرأة: ثم حصل بينهما شرٌّ، فقال لها: أنت طالق عدد شعر أسنتك. فقالت: قاتلكم الله يا أهل المدينة تسرعون الطلاق وتؤثرون الخلاق.

يلتمسون الضيق ضيق الله عليهم

قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لعطاء بن صيفي الثقفي: لو أصبت ركوة مملوءة خمرأً بالبيع ما كنت صانعاً بها؟ قال: أفرقها في بني النجار فإنها لا تعدوهم. ولكن أخبرني، أيهما أكبر جدك ثابت أم جدتك فريعة؟ قال لا أدري. قال عطاء: الفريعة كانت أكبر، وقد تزوجتها قبله أربعة أزواج كلهم يلقاها بمثل ذراع البكر ثم يطلقها. فقيل لها: يا فريعة، لم تطلقين وأنت بمثل هذا الجمال؟ قالت: يلتمسون الضيق، ضيق الله عليهم.

مكابدة العفة أيسر من الاحتيال

وطلق أعرابي زوجته، فقيل له: ألا تتزوج بعدها؟ قال: مكابدة العفة، أيسر من الاحتيال بمصلحة العيال.

ضرب فسخرت منه فطلقها

تزوج الفضل بن قطن الحارثي ابنة المهلب بن أبي صفرة. فجلس معها يشرب، فأراد الافتخار عليها فقال:

إن كنت ساقية يوماً على كرم
كأس المدام فأسقيها بني قطن

ثم إنه تحرّك فضرط. فقالت: وأسقي هذه بني قطن أيضاً؟ فحجل وقال: إذهبي فأنت طالق.

طلقها فتزوجت رجلاً دميماً

وطلق عطية بنت أشجع محجوبة بنت عبد الله، امرأته فتزوجت رجلاً دميماً فقال في ذلك:

لعمري أبي سلمى، ولست بشامت
وليس لمغفوراً لسلمى ذنوبها
بسلمى، فقد أمست بها النعل زلت
وإن هي صامت كل يوم وصلت،

ولو ركبت ما حرم الله لم يكن

بأعظم عند الله مما استحللت؟

الكاذبة الفاجرة الضارطة

كانت لبعض الصالحين امرأة تبغضه، فكان إذا نهاها عن أمر دعت الله أن يريحها منه، وأن يعجل طلاقها، فأضجرت يوماً فطلقها، فسجدت لله شكراً، فقال الرجل: اللهم إنها وضعت إليك فما كاذباً، ووجهاً وقاحاً، ورفعت أستا مجاهرةً بالفحشاء فاجرةً. فوثب سنور في البيت فأفزعها، فضرطت، فقال: الحمد لله الذي سهّل فرقتك وعجل فضيحتك.

باب ما جاء في الغيرة

يروى عن عروة بن الزبير، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول وهو على المنبر: "لا شيء أغبر من الله." وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: أن الله ليغار للمسلم فليغر وعنه، وعن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "ليس شيء أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش." وعن كعب بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "الغيرة، غيرتان: فغيرة يحبها الله، وغيرة يكرها الله." قلنا يا رسول الله، ما الغيرة التي يحبها الله، قال: "أن يغار أن يأتي معاصي الله، وينتهك محارمه." قلنا وما الغيرة التي يكرها: قال "أن يغار أحدكم في غير كنهه." وعن عبد الملك بن عمير بن عبد الله بن بكر أنه قال: "الغيرة غيرتان: غيرة يصلحها بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار".

ويروى: أن سارة كانت تحب إبراهيم خليل الرحمن. فمكثت معه دهرًا لا ترزق ولدًا، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر، وكانت أمة لها قبطية، فولدت لإبراهيم إسماعيل، صلى الله عليهما، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها، وعبت على هاجر. فحلفت لتقطع عضوًا من أعضائها فقال لها إبراهيم، صلى الله على نبينا وعليه: هل لك أن تري يمينك؟ قالت: كيف أصنع؟ قال: أنقبي أذنيها وخصفها. والخصف هو الخياطة. ففعلت ذلك بها، فوضعت في أذني هاجر قرطين فازدادت حسناً. فقال سارة: إني إنما زدتها جمالاً: فلم تتركه على كونها معه. ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً، فنقلها إلى مكة وكان يزورها في كل وقت من الشأم لشغفه بها، وقلة صبره عنها.

الكلام عن بعد ممنوع

وعن ابن أبي مليكة: أن ابن عمرو سمع امرأته تكلم امرأة من وراء جدار، بينها وبينها قرابة لا يعلمها ابن عمرو، قال: فجمع لها جراند ثم أتى فضربها بها.

عادة غير مستحسنة

وعن علقمة: أن معاذ بن جبل كان يأكل تفاحةً ومعه امرأته فدخل عليها غلامٌ، فناولته امرأته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها ضرباً.

غيرة المرأة على قدر لذتها

وقال بعضهم: لذة المرأة على قدر شهوتها، وغيرتها على قدر لذتها. واستدل بإفراط غيرتها على إفراط حرصها. وهذا القول خطأ قد علمنا أن الرجل أشد غيرةً على المرأة من المرأة على الرجل. وربما كان الذي يبدو من المرأة عند تسري زوجها بالسراري وتزويجه المهورات، وحين تراه مع بعضهن توهيماً للفعل أن ذلك من الطربة والكراهة المشاركة فيه. وبعض ذلك يكون من طريق الألفة والنفاسة به، وليس شكل ما تلقى المرأة إذا رأت فراشها، من شكل ما يلقى الرجل إذا رأى على فراش امرأته رجلاً. لأن المرأة قد عاينت أن الرجل له أربع نسوة وألف جارية يطوئن بملك اليمين، لما أحله الله في الشريعة. وكذلك غيرة فحول الحيوان على إناثها، لأن فحول الحيوان يقاتل دونها كل فحول يعرض لها حتى تصير إلى الغالب. قال الراجز.

يغار والغيرة في خلق الذكر والأمم تختلف في الغيرة. فمن الصقالبة ناس لا يتزوجون من قرب منهم في النسب ولا الدار. وإذا مات البعل خنقت المرأة نفسها أسفاً عليه.

والمرأة في الهند إذا مات زوجها وأرادوا حرقه، جاءت ليحرقوها معه.

والدَّيْلِمِي يخرج من الدَّيْلِم إلى حدود ما بين دار الإسلام والدَّيْلِم، ومعه امرأته وإخوانه وعمَّاته فيبيعهنَّ صفقةً واحدةً، ويسلمهنَّ إلى المبتاع، لا تدمع عينه ولا عينٌ واحدةٌ من عياله.

تكرّم طبرستان من العجائب

وأهل طبرستان لا يتزوج الرَّجُل الجارية منهنَّ حتّى يستبطن بها حولاً محرّماً ثمّ يقدم بها فيخطبها إلى أهلها ويتزوجها، ثمّ يزعمون مع ذلك أنّه يجدها بكرًا، وقد عانقها في إزار واحدٍ سنةً كاملةً وهو لا يستبطن بها، ويحتمل وحشة الاغتراب، وانقطاع الأسباب. وإنّ من أعجب العجّب أن يمكثا متعانقين في لحافٍ واحدٍ يحتجران عن ألدّ الأمور تكرّماً. وهذا التّكرّم عند علوج طبرستان من العجائب.

ثلاث خصالٍ من السّودد

قال معاوية، رضي الله عنه: ثلاث خصالٍ من السّودد، الصّلع، واندماج البطن، وترك الإفراط في الغيرة.

غيرة قيس بن زهير

ولمّا نزل قيس بن زهير ببعض العرب قال لهم: أتّي غيورٌ، وأنا فخورٌ، وأنا أنفٌ، ولكن لا أغار حتّى أرى، ولا أفخر حتّى أ فعل، ولا أنف حتّى أضام. فعابوه بقوله لا أغار حتّى أرى ويظنّ به إنّما عني رؤية السّبب لا رؤية المرافقة.

وعابوا معاوية أيضاً بقوله هذا ونسيوه إلى قلة الغيرة وما أرى في قوله وترك الإفراط في الغيرة عيباً لأنّ الإفراط المجاوز للحقّ ولمقدار المصلحة وظلم الخليفة العفيفة والحرمة الكريمة غير لائق.

وعاب النّاس قول هديّة بن خشرم حيث يقول:

فلا تنكحي إن فرّق الدهر بيننا أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا

فهذا يأمرها بتزويج الأنزع القليل شعر القفا والوجه.

ولا أرى فيه عيباً أيضاً لأنّ إنّما قال ذلك ليذكّر لها جمال نفسه ليزهدها في غيره.

عبد الملك يعيب قولاً على نصيب

وأما قول نصيب:

أهيم بدعٍ ما حبيبت وإن أمتي فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي

فإنّي لم أجد له تأويلاً. وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان، وقال لجلسائه: أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا: لا ندري، فكيف كان أمير المؤمنين قائلًا: قال: كان يقول:

أهيم بدعٍ ما حبيبت فإن أمتي فلا صلحت دعد لذي خلّة بعدي

بعض عادات العرب

وكان الرَّجُل من العرب إذا خرج مسافراً بدأ بالشّجرة يعقد خيطاً على ساقها أو على غصنٍ من أغصانها، فإذا رجع إلى أهله بدا إلى الشّجرة فنظر إلى الخيط، فإن كان منحلّاً حكم أنّ امرأته خانت، وإن كان على حاله حكم أنّها حفظته.

وأُشَدُّ أَبُو زَيْدٍ النَّحْوِيِّ:

كثرة ما توصي وتعفي والرّتم

هل ينفكك اليوم إن همت بهم

والرّتم اسمٌ للخيط الذي يعقد في الخنصر لتذكّر الحاجة.

وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثّل بقول الشّاعر:

ومودّع لم يستطع تسليماً

ومراكبٍ رجع السّلام بكفّه

الغيور المتعطّق

وقال آخر:

على ملتقانا قائماً يتمطّق
كما مدّ شذقيه الحمار المحنّق

وأضحى الغيور، أرغم الله أنفه،
وقد مدّ شذقيه من الغيظ والأذى

الغيور في نظر الرّاعي

وقال الرّاعي:

كما عضّ برذون على الفاس جامع
وأنّ نداماي الكهول الجحاح
كلامي لمراء السّنا الطّوامح؟

وظلّ الغيور أرضاً ببنايه
لقد رابني أنّ الغيور يودّني
وصدّ ذوات الطّعن عني وقد رأيت

ابن الدّمينّة وخميص الحشا

وقال عبد الله بن الدّمينّة:

خميص الحشا تؤذي القميص عواتقه،
علينا، وتبريح من الغيظ خانقه.
على زعمه، ما دمت حيّاً أرافقه

ولمّا لحقنا بالحمول، ودوننا
عرضنا، فسلمنا، فسلم كارهاً
فرافقه مقدار ميلٍ وليتني،

الدّارمي لا يفارق عرسه

وقال مسكين الدّارمي:

إلى جنب عرسي لا أفارقها شبرا
ليجعلها قبل الممات لها قبراً.
فليس بمنجيبها بنأي له قصرأ،
على غيرها، حتّى أحيط بها خبراً.
فكيف إذا ما سرت عن بيتها شهراً؟

وإنّي امرؤ لا ألقى إلاّ قاعداً
ولا مقسّم لا تبرح الدّهر بيتها
إذا هي لم تحصن أمام قناعها،
ولا حاملي ظنّي، ولا قول قائلٍ
فهيني امرأ راعيت ما دمت شاهداً

وقال مسكين أيضاً:

ألا أيها الغائر المستشيط،
تعار على الناس أن ينظروا!
فما خير عرسٍ إذا خفتها
تكاد تصفّق أضلاعه
فمن ذا يراعي له عرسه

على ما تغار إذا لم تغر؟
وهل يغبن للحاصنات النَّظر؟
وبتّ عليها شديد الحذر!
إذا ما رأى زائراً أو زفر.
إذا ضمّه، والمطيّ، السّفر؟

شعراء ماتوا قتلاً

وثلاثة من شعراء أولاد العجم ممّن كان مشتهراً بالقول مذكوراً، بالشّعْر بالبادية، كلّهم قتلوا منهم: وضاح اليمن، ويسار الكواعب، وسحيم عبد بني الحساس. وإنما قتلوا كفاً عن أولئك النساء، وحفظاً لهنّ، حين رأوا التعرّض، وشنعة تلك الأشعار لا يشغلهم عنها إلا قتلهم مخافة أن يكون ذلك القتل يحقّق المقالة القبيحة. ألا ترى أنّ الحجاج بن يوسف في عتوه لم يتعرّض لابن نمير في تشبّهه بزئبب أخته مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها. فيزيد زائد، ويكثر مكثراً. وكذلك معاوية بن أبي سفيان لم يعترض لعبد الرّحمن بن حسان بن ثابت وكان يتشّبب بابنته، حتّى قال:

ثمّ حاضرتها إلى القبة الخضراء
نمشي في مرمر مسنون

شعر سحيم الإباحي

ومن أحقّ بالقتل من سحيم عبد بني الحساس؟ حيث يقول:

وبتنا وسادانا إلى علجانة
توسدني كفاً وتثني بمعصم
وهبت شمالاً آخر الليل قرّة
فما زال ثوبي طيباً من نسيمها

وحقّف تهاده الرياح تهاديا
عليّ، ونحوي رجلها من ورائيا
ولا ثوب إلاّ درعها وردائيا
إلى الحول حتّى أنهج الثوب باليا

ومروا به ليقتلوه على الذي اتّهم بها، فضحكت، فقال:

فإنّ تضحكي منّي فيا ربّ ليلة،
تركنتك فيها كالقواء المفرج

كاد يقتلها عقيل المرّي

وحكى العنبيّ، قال: سمع عقيل بن علقمة المرّي بنتاً له ضحكت، فشبهت في آخر ضحكها. فأخذ السيف وحمل عليها وهو يقول:

فرقت، أنّي رجلٌ فروقٌ،
من ضحكةٍ آخرها شهيق

قال: فنادت يا أخوتاه! فبادروا فحالوا بينه وبينها.

عقيل وابنته الجرباء

وحكى أبو حاتم السّجستاني عن الأصمعي، قال: كان عقيل بن علقمة غيوراً، وكان الخلفاء يصاهرونه، وكانت له ابنة يقال لها الجرباء. فكان إذا خرج إلى الشّام خرج بها لفرط غيرته. فخرج بها مرّةً وبابنٍ يقال له عميس، فلمّا كانوا بدير سعدٍ قال عقيل:

قضت وطراً من دبر سعدٍ ورّما
غلا غرضٌ ناطحته بالجمامج

ثم قال لابنه أجز يا عميس. فقال:

نشاوي من الإدلاج، ميل العمائم

فأصبحن بالمومة يحملن فتية

ثم قال لابنته: أجززي، يا جرباء. فقالت:

عقارٌ تمشتت في المطا والقوائم .

كأن الكرى أسقاهم صرّ خدية

فقال لها: وما يدريك أنت ما نعت الخمر؟ هذه صفة من قد شربها.

وأخذ السوط فأهوى نحوها، وجاء عميس فحال بينه وبينها، فضربه فأوجعه فرماه عميس بسهم، فشكّ فخذيّه فبرك، فمضوا وتركوه حتّى إذا بلغوا أداني المياه منهم، قالوا: اللهم أسقطننا جزوراً لنا. فأدركوه وخذوا معكم الماء. ففعلوا، فإذا عقيلٌ بارك وهو يقول:

من يلق أبطال الرجال يكلم
شئشنةً أعرفها من أخزم

أنّ ابني زملائي بالدم
ومن يكن درءً به يقوم

ثم زوّجها يزيد بن عبد الملك. وقد ذكرنا خبره في ما مضى.

مقدمات الغيرة

قال: ومما يحدث الهوى في قلوب النساء لغير أزواجهنّ، ويدعوهنّ إلى الحرص على الرجال، والطلب لهنّ أمورٌ منها: أن يظهر لها زوجها شدة الحذر عليها، والاحتفاظ بها، والغيرة في غير موضعها. أو يكون الرجل منهنكاً في الفساد، مظاهراً لها بالزنا. فإن ذلك ممّا يغريها من طلب الرجال، والحرص عليهم. كما قال الشاعر:

وأقبح الغيرة في كلّ حين.
متّبعاً فيها لرجم الظنون،
يخاف، أو ينصبها للعيون.
منك إلى عرضٍ نقيٍّ ودين
فيبتّع المقرون حبل القرين

ما أحسن الغيرة في حينها،
من لم يزل متّهماً عرسه
أوشك أن يغريها بالذي
حسبك من تحصينها ضمّها
لا تطلع منك على ربيّة

عبد الله بن رواحة وزوجته

ذكر الشّعبيّ إنّ عبد الله بن رواحة أصاب جاريةً له، فسمعت به امرأته، فأخذت شفرةً فأنته حين قام وقالت له: أفعلتها يا ابن رواحة؟ فقال: ما فعلت شيئاً. فقالت: لتقرأن قرآناً، وإلا بعجتك بها. قال: ففكرت في قراءة القرآن وأنا جنب فهبت ذلك، وهي امرأةٌ غيراء في يدها شفرةٌ لا آمن أن تأتي بما قالت. فقلت:

إذا أنشقّ معروفٌ من الصّبح ساطع
به موقناتٌ، أن ما قال واقع
إذا استنقلت بالكافرين المضاجع

وفينا رسول الله يتلو كتابه
أرانا الهدى، بعد العمى، فقلوبنا
بييت يجافي جنبه عن فراشه،

قال: فألقت السكّين من يدها، وقالت: أمنت بالله، وكذّبت البصر. قال: فأتيت النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فأخبرته بذلك، فضحك وأعجبه ما صنعت.

المصيبة في معاتبة المرأة الرَّجل

وكان بعض العلماء لشدة شهوة الباه في قلوب النساء، وتمكّنه فيهنّ، وشدة غيرته، يقول: ليس المصيبة في معاتبة الرَّجل المرأة، إنّما المصيبة في معاتبتها إياه. فإنّها إن نظرت إليه ووقع بقلبها موقع حظوة لم يلبث أن تصير في يده، وتبعث الرسائل والأشعار والتحف.

يخاف عليها من عينيها

قال إسحاق: رأيت رجلاً بطريق مكة، تعادله في المحمل جاريةً قد شدّ عينيها والغطا مكشوف، ووجها بادٍ، فقلت له في ذلك. فقال: إنّما أخاف عليها من عينيها، لا من عيون الناس.

سعيد بن سليمان والإتكشاف

قال سعيد بن سليمان لئن يرى حرمتي ألف رجلٍ على حالٍ يكشف منها، ولا تراهم، أحبّ إليّ من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف.

حتّى على العميان

واستأذن ابن أمّ مكتومٍ عل رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعنده امرأتان من نسائه، فقال لهما: "قوما وأدخلا البيت". فقالتا: يا رسول الله، هو أعمى، فقال: "أفعمياوان أنتما؟".

باب تابع لما قبله

وبالرّجال أعظم حاجةٍ إلى أن يعرفوه ويقفوا عليه، وهو الاحتراس من أن يلقي الخبر السّابق إلى السّمع لأنّه إذا ألقى دخل ذلك الخبر السّابق إلى مقرّه دخولاً سهلاً وصادف موضعاً وطيباً، وطبيعةً قابلةً. ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته. ومتى ألقى إلى الفتيات شيءٌ من أمور الفتيان في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة، وعند قلة الشواغل، قوي استحكامه، وصعبت إزالته. وكذلك متى ألقى إلى الفتيان شيءٌ من أمورهنّ وهناك سكر الشّباب. فكذلك يكون حالهم، وإنّ الشّياطين ليخلو أحدهم بالغلام الغزير فيقول له لا يكن الغلام فتىً أبداً حتّى يصادف فتىً. فما الماء البارد العذب بأسرع في طباع العطشان من كلمته إذا كان الغلام أدنى هوىً في الفتوة. وكذلك إذا خلت العجوز بالجارية الحديثة.

وقيل لابنة الحسن: لم زيت بعبدك ولم تزن بحرّ، وما أغراك به؟ قالت: طول السّواد، وقرب الوساد. ولو أنّ قبح النّاس وجهاً، وأخبثه نفراً، وأسقطهم همّةً، قال: لامرأةٍ قد تمكن كلامها وأعطته سمعها: والله يا سيّدي ويا مولاتي، لقد أتعبت قلبي، وأرقت عيني، وشغلّنتني عن مهمّ أمرّي، فما أعقل أهلاً ولا مالاً ولا ولداً. لنقض طباعها، وفتح عقدها ولو كانت أبرع الخلق جمالاً، وأكملهم كمالاً. وإنّما قال عمر رضي الله عنه: أضربوهنّ بالعري لأنّ الثّياب هي الدّاعية إلى الخروج من الأعراس، والقيام في المناجاة، والظهور في الأعياد. فمتى كثر خروجها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طباعها، ولو كان بعلها أتمّ حسناً والذي رأته أنقض حسناً، وكانت بما لا تملكه أطرف ممّا تملكه. وكانت ممّا لم تملّه وتستكثر منه أشدّ الوجد وهي به أشدّ استقبالاً. كما قال:

هوى النّفس شيئاً كافتتاد الطّرائف

وللعين ملعى في البلاد ولم يقدر

يجوعهنّ حتّى لا يأسرن

وقيل لعقيل بن علقمة: أما تخاف على بناتك وقد عنسن ولم تزوجهنّ؟ قال: كلاً، أجوعهنّ فلا يأسرن، وأعريهنّ فلا ينظرن. فوافقت إحدى كلمتيه قول النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ووافقت الأخرى قول عمر رضي الله عنه. فإنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "الصّوم وجاء." وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: أضربوهنّ بالعري. قال:

هارون البردعي والعطّار

وكان هارون بن عبد الله البردعي يقول لأهله: محرّم عليك إن نظرت إلى سائل يقف ببابك، وسمعت حلاوة نغمه. وكان ينهي الباعة إذا دخلوا سكنه عن النداء على بضائعهم. ورأيتُه مرّةً يضرب عطّاراً سمعه يترنّم بوصف العطر وكان ينفق بضاعته حسن صوته، فيقول: العود المطريّ، والمحلب واللّبان والمسك والعنبر. ويردّد ذلك بصوته فيرجعه.

فكان النّساء يستمعن إليه ويشرفن من المطالع ويتبعن الأبواب حتّى تصل عيونهنّ إلى النّظر إليه لو أراد الجماع لكفتن الأذان وربما اشترين منه ما لا يحتجن إليه. قال: فقلت له: يا أبا وائل، فإنك قد انعم الله بشيء كنت تمنعه! قال: جعلت فداك، إنّما أ منع منعي لأنفسى لنألا يسمعه من في منزلي. فإنّ النّساء أسرع شيء ذهاب قلوب إلى النّعمة الحسنة، فإن كان معه حسن وجه برئت المرأة من الله أن لم تحتل في صرف قلبه إليها، ويصير الرّوج قواداً. قلت: لا، ولا كلّ هذا! قال: فأسألك ألا سألته أن يستعمل هذا الكلام مرّةً أو مرّتين أو ثلاثاً في غير هذه السّكّة. فذبتنا به إلى غيرها وجعل العطّار ينادي فما أتمّ الثّالثة حتّى تحرّكت أكتافي له طرباً وجعلت لا أمرّ ولا أجي لما سكرت من حسن صوته. فقال: كيف تراه؟ قلت: أراه يستولي على قلوب الرّجال. قال: فكم قلب الرّجل على ترك الثّهتك من قلب المرأة؟ هذا إذا كانت بلغت من السنّ مبلغاً ونقضت شهرتها فأما إذا كانت شابّة ولها فضل جمال، ومعها شدّة شهوة، وكثرة لذّة، وهي ذات حاجة، وخالية الذّرع من الفكرة في المعاش، وخالية القلب، وقد أمنت ضرب الرّوج وتطليقه، وغيره الأخ، وقلة صيانة الأب، وأصابت من يشجّعها على فعلها، ويفتح لها أبواب نظرتها، ويسعى لها في طلب الصّدق، ويحرّضها على الثّهتك، وقد قرب منها الصّوت، وخلت من الرّقيب، ولم يكن لها في الأرض أشراف، ولا أهل عفاف، فما يمرق السّهم من الرّمية كمروق هذه إلى الباطل.

شيطان لا تؤمن عليهما المرأة

وكانت هند بنت المهلب من عقلاء النّساء وكانت تقول: شيطان لا تؤمن عليهما المرأة: الرّجال، والطّيب. سوء الظّن من شدّة الحبّ

وأشّد إسحاق بن إبراهيم:

وإنّي بها في كلّ حالٍ لوائقُ
ولكنّ سوء الظّن من شدّة الحبّ

لا تأمنن النّساء

وأشّد آخر:

لا تأمنن على النّساء ولو أخاً،
كلّ الرّجال وإن تعفّف جهده
ما في الرّجال على النّساء أمين
لا بدّ أنّ بنظرة سيخون

ديك الجنّ وجاريتّه وغلّامه

وقال عبد السّلام بن رغبان المشهور بديك الجنّ شعراً أديباً، ذا همّة حسنة. وكان له غلامٌ كالقمر، وجاريةٌ كالشمس. وكان يهواهما جميعاً. فدخل ذات يومٍ بوجد الجارية معانقةً للغلام تقبله، فشدّ عليهما فقتلها جميعاً. ثمّ جلس عند رأس الجارية فبكاها طويلاً وقال:

يا طلعة طلح الحمام عليها
حكمت سفي في مجال خناقها
رويت من دمها الثرى ولطالما
فوحق نعليها، وما وطىء الحصى،
ما كان قتلها لأنّي لم أكن
فجنى لها ثمر الردى بيديها
ومدمني تجري على خديها
روى الهوى شفتي من شفتيها
شيء أعزّ عليّ من عينيها
أبكي إذا سقط الغبار عليها

لكن بخلت على الأنام بحسنها

وأنت من نظر العيون إليها

ثم جلس عند رأس الغلام يبكي:

أشفقت أن يرد الزمان بغيره
قمرٌ أنا استخرجته من دجنةٍ
فقتلته وبه عليّ كرامةٌ
عهدي به ميثاً كأحسن نائمٍ
لو كان يدري الميث ماذا بعده
غصصٌ تكاد تفيض منها نفسه

أو أبتلي بعد الزمان بهجره
لمودتي وجلوته في خدره
فلي الحشا وله الفؤاد بأسره
والطرف يسفح دمعتي في نحره
بالحي منه بكى له في قبره
ويكاد يخرج قلبه من صدره

الرازبي وبدر التمام

وأشده الرازي:

أما واهتزأك لو أستطيع
ومن أين للبدر وجه ميثٍ
فهبه حكاك بحسن الضيا
أغار على حسنه إذ حكا

لما لحظ الناس بدر التمام
ويحيى إذا شاء بالابتسام
فمن أين للبدر حسن القوام؟
ك وكان بذلك عند الأنام

غيرة أبي تمام

وأشده لأبي تمام:

بنفسي من أغار عليه مني
ولو أتى قدرت طمست عنه

وأحسد مقلّة نظرت إليه
عيون الناس من حذري عليه

وأشده الآخر:

أغار عليك من قلبي
وأشفق أن أرى خدي

ولو أعطيتني ألمي
ك نصب مواقع القبل

غيرة جميل بن معمر

ويروى أنّ جميل بن معمر قال لبثينة: ما رأيت مصعب بن الزبير يخطر بالبلاد إلا أخذتني عليك الغيرة.

علي الجعفري وحرارة الهوى

وعن علي بن عبد الله الجعفري، وكان شاعراً وأديباً، قال: كنت أجلس بالمدينة وأنشد أشعاري، فحجّ أبو نواس فلما صار إلى المدينة وأنا ذات يوم أنشد، والناس مجتمعون علي، إذ دخل أبو نواس. فرأيت من بين الناس ثمّ قال: يا هذا ألا تنشد بيتك اللذين تكشّحت فيهما؟ فقلت: وما هما. قال: اللذان تقول فيهما:

ولما بدا لي أنّها لا تحبني
تمنيت أن تبلي بغيري لعلها

وأنّ هواها ليس عني بمنجلي
تذوق حرارات الهوى فترقّ لي

قلت: أفلا أنشدك بيتي اللذين أتغابر فيهما؟ قال: بلى. فأنشدته:

وطلايبك وامتناعك مَنّي
فإذا ما خلوت كنت التمني

ربّما سرّني صدودك عني
حذراً أن يكون مفتاح غيري

قال: فسألت عنه. فقيل لي أبو نواس.

لا تسألن رجلاً فيم يضرب امرأته؟

قال الأشعث بن قيس نزلت ببعض أصحاب النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فقام إلى امرأته فضربها، فحجرت بينهما. قال: فرجع إلى فراشه، وقال: يا أشعث، احفظ شيئاً سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "لا تسألن رجلاً فيم ضرب امرأته؟".

أبو الأصبع وبناته الأربع

قال ابن عائشة: كان أبو الأصبع العدوانيّ غيروراً، وكان له أربع بنات، فأبى أن يزوجهنّ، فقالت واحدةً منهنّ: لتقل كلّ واحدةٍ منّا ما في نفسها. فقالت كبراهن:

حديث الشّباب طيّب النّشر والذّكر
خليفة جارٍ لا يقيم على الهجر

ألا ليت زوجي من أناسٍ ذوي غنى
لصوقٍ بأكباد النّساء كأنه

قلن لها أنت تريدين شاباً غنياً: وقالت الثانية:

له جفنة يشقى بها النّيب والجزر
تشين، ولا وانٍ ولا صرع غمر

عظيم رماد القدر رحبٌ فناؤه
له خلقان: الشّيب من غير كبريّة

فقلن لها أنت تريدين سيّداً.

وقالت الثالثة:

يضمّ كبعل المشرفيّ المهنّد
إذا ما انتمى من أهل بيتي ومحتدي

ألا هل تراها مرّةً وخليها
عليه رواءٌ لليسار ورهطه

فقلن لها أنت تريدين ابن عمّ لك قد عرفته.

وقلن للصّغرى: ما تقولين أنت؟ فقالت: لا أقول شيئاً. فقلن لها: لن ندعك لأنك أطلعت على أسرارنا وكتمت سرّك. فقالت: لا أدري ما أقول، إلاّ أنّه زوجٌ من عود، خيرٌ من قعود. قال: فخطبن، فزوجهنّ جميعاً.

لا تكثروا الغيرة على أهلکم

رووي عن سليمان بن داود عليهما السّلام أنّه قال لابنه: يا بني، لا تكثر الغيرة على أهلک من غير ربيّة، فترمى بالسّوء من أجلك وإن كانت بريئة.

مدّ يده فلمس أربعاً

وقال بعض الظّرفاء: كنت شديدة الغيرة، فأخبرت بمجيء قبيحة سوداء فذهبت مع إخوان لي عندها ليلةً فطفئ السّراج، فضربت بيدي إلى صدرها فإذا دون يدي أربع أيدي، فما أعلم أنّي خطرٌ ببالي امرأةً بعد ذلك.

غيرة سليمان بن عبد الملك

قال: كان سليمان بن عبد الملك من أشد الناس غيرةً. فحكى أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو على دكان ملبط بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأصفر في وسط بستان قد أينعت ثماره، ورنت أطياره، وأزهر نبت الربيع؛ وعلى رأسه وصانف كل واحدة أحسن من صاحبها، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان سليمان مطرفاً فرقع رأسه فقال: أبا زيد، في مثل هذا اليوم يصلب أحد حياً. فقلت: يا سيدي، يا أمير المؤمنين، أو قد قامت القيامة؟ قال: نعم على رأس أهل الهوى سراً. ثم أطرق رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ فقلت: قهوة حمراء، في زجاجة بيضاء، تناولنيها مقدودة هيفاء، مضمومة لفاء دعجاء، أشربها في كفها، وأمس فمي بفمها: فأطرق سليمان ملياً ودموعه تتحدر. فلما رأى الوصائف ذلك تنحّين عنه فرقع رأسه وقال: يا أبا زيد، حللت والله في يوم فيه انقضاء أجلك، وتصرم مدتك، وفناء عمرك. والله لأضربن عنقك أو تخبرني ما الذي أثار هذه الصفة من قلبك؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كنت جالساً على باب أخيك سعيد بن عبد الملك وإذا جارية قد خرجت إلى باب القصر عليها قميص أسكندراني، يبين منه بياض ثديها، وتدوير سرتها، ونقش تكتها؛ وفي رجليها نعلها، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها؛ ولها ذؤابة تضرب إلى حقويها وتسيل كالعثاكيل على منكبيها؛ وطرة قد أسبلت على جبينها؛ ولها صدغان كأنهما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد تقوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبه در، وهي تقول: عباد الله ما الدواء لما لا يشنكي، والعلاج مما ينتمي؟ طال الحجاب، وأبطأ الكتاب. العقل ذاهب، واللب عازب، والعين عبرى، والأرق دائم، والوجد موجود، والنفس والهة، والفؤاد مختلس. فرحم الله قوماً عاشوا تجلداً، وماتوا تبدأ: لو كان في الصبر حيلة، وإلى العزاء وسيلة، لكان أمراً جميلاً. فقلت: أيتها الجارية أنسيه أنت أم جنيته سماوية أو أرضية، فقد أعجبتني ذكاء عقلك، وأذهلني حسن منطقك؟ فسئرت وجهها بكمها كأنها لم ترني، وقالت: أعذر أيها المتكلم، فما أوحش الوجد بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند. ثم انصرفت، فوالله يا أمير المؤمنين ما أكلت طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمح في عيني لحسنها. فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستقرني، والصبا يعاودني، والحلم يغرب عني. تلك الذلفاء التي يقول فيها الشاعر:

أخرجت من كيس دهقان

إنما الذلفاء ياقوته

شراؤها على أخي ألف درهم، وهي عاشقة لمولاها الذي باعها منه. والله لا ملت إلا بحسرتها، ولا فارق الدنيا إلا بغصتها. وفي الصبر سلوة، وفي توقع الموت نهية. قم أبز زيد فأكتم المفاوضة، ويا غلام ثقّل يده ببدرية. قال: فلما هلك سعيد بن عبد الملك صارت الجارية إلى أخيه سليمان ولم يكن في عصرها أجمل منها، فملك قلبه، وغلبت عليه دون سائر جواريه. فخرجا يوماً إلى دهناء الغوطة بموقع يقال له دير الرهبان فضرب فسطاطه في روضة خضراء مونقة، زهراء ذات حدائق وبهجة، حفها أنواع الزهر الغض. فمن بين أصفر فاقع، وأبيض ساطع، مثل الثبات تحمل منه الريح نسيم المسك الأذفر، ويؤدي تصوّع عرفها فتيت العنبر.

وكان له مغن يأنس به، ويكثر الخلو معه، ويستمتع حديثه، يقال له يسار. وكان أحسن الناس وجهاً، وأظرفهم طرفاً. فأمر بضرب فسطاطة بالقرب منه وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه. فلم يزل يسار يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن أتى الليل وحان انصراف يسار إلى موضعه فوجد جماعة قد أناخوا به، فسلموا عليه، فردّ عليهم السلام جدلان بنزولهم، وفرح بدخولهم. فأحضر الطعام فأكلوا، وقدم الشراب فنالوا منه. ثم قال: هل من حاجة؟ قالوا: ما جئناك إلا للقرى. فقال: بالجانب الخصب نزلتم، وبالمنزل الرّحب حللتم. فقالوا له: أما الطعام فقد أكلنا، وأما الشراب فقد حضر، وبقي السماع.

قال: أما السماع فلا سبيل إليه مع غيرة أمير المؤمنين ونهيه إياي عن الغناء إلا ما كان في مجلسه. قالوا: فلا حاجة لنا في الطعام عندك ما لم نسمعنا. فلما رأهم غير موقلين عنه رفع عقيرته وغنى بهذه الأبيات:

في آخر الليل حتى ملها السهر
فدمعها لطوق الصوت ينحدر
أوجهها عنده أضواء، أم القمر
يكاد من لينه للمشي ينفطر

محبوبة سمعت صوتي فأرقها
لم يحجب الصوت أجراس ولا غلق
في ليلة البدر لا يدري مضاجعها،
لو خلّيت لمشت نحوي على قدم

قال فلما سمعت الذلفاء صوت يسار خرجت إلى صحن الفسطاط تسمع الصوت، فجعلت لا تسمع شيئاً من خلق،

ولطافة قطّ، إلا الذي وافق المعنى. ومن نعت الليل واستماع الصوت إلا رأيت ذلك كله في نفسها، فحرك ذلك ساكناً كان في قلبها فهملت عينها، وعلا نسيجها. فانتبه سليمان فلم يجدها معه في الفسطاط فخرج إلى صحنه فرأها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت: يا أمير المؤمنين:

ألا ربّ صوتٍ رائعٍ من مشوّهِ
قبيح المحيّا واضع الأب والجد
يروّعك منه صوته ولعلّه
إلى أمّةٍ يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر. يا غلام، عليّ يسار. فدعت الذلفاء خادماً لها وقالت: إن سبقت إلى يسارٍ فحدّرتّه فلك عشرة آلاف درهم وأنت حرٌّ. فسبق رسول سليمان فأحضره فلمّا وقف بين يديه؟ وسليمان يرعد غيرةً، قال: من أنت؟ فقال: يسار. فقال سليمان:

تثكل في الثكل يساراً أمّه
كان لها ريحانة تشمّه
وخاله يتكله وعمّه
ذو شفة حياته تغمّه

فقال يسار:

واستبقتني إلى الصّباح أعتذر
فإن أكن أذنبت ذنباً أو عثر
إنّ لساني بالشّراب منكسر
فالسّيّد المولى أحقّ من غفر

ثم قال: يا يسار ألم أنهك عن مثل هذا الفعل؟ فقال: يا أمير المؤمنين حملني الثمل وقوم طر قوني، وأنا عبد أمير المؤمنين. فإن رأيت أن لا يضيع حظّه منّي فليفعل. قال: أما حظّ منك فلم أضيعه، ولكن لا تركت للنساء فيك حظاً أبداً يا يسار. أما علمت أنّ الرّجل إذا تغنى أصغت إليه المرأة؟ وأنّ الفرس إذا سهل تودّقت له الحصان؛ وأنّ الفحل إذا هدر صغت له الناقة. يا غلام إننتي بختان. فختته، فعاش بعد ذلك سنةً ومات. فسّمى الدّير دير الخصيان وبه يعرف إلى الآن.

وكتب إلى عثمان بن حيّان المرّي عامله على المدينة: أن أحص من قبلك من المغنّين. فخصي الدّلال فقال: الآن صرنا نساءً حقاً.

وآدعى بعض بني مروان أنّ عمل المدينة صحّف. وإبما رأى في الكتاب أخص من قبلك، فقال الكاتب الذي قرأ الكتاب: كيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء مبعجةً بنقطةٍ كأنّها سهيل؟

غيرة عقيل بن علقمة

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي قيل لعقيل بن علقمة وكان شديد الغيرة، وأراد سفراً: أين غيرتك على من تخلف؟ قال: أخلف معهنّ الجوع والعري، فإنّهنّ إذا جعن لم يمزحن، وإذا عرين لم يبرحن.

غيرة سعد بن عبادة

وعن المغيرة بن شعبة أنّ سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربت رأسه بالسيف. فبلغ ذلك النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، فقال: "لا تعجبوا من غيرة سعد، فوالله إنّي لأغير من سعد، والله أغير منّي، من أجل ذلك حرّم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن". فقال: "يا أبا ثابت أكنت ضاربه بالسيف؟" قال: نعم، والذي نزل عليك الكتاب. فقال رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "كفى بالسيف شا." ولم يتمّها. أراد شاهداً لئلا يبالغ فيه الغيران أو السّكران.

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: كان امرؤ القيس بن حجر مثنائاً لا يولد له ذكر، وكان غيوراً شديد الغيرة، فإذا ولدت له بنتاً قتلها. فلمّا رأى نساؤه ذلك غيبن بناتهنّ في أحياء العرب. وبلغه ذلك فركب راحلته وخرج مرتاداً لهم حتّى أتاه على حيٍّ من أحياء العرب، وإذا جوار مجتمعات، فقال: أيتكّن تجيز لي هذا البيت ولها راحلتي؟ فسكّن عنه، وقالت ابنته: هات. فأنشأ يقول:

بيضاء بهنكة عليها لؤلؤ

تبلت فؤادك إذ عرضت عشيّة

قال: فسكنت ساعة، ثمّ قالت:

كنفا الظلّيم وزال عنها الجوّجؤ

لعقيلة الأدهي بات يحقّها

فضربها بالسيف فقتلها. وسار حتّى نزل بحيّ آخر، فإذا بجوارٍ يلعبن فقال: أيتكّن تجيز لي هذا البيت ولها راحلتي؟ فسكنت عنه، وقالت ابنته: هات. فقال:

على مثل الحصير من الرّخام

إذا بركت تعالي مرفقاها

فسكنت ساعة، ثمّ قالت:

فهبّت كالفتيق من النّعام

وقاموا بالعصي ليضربوها

قال: فقتلها، ثمّ سار حتّى نزل بحيّ آخر، فإذا بجوارٍ يلعبن. فقال: أيتكّن تجيز لي هذا البيت ولها راحلتي؟ فسكنت عنه. وقالت ابنته: هات. فقال:

بدفّ يمدن كما يميد الشّارب

وكأنهنّ نعاج رملٍ هائلٍ

فسكنت ساعة، ثمّ قالت:

إنّ الخرائد مشيها متقارب

بل هي أقرب في الخطا من خطوها

قال: فنزل إليها فقتلها وسار.

أهدر دمه ولم يتمتّع بها

نزل أعرابيٌّ من طيء، يقال له المثنّى بن معروف، بأبي جبر الفزاري فسمعه يوماً يقول: لوددت أنّي بتّ الليلة خالياً ببنت عبد الملك بن مروان. فقال المثنّى: أحلالاً أم حراماً؟ فقال: ما أبالي. قال: فوثب إليه فضرب رأسه برحالةٍ فشجّه، ثمّ ارتحل وهو يقول:

على النّأي إنّي قد وترت أبا جبر

لنصري أمير المؤمنين ولا يدري

ينادي نساء المؤمنين بلا مهر

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً

نشرت على الياقوخ منه رحالةً

وما كان شيءٌ غير أنّي سمعته

قال، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأهدر دم أبي جبرٍ وبعث إلى المثنّى بصلّة جزيلة.

هند وزوجها روح

وعن عبد الملك بن عمير قال: كانت هند بنت النّعمان بن بشير الأنصاري عند روح بن زنباع، وكانت امرأةً فصيحَةً أديبَةً، برزّةً؛ وكان رجلاً غيوراً، فرأها ذات يوم مشرفَةً على وفدٍ من جذام. فجعل يضربها، ويقول: أتشرفين وتنتظرين إلى الرّجال؟ قالت: ويحك، وهل أرى إلاّ جذامياً، والله ما أحبّ منهم الحلال فكيف الحرام؟ فقال روح في ذلك:

وأَنْ أصلك في جذام ملتصق

أنتي عليك بأن باعك ضيقٌ

وفيه تقول هند؟

وهل أنا إلا مهرةً عربيّة
فإن نتجت حرّاً كريماً فبالحرّاً
سلسلة أفراسٍ تحلها بغل
وإن يك أقرافٌ فما أنجب الفحل

فقال لها روح: اللهم إن متّ قبلها فابتلها بزوج يلطم وجهها، وبقيء في حجرها. ومات روح بن زنياع وتزوجها بعده محمّد بن الحكم بن أبي عقيل الثَّقفي، وكان شاباً جميلاً، شراً للخمر؛ فأحبّته حبّاً شديداً، فكان يلطم وجهها وبقيء في حجرها. فقالت: رحم الله أبا زرعة، فقد استجيبت دعوته. وأنشدت للخديمي: ما أحسن الغيرة في حينها إلى آخر الأبيات المتقدّمة.

والشنفري يدلي بدلوه

وقال الشنفري:

إذا ما جنّت ما أنهاك عنه
فأنت البعل يومئذٍ فقومي
ولم أنكر عليك فطأقيني
بسوطك لا أباً لك فاضربيني

الغيرة المفرطة

نزل عاصم بن عمر الخطّاب، رضي الله عنه، خيمته بقديد. بفناء بيتٍ من بيوت قديد، وهو يريد مكّة معتمراً، فحطّ رحله، وكان رجلاً جسيماً من أعظم النّاس بدناً، وأحسنهم وجهاً. فأرسلت إليه ربة البيت: يا هذا إن لي زوجاً غيوراً يمرّ الإنسان بجانب بيتي فيضربني، وإن رآك في هذا المنزل لقيت منه شراً، فأشذك الله ألا تحوّلت عني! فأرسل إليها: إنّي قد نزلت وأنا مرتحلٌ عن قليل وليس عليك من زوجك بي بأس، والتّحويل يشقّ علي. قال فردّت إليه الرّسول حتّى تحوّل عنها. ومرّت به عجوزٌ خارجة من عندها فدعاها وسألها عن المرأة، فقالت: هي خردية بن أكرم، وتزوجها ربيع بن أصرم، ولها بنيٌّ صغيرٌ سمّته باسم أبيها. ثمّ ذهبت العجوز. وقال عاصم بن عمر أبيات شعر. ثمّ دخل زوجها واستقرّ في منزله، فلمّا فرغ من شعره سمعه وهو يضربها فصبر حتّى علم أنّه شفى غيظه ثمّ إنّه أتاه، فصاح به، فخرج، فقال له: بأبي أنت، ما عرضك لي؟ فأخبره خبره وخبرها، فقال: بأبي أنت، لو كنت معي في منزلي ما كان عليّ منك بأس.

أبت أعراقه إلا احمراراً

قال كان عقيل بن علقمة من الغيرة والأنفة على ما ليس عليه أحد علمناه، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته على أحد بنيها، فقال: أما إذا كنت فاعلاً فجنّيني هجناك. وخطب عقيل وقال:

رددت صحيفة القرشيّ لَمّا
أبت أعراقه إلا احمراراً

لقمان الحكيم الغيور

علي بن سليمان الأخفش قال: قال ابن الكلبي: كان لقمان بن عاد حكيم العرب غيوراً، فبنى لامرأته صرحاً وجعلها فيه، فنظر إليها رجلٌ من الحي فعلقها، فأتى قومه فأخبرهم وجده بها، وسألهم الحيلة في أمره. فأملهوه حتّى أراد لقمان الغزو، فعمدوا إلى صاحبهم وشدّوه في حزمة سيوفٍ وأتوا إلى لقمان فاستودعوا إيّاه، فوضع السّلاح في بيته، فلمّا مضى تحرّك الرّجل في السيّوف، فقانت إليه المرأة تنتظر فإذا هي برجلٍ، فشكا إليها حبّه إيّاه، فأمكنته من نفسها، فلم يزل معها مقيماً حتّى قدم لقمان فردّته في السيّوف كما كان، وجاء قومه فاحتملوه. وإنّ لقمان نظر يوماً إلى نخامة في السّقف فقال: من تتخّم هذه؟ فقالت: أنا. قال: فتنخّمي. فقصرت فقال: يا ويلتاه والسيّوف دهنتي. فقتلها ثمّ نزل فقلى ابنته صخر قاعدةً فأخذ حجراً فهشم رأسها فماتت. وقال: أنت أيضاً امرأة. فضربت العرب بذلك المثل. فكان يقول المظلوم منهم ما أدنبت إلا ذنب صخر.

عمر والتَّعمان بن نضلة

ولَّى عمر بن الخطَّاب، رضي الله عنه، التَّعمان بن نضلة العوي بميسان، وأراد رحيل امرأته معه، فأبى ذلك وكرهته. فلَمَّا وصل إلى ميسان أراد أن يغيرها فترحل إليه، فكتب إليها:

ألا هل أتى الخنساء أن خليلها
إذا شئت غنتني دهاقين قربة
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني
لعل أمير المؤمنين يسوؤه
بميسان يسقى في زجاج وحنتم
وصاحبه يجثو على خد مبسم
ولا تسقني بالأصغر المتلثم
تنادما في الجوسق المتهدم

فبلغت الأبيات عمر بن الخطَّاب، فقال: أي والله، وأبي وأبيك، يسوؤني. يا غلام، اكتب بعزله. فلَمَّا قدم على عمر بكتفه بهذا، فقال: يا أمير المؤمنين ما شربها قط، ولا قلت الأبيات إلا بسبب كذا. فقال عمر: أظن ذلك ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً.

ذاق طعم الغيرة ضرب البعث على رجلٍ من أهل الكوفة فخرج إلى أنزبجان فاشتري فرساً وجاريةً وكان مملكاً بابنة عمه فكتب ليغريها:

ألا بلغ أم المؤمنين بأننا
بعيد مناط المنكبين إذا جرى
فهذا لأيام الغدو وهذه
غنينا وأغنينا الغطارفة الجرد
وبيضاء كالتمثال زينها العقد
لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلَمَّا ورد كتابه، دعت بالدواة وكتبت إليه:

إذا شئت غناني غلامٌ مرجلٌ
وإن شاء منهم ناشيءٌ مدَّ كفه
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم
فعجل علينا بالسراح فإنّه
ونازعته في ماء معتصر الورد
إلى كيدٍ ملساء أو كفلٍ نهدي
شهوداً فتقضوها على النأي والبعد
مناناً ولا ندعو لك الله بالردّ
وزادك ربّ النَّاس بعداً على بعد
ولا قفل الجند الذي أنت فيهم

فلَمَّا ورد كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية ولحق بها، فكان أول شيء بدأها به أن قال لها: بالله أكنت فاعلةً ما قلت؟ فقالت: الله في قلبي أعظم وأجل، وأنت في عيني أحقر وأذلّ من أن أعصي الله فيك. ثم قالت له: كيق ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية، ورجع إلى مكانه.

أثر الغيرة عند روح بن زنباع

قالت هند بنت التَّعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع، وكان شديد الغيرة: عجباً منك كيف يسودك قومك وفيك ثلاث خصال أنت من جذام وأنت جبان، وأنت غيور؟ فقال لها: أمّا في جذام فأنتي في أرومتها؛ وأمّا الجبن فأنتي لي نفس واحدة فأنا أحفظها، ولو كانت لي نفس أخرى لجدت بها؛ وأمّا الغيرة فحقيق لمن كانت له امرأة حمقاء مثلك أن يغار عليها مخافة أن تحيئه بولدٍ من غيره فتقدف به في حجره.

عبد الله بن سيرة الشَّديد الغيرة

حكى دعبل بن عليّ قال: عبث عطارٌ اسمه فيروز بامرأةٍ من الشَّام تسومه عطرًا فعلقته بقلبه، فتعد لها على طريقها، فلَمَّا أضجرتها قالت: والله لو أن عبد الله بن سيرة بقربي ما طمعت في هذا مني. فبلغت عبد الله بن سيرة هذه الكلمة وهو في البعث بأرمينية، فترك مركزه وأقبل لا يولي على أحدٍ، حتى وقف ببابها ليلاً، وكان يوصف بشدة الغيرة، فاستأذن عليها، فأذنت له، فقال لها: أيتها المرأة من هذا الذي عبث بك حتى تميت أتي بقربك؟ قالت: رجلٌ عطار. قال لها: فما ابنتي؟ قالت: لا. قال لها: فعديه الليلة القابلة وإنِّي أسبقه إلى بيتك.

فبعثت إليه تقول له: إذ أبيت إلا ما تريد، فهلم إلى بيتي الليلة عندي. فأقبل إليها وقد سبقه ابن سيرة، فلما دخل وثب عليه وضربه ضربةً رمى برأسه، ثم قتل خادمها، وقال لها: إنما قتلته لئلا يطلع على الخبر أحد من الناس. ثم ناولها مائة دينار، وقال لها: اشترى بها خادماً وانفقي باقيها على نفسك. ثم قال: هلمّي فأسأ فقلع رأس البالوعة ثم جرّهما فألقاهما فيها، ثم سوى رأس البالوعة، وقال للمرأة: أظهرى أنّ الخادم قد أبق. ثم خرج، ولم يعلم به أحد، ولم يأت منزله حتى قدم أرمينية وقال في ذلك:

إنّ المنيا لغيران لمعرضة
أو عقرباً أو شجى في الحلق معترض
يغتاله النحر أو يغتاله الأسد
أو حية في أعالي منتهى الزبد

حما زوجة ابن الدمينية

وكانت لابن الدمينية امرأة يقال لها حما، وكان مزاحم بن عمر السلولي يأتيها ويتحدّث إليها، فمنعها ابن الدمينية من ذلك فاشتد ذلك عليه، فقال مزاحم عند ذلك يذكرها:

يا ابن الدمينية والأخبار تحملها
أمانة، كية ما بين عانتها
وخذ النجائب تبديها وتميها
وبين سرتها لا شك كاويها

فلما بلغ ابن الدمينية ذلك عرف العلامة التي في زوجته وعلم أنه لم ير ذلك منها إلا وقد أفضى إليها. فأتى امرأته فقال: قد بلغني غشيان مزاحم لك، وقد قال فيك ما قال. فأنكرت ذلك، وقالت: والله ما أرى ذلك الموضع قط. قال: فما أعلمه بعلمتك التي وصفها؟ قالت: النساء رأين ذلك إذ كنت جارتهم، فتحدّثن بذلك، فسمعه مزاحم. وتغافل ابن الدمينية عن مزاحم حتى ظن أنه ذهب من قلبه، ثم قال لامرأته: لنن لم ترسلي إليه الليلة يأتيك في موضع كذا لأقتلنك. فأرسلت إليه: إنك قد سمعت بي ولا أحب أن تأتيني وأنا سأتيك في موضع كذا. ففقد في الموضع ابن الدمينية وأصحابه، وجاء مزاحم وهو يظن أنها في الموضع الذي وعدته به، فخرجوا إليه وأوثقوه وصروا صرّة من رمل في ثوب وضربوا بها كبده حتى مات، واحتملوه حتى أتوا به ناحية دور قومه فطرحوه بها. وجاء أهله فأخذوه ولم يجدوا به أثر سلاح، فعلموا أنّ ابن الدمينية قتله. ورجع ابن الدمينية إلى امرأته فقتلها وقتل ابنه له منها، وطلبه السلويون فلم يجدوه:

ليلي وحارثة بن عوف

وحكى الثوري: أنّ رجلاً من بني عقيل تعلّق جاريةً وأبى أهلها أن يزوجه إياها، وكانت من أجمل النساء، وكان اسمها ليلي، فسمع بها رجلٌ موسرٌ من ثقيف يقال له حارثة بن عوف، فقدم على أهلها فأرغبهم، فزوجه وظعن بها. فقال العقيلي الذي كان تعلّقها:

ألا إنّ ليلي العامرية أصبحت
كأن مع الركب الذين تحمّلوا
تقطع إلا من ثقيفٍ وصالها
غمامة صيفٍ زعزعتها شمالها

ثم اشتد شوقه وزاد ولعه، فخرج في أثرها حتى قدم الطائف، فانتسب أنه أخ لها وصدقت هي فأدخله زوجها، وذبح له ونحر، وكان صاحب خمر. فجلس هو والثقيفي يشربان وهي تسقيهما فلما أخذت الخمر في العقيلي باح بسرّه، فلما سمعه الثقيفي همّ به ثم غلبه السكر فخرج العقيلي تحت الليل وتبعه الثقيفي بأكلب له عقر فأدركه وقد شارف بلاد بني كليب، وقد غلبه العطش فمات. فحلى أكلبه على جيفته فأكلته. فسمعت بذلك الكلابيون فرحلوا في أثر الثقيفي فأدركوه فقتلوه وخلوا عليه أكلبه فأكلته. وسمع العقيليون بخبر الرجلين فركبوا إلى المرأة فطرقوها في منزله فقتلوا، ورحلوا. فوثبت عليها أكلب زوجها فأكلتها. فقال جار الثقيفي:

لعمري لقد ساق العقيلي حتفه
وخبر الفتى القيسي قد سبق نحوه
وما خبر ليلي كان عنها بأبعد
وأمسى مقيماً بين أضلاع أزد
كذلك أمر الله في اليوم والغد
أقاموا جميعاً رهن أجواف أكلب

الغيرة من الإيمان

ويروى عن رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "الغيرة من الإيمان، وأيما رجلٍ أحسنَّ بشيءٍ من الفجور في أهله فلم يغيره، إلا بعث الله إليه ملكاً يقول له غر أربعين يوماً، فإن لم يفعل مسح بجناحه على عينيه، فإن رأى حسناً لم يدره، وإن رأى قبيحاً لم ينكره".

الجَّهَادُ عَلَى الرَّجَالِ وَالغَيْرَةِ عَلَى النِّسَاءِ

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: كَتَبَ الْجَّهَادُ عَلَى رِجَالِ أُمَّتِي، وَالغَيْرَةُ عَلَى نِسَائِهَا، فَمَنْ صَبِرَتْ مِنْهُنَّ وَاحْتَسَبَتْ أَعْطَاهَا اللهُ أَجْرَ الشَّهِيدِ.

رَأْيِي لَعَلِي فِي الْمَرْأَةِ

وعن علي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: مَنْ أطَاعَ امْرَأَتَهُ فِي أَرْبَعِ أَكْبَهَةِ اللهِ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ. أَنْ يُعْطِيَهَا فِي أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْعَرَسَاتِ وَإِلَى الْمَعْلَمَاتِ وَإِلَى الْحَمَامَاتِ وَإِلَى الْجَنَائِزِ.

الأحوص وأم جعفر

وقال الأحوص ينتسب بأُمِّ جَعْفَرِ الحَطْمِيَّةِ:

أدور، فلولا أن أمَّ جعفر
وما كنت دواراً ولكن ذا الهوى،
بأبياتكم، ما درت حيث أدور
لقد منعت معروفها أمَّ جعفر،
إذا لم يزر لا بدَّ أن سيزور
وإنِّي إلى معروفها لفقير

فاستعدى أيمن، أخوها، عليه عامل المدينة وكان أيمن جسيماً ضخماً وكان الأحوص نحيفاً، فدفع إلى كلِّ واحدٍ منهنَّ سوطاً وقال لخالد: أضرب الأحوص. فقال بعض الشعراء:

لقد منع المعروف من أمِّ جعفر
علاك بمتن السوط حتى لقيته
أخو ثقةٍ عند الحفاظ صبور
بأصغر من ماء الصفاق يفور

قال الأحوص بعد ذلك:

إذا أنا لم أغفر لأيمن ذنبه
يسيء فأعفو ذنبه، فتردني
فمن ذا الذي يعفو له ذنبه بعدي
أيادٍ يدايتها مباركةٌ عندي

من الغيرة إلى البوادي

تزوج عبد الله بن يزيد الحنفي امرأةً حسناء، وكان رجلاً ثقيلاً جسيماً ظريفاً، فأحبها حباً شديداً، وكان من أشدَّ الناس غيرةً. فدعاه حبه لها، وشدة غيرتها عليها، أن خرج بها إلى بعض البوادي فابتنى لها قصراً وسكن به وأقام معها مدةً.

لم يكن شأنه العفاف ولكن.. .

وخرج عمر بن سعيد العبدي يريد سفراً له، فأخذته السماء في بعض الطريق فنظر، فإذا هو بقصر عظيم، فعدل إليه، وقرع بابه، فخرج إليه عبد الله بن يزيد فعرفه، فسلم عليه وأنزله، وهياً له طعاماً ثم دعا بشرابٍ من خمر عتيق. فبينما هما يشربان إذ تطلعت المرأة فرأت ابن سعيد وكان غلاماً شاباً، وسكر زوجها سكرًا شديداً فخرجت المرأة إلى عمر بن سعيد فحدثته وأنسته ودعته إلى نفسها فأبى، وقال: ما كنت بالذي أفعل برجلٍ أتاني منزله. ولم يزل يدافعها حتى أفاق عبد الله بن يزيد من سكره، فأنشأ عمر يقول:

قد دعنتني لوصولها فأبيت
كنت ندمان زوجها فاستحيت

ربّ بيضاء خصرها يبتئني
لم يكن شأني العفاف ولكن

فعلم عبد الله بن يزيد ما أراد، فلما انصرف عمر بن سعيد عمد عبد الله إلى المرأة فجعل في عنقها حبلاً وعلّقها به إلى السقف، فاضطربت حتى ماتت. وعلم أنّ النساء لا حفظ لهنّ، وآلى على نفسه أنّه لا ينزّوج امرأة أبداً. وترك قصره وعاد إلى منزله.

إذا نام الحارس أفاقت العقرب

وقال الفضيل بن الهاشمي: كنت مع ابنة عمّي نائماً على سرير إذ ظهرت إليّ بعض جواري، فنزلت، فقضيت حاجتي، ثم انصرفت. فبينما أنا أراجع، إذ لدغنتني عقربٌ فصبرت حتى عدت إلى موضعي من السرير، فغلبنني الوجع، فصحت، فقالت لي ابنة عمّي: ما لك؟ قلت لها: لدغنتني عقربٌ. قالت: وعلى السرير عقربٌ؟ قلت: نزلت لأبّول فأصابنتني، ففطنت، فلما أصبحت جمعت خدمها واستحلفتهم أن لا يقتلن عقرباً في دارها إلى سنةٍ. ثم قالت:

فإنّ عقاربنا تغضب
أقام الحدود بها العقرب

إذا عصي الله في دارنا
ودار إذا نام حرّاسها

الدّئاب تعدو على من لا كلاب له

قالوا وبيننا ابن أبي ربيعة في الطّواف، إذ رأى جاريةً من أهل البصرة، فأعجبته، فدنا منها، فكلمها، فلم تلتفت إليه. فلما كان في الليلة الثانية عاودها، فقالت له: إليك عنّي أيّها الرّجل فإنّك في موضع عظيم الحرمة! وألحّ عليها وشغلها عن الطّواف، فأنتت زوجها، فقالت له: تعال معي فأرني المناسك. فأقبلت وهو معها وعمر جالس على طريقها فلما رأى الرّجل معها عدل عنها فقالت:

وتتقي مريض المستأسد الحامي

تعدو الدّئاب على من لا كلاب له

فحدّث المنصور هذا الحديث، فقال: وددت أنّه لم تبق فتاةٌ من قريش في خدرها إلا سمعت الحديث.

لا يراعي لابن عمّه محرماً

وكان عمارة بن الوليد بن المغيرة بن الوليد سيف الله من فتيان قريش جمالاً وشعراً، وهو الذي جاءت به قريش إلى أبي طالب قالوا: هذا عمارة، قد عرفت حاله، فخذ به بدل ابن أخيك محمّداً نقلته. فقال لهم أبو طالب: ما أنصقتموني تعطوني ابن أخيكم أحفظه وأعطيكم ابن أخي تقتلوه؟ وبعثت قريش عمارة بن الوليد، وعمر بن العاص إلى النّجاشي في أمر من قدم إليه من المهاجرين، فلما كانوا في السفينة ومع عمرو امرأته أم عبد الله فقال لها عمارة: قتيليني. فقال لها عمرو: قتلي ابن عمك. وقال عمرو في ذلك:

لمثلك أن يدعى ابن عمّ له ابن ما
ولست تراعي لابن عمك محرماً
ولم ينه قلباً عارياً حيث يّما
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ليعلم عمّ أنّ من شرّ شيمه
أن كنت ذا بردين أحوى رجلاً
إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه
قضى وطراً منه وغادر سبه

وقعد عمرو على منجاف السفينة لقضاء الحاجة، فدفعه عمارة، فألقاه في البحر، فما تخلّص حتى كاد يموت. فلما صار إلى النّجاشي أظهر له عمرو أنّه لم يحفل بما أصابه منه، فجاده عمارة يوماً فحدّثه أنّ زوجة الملك النّجاشي علّقت وأدخلته إلى نفسها، فلما تبين لعمرو حال عمارة وشى به عند الملك واخبره خبره، فقال له النّجاشي: أنتني بعلامةٍ أستدلّ بها على ما قلت؟ فعاد عمارة، فأخبره عمرو بأمره وأمر زوجة النّجاشي فقال له عمرو: لا أقبل هذا منك إلا أن تعطيك من دهن الملك الذي لا يدّهن به غيره. فكلمها عمارة في الدّهن، فقالت له: أخاف من الملك. فأبى أن يرضى منها إلا أن تعطيه من ذلك الدّهن، فأعطته منه، فأعطاه إلى عمرو، فجاء إلى الملك، فأمر السّواحر فنخّض في إحليله، فذهب مع الوحش، فلم يزل متوحّساً حتى خرج إليه عبد الله بن أبي

ربيعة في جماعة من أصحابه، فجعل له على الماء شركاً، فأخذه، فجعل يصيح به: أرسلني فأني أموت إن أمسكتني. فأمسكه، فمات في يده.

عائشة تغار على خديجة

عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما غرت على امرأة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة. ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما أسمع من كثرة ذكره إياها. وكان يذبح الشاة فيفرفرها على صدائق خديجة. قال ودخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: " بالكره مني يا خديجة ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً. أما علمت أن الله زوجني معك في الجنة مريم ابنة عمران، وكلثم أخت موسى، وأسية امرأة فرعون؟ " قالت: وقد فعل الله ذلك برسوله؟ قال: " نعم ". قالت: فبالرفاء والبنين.

باب ما جاء في وفاء النساء

تعاهدا ألا يتزوجا

حكى الأصمعي، عن رجل من بني ضبة قال: ضللت لي إبل فخرجت في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم، فلما كنت في بعض تخومها، إذا جارية غشى بصري إشراق وجهها، فقالت: ما بغيتك فأني أراك مهموماً؟ قلت: إبل ضللت لي، فأنا في طلبها. قالت: فتحب أن أرشدك إلى من هي عنده؟ قلت: نعم. قالت: الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن فإن شاء ردهن، فأسأله من طريق اليقين لا من طريق الإختيار. فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقتها، فقلت لها: هل لك من بعل؟ قالت: كان والله فدعي فأجاب إلي ما منه خلق، ونعم البعل كان. قلت لها: فهل لك في بعل لا تدم خلائقه، ولا تخشى بوائقه؟ فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذر فان دموعاً فأنشأت تقول:

ماء الجداول في روضات جنات	كنا كغصنين من بان غذاؤهما
دهرٌ يكرّ بفرحاتٍ وترحات	فاجتت صاحبها من جنب صاحبه
أن لا يضاجع أنثى بعد موتات	وكان عاهدني إن خانني زمنٌ
ريب المنون قريباً مذ سنينات	وكنت عاهدته أيضاً، فعاجله
عن الوفاء له خلب التّحيات	فاصرف عتابك عمّن ليس يصرفه

قال: فانصرفت وتركتها.

على العهد باقية

قال الأصمعي: قال لي الرّشيد: امض إلى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم. فأنحدرت، فنزلت على صديق لي بالبصرة، ثم بكرت أنا وهو على المقابر، فلما صرت إليها إذا بجارية نادى إلينا ريح عطرها قبل الدنو منها، عليها ثياب مصبغات وحلى، وهي تبكي أحرّ بكاء. فقلت: يا جارية ما شأنك؟ فأنشأت تقول:

رهينة هذا القبر يا فتيان.	فان تسألاني فيم حزني؟ فأني
مخافة يوم أن يسوك مكاني	أهابك إجلالاً، وإن كنت في الثرى،
كما كنت أستحييك حين تراني.	وأني لأستحييك، والترّب بيننا،

فقلنا لهلك ما رأينا أكثر من التّفاوت بين زيّك وحزنك فأخبري بشأنك؟ فأنشأت تقول:

حياً، ويكثر في الدّنيا مواساتي،	يا صحب القبر، يا من كان يؤنسني
كأنني لست من أهل المصيبات؛	أزور قبرك في حليّ وفي حلّ،

فمن رأني، رأى عبريً مفاجئةً

مشهورة الرّبيّ تبكي بين أمواتي.

فقلنا لها وما الرّجل منك: قالت: بعلي، وكان يجب أن يراني في مثل هذا الرّبيّ، فأليت على نفسي أن لا أغشى قبره إلا في مثل هذا الرّبيّ لأنه كان يحبه أيام حياته، وأنكرت ما أنتما عليّ.

قال الأصمعي: فسألته عن خبرها ومنزلها. وأتيت الرّشيد فحدّثته بما سمعت ورأيت، حتّى حدّثته حديث الجارية. فقال: لا بدّ أن ترجع حتّى تخطبها إليّ من وليّها، وتحملها إليّ، ولا يكون من ذلك بد. ووجه معي خادماً ومالاً كثيراً. فرجعت إلى قومها فأخبرتهم الخبر، فأجابوا وزوّجوها من أمير المؤمنين وحملوها معنا وهي لا تعلم. فلما صرنا إلى المدائن نما إليها الخبر، فشبهت شهقةً فماتت، فدفناها هنالك. وسرت إلى الرّشيد فأخبرته الخبر، فما ذكرها وقتاً من الأوقات إلا بكى أسفاً عليها.

كان يحسبها راعيةً للعهد

توفّي رجلٌ وبقيت امرأته شابّةً جميلةً، فما زال بها النّساء حتّى تزوّجت. فلما كانت ليلة زفافها رأت في المنام زوجها الأوّل أخذاً بعارضتي الباب وقد فتح يديه وهو يقول:

حَيِّت ساكن هذا البيت كلّهم	إلا الرّباب فإنّي لا أحبيها
أمست عروساً وأمسى مسكني جدت	بين القبور وإنّي لا أأقبيها
واستبدلت بدلاً غيري، فقد علمت	أنّ القبور توارى من ثوى فيها
قد كنت أحسبها للعهد راعيةً	حتّى تموت وما جفّت مآقيها

ففرغت من نومها فرعاً شديداً، وأصبحت فاركاً وألت أن لا يصل إليها رجلٌ بعده أبداً.

أذات عروسٍ ترى!؟

ولما قتل عثمان، رضي الله عنه، وقفت يوماً على قبره نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فترحمت عليه ثمّ انصرفت إلى منزلها، ثمّ قالت: إنني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي. فدعت بفهر فهتفت فاهاً، وقالت: والله لا يقعد رجلٌ منّي مقعد عثمان أبداً. وخطها معاوية فبعثت إليه أسنانها، وقالت: أذات عروسٍ ترى؟ وقالوا: لم يكن في النّساء أحسن منها مضحكاً.

لا تنكحي أغمّ القفا

كان هدبة بن خشرم العذري قتل ابن عمر يقال له زياد بن زيد فطلبه سعيد بن العاص، وهو يلي المدينة لمعاوية فحبسه، فقال في السّجن قصيدته التي يقول فيها:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه

يكون وراءه فرجٌ قريب

وفي سجنه يقول أيضاً:

ولما دخلت السّجن يا أمّ مالك	ذكرتك والأطراف في حلق سمر
وعند سعيد غير أنّي لم أبح	بذكرك إلاّ من يذكّر بالأمر

وسئل عن هذا، فقال: لما رأيت ثغر سعيد شبهت به ثغرها، وكان سعيد حسن الثّغر. فحبس هدبة سبع سنين ينتظر به احتلام المستورد بن زيادة، فلما احتلم، أخرج صبح تلك الليلة إلى عامل المدينة فرغبه في العفو، وعرض عليه عشر ديات، فأبى إلاّ القود. وكان ممّن عرض الدّيات عليه الحسن بن علي، عليهما السّلام، وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم. فلما أبى، بعث هؤلاء وغيرهم من إخوانه بالحنوط والأكفان فدخل عليه رسولهم السّجن فوجدوه يلعب بالنّرد. فجلسوا ولم يقولوا له شيئاً، فلما لحظهم إذا بطرف بردٍ خرج من بعض الأكفان فأمسك، ثمّ قال: كأنه قد فرغ من أمرنا؟ فقالوا: أجل. فقام فاغتسل ثمّ رجع إليهم

فأخذ من كلِّ واحدٍ ثوباً وردَّ ما بقي. وأخرج ليقاد منه، فجعل ينشد الأشعار. فقالت له حيا المدينة: ما رأيت أفسى قلباً منك، تنشد الأشعار، وقد دعي بك لتقتل، وهذه خلفك كأنها غزالٌ عطشانٌ تولول؟ يعني امرأته. فوقف، ووقف النَّاسُ معه، فأقبل على حيا فقال:

وجدت بها ما لم تجد أمّ واجدٍ
ولا وجد حبّي بابين أمّ كلاب
وإنّي طويل السّاعدين شمراً
على ما اشتهيت من قوّة وشباب .

فأغلقت الباب في وجهه. وعرض له عبد الرّحمن بن حسان فقال: أنشدني! فقال له: على هذه الحال؟ قال: نعم. فابتدأ ينشده:

ولست بمفراح إذا الدّهر سرّني
ولا أتمنّى الشّرّ، والشّرّ تاركي،
ولا جازع من صرفه المتقلّب
ولكن متى ما أحمل الشّرّ أركب

قال: ونظر رجلٌ إلى امرأته فدخلته غيرّة، وقد كان زيادة جدع أنفع بسيفه:

فإن يك أنفي بأن عني جماله
فلا تنكحي إن فرّق الدّهر بيننا
فما حسبي في الصّالحين بأجدعا
أغمّ القفا والوجه ليس بأنزعا

خنت يا فلانة عهدي

وعن أبي حمزة الكناني قال: كنت في حرس خالد بن عبد الله القسري، فقال خالد: من يحدثني بحديث عسى يستريح إليه قلبي؟ فقلت: أنا. فقال: هات. فقلت: إنّه بلغني أنّه كان فتىً من بني عذرة، وكانت له امرأةٌ منهم، وكان شديد الحبِّ لها، وكانت له مثل ذلك، فبينما هو ذات يوم ينظر وجهها إذ بكى، فنظرت إلى وجهه وبكت، فقالت له: ما الذي أبكاك؟ قال: والله، أتصدقيني إن صدقتك؟ قالت: نعم. قال لها: ذكرت حسنك وجمالك وشدة حبّي، فقلت أموت فتنزّوج غيري. فقالت: والله والله، أنّ ذاك الذي أبكاك؟ قال: نعم. قالت: وأنا ذكرت حسنك وجمالك وشدة حبّي لك فقلت أموت فتنزّوج امرأةً غيري. قال الرّجل: فإنّ النّساء حرامٌ عليّ بعدك. فلبثا ما شاء الله.

ثمّ إنّ الرّجل توقّي فجزعت عليه جزءاً شديداً فخاف أهلها على عقلها أن يذهل، فأجمع رأيهم على أن يزوّجها، وهي كارهة، لعلّها تتسلّى عنه. فلمّا كان في الليلة التي تهدي فيها إلى بيت زوجها، وقد نام أهل البيت، والماشطة تهيء من شعرها، إذ ناكت نوماً يسيرةً فرأت زوجها الأوّل داخلها من الباب وهو يقول: خنت يا فلانة عهدي، والله لا هنيئ العيش بعدي فانتبهت مرعوبةً، وخرجت هاربةً على وجهها، وطلبها أهلها فلم يقفوا لها على خبر.

ماتا ودفنا معاً

قال إسحق خرجت امرأةً من قريش من بني زهرة إلى المدينة تقضي حقاً لبعض القرشيين. وكانت ظريفةً جميلةً، فرأها من بني أمية رجلٌ فأعجبته، وتأمّلها فأخذت بقلبه، وسأل عنها فقيل له: هذه حميدة بنت عمر بن عبد الله بن حمزة. ووصفت له بما زاد فيها كلفه، فخطبها إلى أهلها فزوّجوه إيّاها على كره منها، وأهديت إليه فرأت من كرمه وأدبه وحسن عشرته ما وجدت به، فلم تقم عنده إلاّ قليلاً حتّى أخرج أهل المدينة بني أمية إلى النّمام، فنزل بها أمرٌ ما ابتليت بمثله، فاشتدّ بكاؤها على زوجها وبكاؤه عليها، وخيرت بين أن تجمع معه مفارقة الأهل والولد والأقارب والوطن أو تتخلف عنه مع ما تجد به، فلم تجد أخفّ عندها من الخروج معه مختارةً له على الدّنيا وما فيها. فلمّا صارت بالشّام صارت تكي ليلاً ونهارها ولا تنتهأ طعاماً ولا شراباً شوقاً إلى أهلها ووطنها، فخرجت يوماً بدمشق مع نسوة تقضي حقاً لبعض القرشيين فمرّت بفتىّ جالسٍ على باب منزله، وهو يتمنّى بهذه الأبيات:

ألا ليت شعري، هل تغير بعدنا
وهل أدور حول البلاط عوامرُ
صحون المصلّى، أم كعهدي القرائن؟
من الحيّ، أم هل بالمدينة ساكن؟

دعا الشوق مَنِّي برقها المتيامن
ولكنه ما قدر الله كائن.

إذا لمعت نحو الحجاز سحابة،
وما أشخصتنا رغبة عن بلادنا،

فلما سمعت المرأة ذكر بلدها وعرفت المواضع، تنفست نفساً صدح فؤادها فوقعت مبيتة. فحملت إلى أهلها وجاء زوجها، وقد عرف الخبر، فانكب عليها فوقع عنها ميتة. فغسلاً جميعاً وكفناً ودفنا في قبرٍ واحدٍ.

أرادها لحسن ثغرها فقط

وكانت خولة بنت منظور بن زياد الفزاري عند الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكانت أختها عند عبد الله بن الزبير، وهي أحسن الناس ثغراً، وأتمهم جمالاً. فلما رأى ذلك عبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير زوجها، ثم خطبها، فكرهت أن تتزوجوه وهو قاتل زوجها، فأخذت فهراً وكسرت به أسنانها. وجاء رسول عبد الملك فخطبها، فأذنت له ليرأها، فأدى إليها رسالته ورأى ما بها، فقالت: ما لي عن أمير المؤمنين رغبة، ولكني كما ترى، فإن أحبتي فأنا بين يديه، فاتاه الرسول فأعلمه بذلك، فقال: أنا، والله، إنما أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأما الآن فلا حاجة لي فيها.

لا حرّ بوادي عوفٍ

وممن يضرب به المثل في الوفاء جماعة بنت عوف بن محلم الشيباني وذلك أنّ عمرو بن عبد الملك طلب مروان القرط وهو مروان بن زنباع العبسي فخرج هارباً حتى هجم على أبيات بني شيبان، فنظر إلى أعظمها بيتاً ببصره فإذا هو بيت جماعة بنت عوف فألقى نفسه بين يديها فاستجارها فأجارته. ولحقته خيل عمرو فبعثت إلى أبيها فعرفته أنّها أجارته فمنعهم عوف عنه وأنصرف أصحاب عمرو. فأرسل عمرو إلى عوف قد آليت ألا أقطع طلبي إلا أن يضع يده في يدي. فقال عوف: والله ما يكون ذلك أبداً لكنّ يدي بين يديك ويده. قال، فرضي عمرو بذلك. فوضع مروان يده في يد عوف ووضع عوف يده في يد عمرو. فقال عمرو: لا حرّ بوادي عوف. فذهبت مثلاً.

من أحاديث المحبين

وحكي عمام المرّي، عن أبيه، قال: بعثنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سرية قبل نجد، وقال: إن سمعتم مؤذناً، أو رأيتم مسجداً فلا تقتلوا أحداً. فبينما نحن نسير إذ لحقنا رجلٌ معه طعائن يسوقها أمامه، فأخذناه، فقلنا له: أسلم. قال: وما الإسلام؟ فعزنا عليه، قال: رأيتم إن لم أسلم ما أنتم صانعون بي؟ قلنا: نقتلك. قال: فهل أنتم تاركي حتى أوصي من في هذا اليهودج بكلمات. قلنا: نعم. فدنا من اليهودج وفيه طعينة فقال: أسلمي جبيش قبل انقطاع العيش. فقالت: أسلم عشراً أو تسعاً وترأ، أو ثانياً تترأ. قال، ثم جاء فمدّ عنقه. قال: شأنكم اصنعوا ما أنتم صانعون. فضربنا عنقه ولقد رأيت تلك الطعينة نزلت من هودجها وألقت نفسها عليه فما زالت تقبله وتبكي حتى هدأت فحرّكناها فإذا هي ميتة.

خاتنه وبموتها وقت له

العتبيّ قال: كان خالد بن عبد الله القسريّ ذات ليلةٍ مع فقهاء من أهل الكوفة فقال بعضهم: حدّثونا حديثاً لبعض العشاق. قال أحدهم: أصلح الله الأمير، ذكر هشام بن عبد الملك غدر النساء وسرعة رجوعهنّ. فقال له بعض جلسائه: أنا أحدثك، يا أمير المؤمنين: بلغني عن امرأةٍ من يشكر يقال لها أمّ عقبة بنت عمرو بن الأعران، وإنها كانت عند ابن عمّ لها يقال له غسان، وكان شديد المحبة لها، والوجد بها، وكانت له كذلك. فأقام بها على هذا الحال ما شاء الله، لا يزيد كلّ واحدٍ منهما بصاحبه إلاّ اعتباطاً.

فلما حضرت غسان الوفاة قال لها: يا أمّ عقبة اسمعي ما أقول، وأجيبني عن نفسك بحق. فقالت له: والله لا أحبّتك بكذب، ولا أجعله آخر حظك معي. فقال: إني رجوت أن تحفظي العهد، وأن تكوني لي إن متّ عند الرجاء. أنا والله واثقٌ بك، غير أنّي بسوء الظنّ أخاف غدر النساء. ثمّ اعتقل لسانه فلم ينطق حتى مات. فلم تمكث معه إلاّ قليلاً حتى خطبت من كلّ مكان، ورغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها من العقل والجمال والمال والعفاف والحسب. فقالت مجيبةً له:

سأحفظ غساناً، على بعد داره،
وأني لفي شغلٍ عن الناس كلهم،
وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشر .
فكفوا، فما مثلي من الناس يغير .
سأبكي عليه، ما حييت، بدمعة
تحول على الخدين مني فتكثر

فيئس الناس منها حيناً. فلما طالت بها الأيام نسيت عهده، وقالت: من قد مات فقد فات. وأجابت بعض خطابها فتزوجها المقدم بن حابس، وقد كان بها معجباً. فلما كانت الليلة التي أراد بها الدخول، أتاها في منامها زوجها الأول فقال لها:

غدرت، ولم ترعي لبعلك حرمة،
غدرت به لما ثوى في ضريحه،
ولم تعرفي حقاً، ولم ترعي لي عهدا
كذلك ينسى كل من سكن اللحد

فانتبهت مرتاعةً مستحيبةً منه كأنه يراها أو تراه كأنه في جانب البيت. فأنكر حالها من حضرها، وقلن لها: ما لك؟ وما بالك؟ قالت: ما ترك لي غساناً في الحياة إرباً، أتاني الساعة فأنشدني هذه الأبيات. ثم أنشدتها بدمع غزير، وانتحابٍ شديدٍ من قلبٍ جريحٍ موجه. فلما سمعن ذلك منها أخذن بها في حديثٍ آخر لتنسى ما هي فيه، فتغفلتُهنَّ ثم قامت كأنها تقضي حاجةً فأبطأت عليهنَّ. فقمن في طلبها، فوجدنها قد جعلت السوط في حلقها وربطته إلى عمود البيت وجبذت نفسها حتى ماتت. فلما بلغ ذلك زوجها المقدم، حسن عزاؤه عنها، وقال: هكذا فليكن النساء في الوفاء، قل من يحفظ ميتاً، إنما هي قلائلٌ حتى ينسى وعنه يتسلى .

لم يلتفت إليهنَّ

استعدى آل بئينة مروان بن الحكم على جميل بن معمر، فهرب حتى أتى رجلاً شريفاً من بني عذرة في أقصى بلادهم وله بناتٌ سبعٌ كأنهنَّ البذور جمالاً. فقال الشيخ لبنته: تحلين بأجود حلبيك، والبسن فاخر ثيابك، ثم تعرضن لجميل. فمن اختار منك زوجه إياها. ففعلن ذلك مراراً وجعلن يعارضنه: فلم يلتفت إليهنَّ. وأنشأ يقول:

حلفت لكي تعلمن أنني صادق
لتكليم يوم من بئينة واحد
من الدهر أن أخلو بكن فإئما،
وللصدق في خير الأمور وأنجح
ورؤيتها عندي، ألد وأملح،
أعالج قلباً طامحاً حيث يطمح

قال أبو هن: دعن هذا، فوالله لا أفلح أبداً.

نساء قريش خير النساء

كانت أم هاني بنت أبي طالب تحت زوجها هبيرة بن أبي ليث المخزومي، فهرب يوم فتح مكة إلى اليمن فمات كافرًا. فخطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أم هاني فقالت: والله لقد كنت أحبك في الجاهلية فكيف في الإسلام؟ ولكنني امرأة مصيبةٌ وأكره أن يؤذك. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: " نساء قريش خير نساء ركبن المطايا، أحانهن على ولدٍ صغير، وأرغاهن، على زوجٍ ذي يد. "

ماتت في الطريق

أبو بكر الأنباري، عن أبي اليسر قال: دخلت منزل نحاسٍ لشراء جارية، فسمعت في بيت بازاء البيت جاريةً تقول:

وكنا كزوج من قطا في مفازة
أصابهما ريب الزمان فأفردا
لدى خفض عيشٍ معجبٍ موقٍ رغد
ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

فقلت للنَّخَّاس: أعرض عليّ هذه المنشدة. فقال إنّها حزينةٌ. قلت: ولم ذلك؟ قال: اشتريتها من ميراثٍ، فهي باكيةٌ على مولاها. ثمّ لم ألبث أن أنشدت:

وكنا كغصني بانةٍ وسط دوحَةٍ نشم جنا الجنّات في عيشةٍ رعد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ فيا فردةً باتت تحنّ إلى فرد

قال أبو السَّمراء: فكتبت إلى عبد الله بن طاهر بخيرها. فكتب إليّ: أن ألق عليها هذا البيت، فإن أجازته فاشتراها ولو كانت بخراج خراسان. والبيت:

قريبٌ صدّ، بعيدٌ وصل، جعلت منه لي ملاذا

فقلت:

فعاثبوه، فزاد شوقاً فمات عشقاً، فكان ماذا؟

قال أبو السَّمراء: فاشتريتها بألف دينارٍ وحملتها إليه. فماتت في الطّريق، فكانت إحدى الحسرات.

تستحييه في الحياة والممات

قال الأصمعي: خرج سليمان بن عبد الملك ومعه سليمان بن المهلب بن أبي صفرة من دمشق متنزّهين، فمرّا بالجبانة، وإذا امرأةٌ جالسةٌ على قبرٍ تبكي، فهبّت الرّيح، فرفعت البرقع عن وجهها، فكانت غمامةً جلّت شمساً، فوقفنا متعجبين ننظر إليها، فقال لها ابن المهلب: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما، ثمّ نظرت إلى القبر، وقالت:

فإن تسألاني عن هواي، فإنّه بملحود هذا القبر، يا فتيان
وإنّي لأستحييه والتّرب بيننا، كما كنت أستحييه وهو يراني

فانصرفنا ونحن متعجبون.

قال الأصمعي: رأيت بالبادية أعرابيةً لا تتكلم، فقلت: أعرساء هي؟ فقيل لي: لا، ولكنها كان زوجها معجباً بنغمتها فتوقّي، فألت أن لا تتكلم بعده أبداً.

المبكرة إلى القبر

قال الفرزدق أبقّي لرجلٍ من بني نهشل، يقال له حصن، غلام. فخرجت في طلبه أريد اليمامة. فلمّا صرت في ماءٍ لبني حنيفة ارتفعت لي سحابةٌ، فرعدت وبرقت وأرخت عز إليها، فعدلت إلى بعض ديارهم وسألت القرا. فأجابوا، ودخلت الدار، وأنخت ناقتي، وجلست. فإذا جاريةٌ كأنها طلعة قمر، فقالت: ممّن الرّجل؟ قلت من بني حنظلة. قالت: من أيّ حنظلة؟ قلت: من بني نهشل. قالت: فأنت من الذين يقول فيهم الفرزدق:

إنّ الذي سمك السّماء بنى لنا بيتاً دعائمهُ أعزّ وأطول
بيتاً زرارةٍ محتبٍ بفنائهِ ومجاشعٌ وأبو الفوارس نهشل

فقلت: نعم. فتبسّمت، ثمّ قالت: فإنّ جريراً هدم قوله، حيث يقول:

أخزي الذي سمك السّماء مجاشعاً وأحلّ بيتك بالحضيض الأسفل

قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها وفصاحتها، ثمّ قالت لي: أين تؤم؟ قلت: اليمامة. فتنفّست نفساً وصل إليّ حرّة، فقلت: أذات خدر، أم ذات بعل؟ فبكت. فقلت: ما أجبتني عمّا سألتك. قال فلما فهمت قولي ولم تكن أولاً فهمته من شدّة استغراقها، فلما كان بعد ساعة أنشأت تقول:

يخيّل لي، أبا عمرو بن كعب،
فإن يك هكذا، يا عمرو، إني
بأنك قد حملت على سرير
مبكرةً عليك إلى القبور

ثمّ شهقت شهقةً فماتت. فقلت لهم: من هذه؟ قالوا: عقيلة بنت الضحّاك بن النّعمان بن المنذر. قلت: فمن عمرو؟ قالوا: ابن عمّها، خطبها ولم يدخل بها. فارتحلت من عندهم فدخلت اليمامة، فسألت عن عمرو فإذا به قد دفن في ذلك الوقت من اليوم.

الوفاء في الجاهلية يختلف عنه في الإسلام

يروى عن سماك بن حرب: أن زيد بن حارثة قال: يا رسول الله، انطلق بنا إلى فلانة نخطبها عليك أو عليّ إن لم تعجبك: فأتيناها فذكر لها زيد رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقالت له: يا رسول الله، إني عاهدت زوجي ألا أتزوج بعده أبداً، وأعطاني مثل ذلك. فقال لها رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم: "إن كان ذلك في الإسلام ففي له، وإن كان ذلك في الجاهلية فليس بشيء".

الوفاء والدكاء

قال الأصمعي خرجت إلى مقابر البصرة، فإذا أنا بامرأة على قبر، من أجمل النساء، وهي تندب صاحبه وتقول:

هل أخبر القبر سائليه
أم هل تراه أحاط علماً
يا جبلاً كان ذا امتناع
يا نخلة طلعها نصيد
يا موت ماذا أردت مني
دهرٌ رمانى يفقد إلفي
أمنك الله كلّ خوفٍ
أسكنك الله في جنانٍ
أم قرّ عيناً بزائريه
بالجسد المستكين فيه
وطوداً عد لأمليه
يقرب من كفّ مجتنيه
حققت ما كنت أتقيه
أذمّ دهري وأشتكيه
وكلّ ما كنت تتقيه
تكون أمناً لساكنيه

قال، فقلت لها: يا أمة الله، ما هذا منك؟ قالت: لو أعلمك مكانك ما أنشدت حرفاً، هذا زوجي وسروري وأنسي، والله لا زلت هكذا أبداً أو ألحق به. قلت لها: أعيدي عليّ الشعر. فقالت: هذا من ذاك. فقلت خذي إليك. وأنشدتها الأبيات، فقالت فإن يكن في الدنيا الأصمعي فأنت هو.

قصة عاشقين

قال: كان لأشجع بن عمرو السلمي جارية، يقال لها ريم، وكان يجدها وجداً شديداً، وكانت تحلف له أنّها إن بقيت بعده لم يحكم عليها رجلٌ أبداً. فقال يخاطبها:

إذا غمضت فوقي جفون حفيرةٍ
تعزيك عنّي بعد ذلك سلوةٌ
من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
وإن ليس فيمن وارت الأرض مطمع

فأجابته ريم تقول:

ذكرت فراقاً والفراق يصدّع،
إذا الزّمن الغدار فرّق بيننا،
وأيّ حياةٍ بعد موتك تنفع.
فمالي في طيّب من العيش مطمع.

فلو أبصرت عينك عيني أبصرت،

شأبيب جدر غيثها ليس تقشع

وقالت فيها أيضاً:

وليس لإخوان النساء تطاول،
فلا تبخلي بالدمع عني فإن من،
فما لي إلى ردّ الشببية حيلةً،
وإن لداتي قد مضوا لسبيلهم،

ولكنّ إخوان الرجال يطول.
يضنّ بدمع، عن هوى، لبخيل .
ولا لي إلى دفع المنون سبيل.
وإن بقائي بعدهم لقليل.

فأجابته ريم:

بكي من صروفٍ خطبهنّ جليل
ومن ذا الذي ينعى على حدث الردى،
وكلّ جليلٍ سوف يلقي حمامه،
لي الويل، إن عمّرت بعدك ساعةً،
وتزعم أنّي لا أجود بعبرةٍ،
ومن ذا الذي أبكي له، إن فقدته،
فلا وقيت ريم، إذأ، ما تخافه
ولا لقيت يوم القيامة ربّها
إذا ماسخا قلب امرئ .

ومن ذا به عمر الحياة يطول؟
وللموت في أثر النفوس رسول.
وكلّ نعيم دائم سيزول.
وإنّ كثير الويل لي لقليل.
إذا نجمه قد حان منه أقول.
سواك، ومن دمعي عليه يسيل.
إذا ناب للزّمان جليل.
وميزانها بالصّالحات ثقيل
بموذّة، فقلبي بودّ عن سواك بخيل

ولمّا مات أشجع، آلت على نفسها أن لا تأكل طعاماً، ولا تذوق شراباً. فعاشت بعده أياماً، ثمّ توفّيت، فدفنت إلى جانبه.

باب ما جاء في غدر النساء

رأي عمر في النساء

قال عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه: استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذرٍ.

رأي الملك عمرو في النساء

قال عمرو الملك:

بعد هندٍ لجاهلٍ مغرور
كلّ شيءٍ يجن فيه الضمير

إنّ من غرّه النساء بودّ
حلوة العين واللسان وفيها

رأي طفيل الغنوي في النساء

وقال طفيل الغنوي:

منهنّ مرّ، وبعض المرّ مأكول
فإنّه واقع لا بدّ مفعول

إنّ النساء لأشجارٌ تبين لنا
إنّ النساء متى ينهين عن خلق

إنّ تقويم الضلوع انكسارها

وفي حديث المرفوع أنّ المرأة خلقت من ضلع عوجاء، فإن ذهبت تقومها كسرتها، فاستمع بها على عوج فيها. وكان أبو ذر الغفاري يقعد على منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم فينشده:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها
أبجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى
ألا إنّ تقويم الضلوع انكسارها.
أليس عجيباً ضعفها واقتدارها؟

في خلافة البركة

وفي الحديث شاوروهنّ وخالفوهنّ، فإنّ في خلافة البركة.

علقة طبّ بأدواء النساء

قال علقمة بن عبدة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله
بصيرٌ بأدواء النساء طبيب
فليس له في ودّه نصيب

تلين لك ولغيرك

وقال آخر:

تمنّع بها، ما ساعفتك، ولا تكن
وإن هي أعطتك اللبان فإنها،
لغيرك من طلابها ستلين؛
على قدم الأيام سوف تخون
وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها،
فليس لمخضوب البنان يمين

تحجّ وتكشف عن وجهها للشباب

وقال أبو عبيدة: حجّت امرأة عجير السلولي معه، فأقبلت لا تطرق على شابّ في الرّفة إلاّ وتكشف وجهها، فقال في ذلك:

أيا ربّ لا تغفر لعنة ذنبها،
حرامّ عليك الحجّ لا تطعمينه
وإن لم يعاقبها العجير، فعاقب
إذا كان حجّ المسلمات التّوائب

للفارس العجلان منها نصيب

وقال أعرابيٌّ:

لا تكثري قولاً منحتك ودّنا،
تعددين ما أوليتني منك قابلاً،
فقولك هذا للفرود مريب،
وللفارس العجلان منك نصيب؟

لم تكن عنده شريفة

أراد رجلٌ أن يشتري قينةً وقد كان أحبّها، فبات عند مولاها ليلةً فأمكنته من نفسها وكان الامتناع منه، فأنشأ يقول:

منظراً لو تزينه بعفاف
جنب القلب طاهر الأطراف
لست عندي من فتية الأشراف

ما رأينا بواسط كسليمي
بت في جنبها وبات ضجيجي
فأقيمي مقامنا ثم بيني،

لا يشتهي الفاجرة

وقال آخر:

تخاف وتغشاها المعبدة الحرب
عن الناس حتى ليس في صفوها عيب

لا أشتهي رنق الحياة ولا التي
ولكنني أهوى مشارب أحرزت

الإصبع لا تستر زانية

وقال أعرابي أيضاً

وأمسكت لما صرت نهياً مقسماً .
على كثرة الوراد أن يتهدّما

تبعتك لما كان قلبك واحداً،
ولن يلبث الحوض الوثيق بناؤه

الباغية دون اكتفاء

وقال أبو نواس:

وتلقي بالتحية والسلام
فلم أخلص إليه من الزحام
ولا ألفا خليل كل عام،
فهم لا يصبرون على طعام .

ومظهرة لخلق الله حباً،
أنيت فؤادها أشكو إليه،
فيا من ليس يكفيها خليل،
أراك بقية من قوم موسى،

إذا غاب بعلّ جاء بعل

وكان رجلٌ يحبّ امرأةً فخطب في اليوم الذي ماتت فيه، فقيل له في ذلك فقال:

لكانت بلا شكٍ لأوّل خاطب
فلا بدّ من أتٍ وآخر ذاهب

خطبت كما لو كنت قدّمت قبلها
إذا غاب بعلّ كان بعلّ مكانه

تزوجته وطافت بالبيت عريانةً

وعن المطلّب بن الوداعة السهمي قال: كانت ضباعة بنت عامر، من بني عامر بن صعصعة، تحت عبد الله بن جدعان. فمكثت عنده زماناً لا تلد، فأرسل إليها هشام بن المغيرة: ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذي لا يولد له: فقولي له فليطأك. فقالت ذلك لعبد الله بن جدعان، فقال لها: إني أخاف إن طأقتك تنزّوجي هشام بن المغيرة؟؟ قالت له: فإنّ لك عليّ أن لا أفعل هذا. قال لها: فإن فعلت، فإنّ عليك مائة من الإبل تنحربنها وتنسجين ثوباً يقطع ما بين الأخشبيين وتطوفين بالبيت عريانةً. قالت: لا أطيق ذلك.

وأرسلت إلى هشام فأخبرته، فأرسل إليها ما أهون ذلك، وما يكن بك من ذلك، أنا أيسر من قريش في المال، ونسائي أكثر النساء بالبطحاء، وأنت أجمل النساء ولا تعابين في عريك، فلا تأبي ذلك عليه. فقالت لابن جدعان: طأقتي، فإن تزوّجت هشاماً فعليّ ما قلت. فطأقتها بعد استنطاقه منها. فتزوّجها هشام، فنحر عنها مائة جزور، وأمر نساؤه فنسجن ثوباً يملأ ما بين الأخشبيين، ثم طافت بالبيت عريانةً. قال المطلّب: فأتبعها بصري إذا أدبرت

وأستقبلها إذا أقبلت، فما رأيت شيئاً مما خلق الله منها وهي واضعة يدها على فرجها وقريش قد أهدقت بها، وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
وما بدا منه فلا أحله

التلفيق عند الزبير بن بكار

قال الزبير بن بكار: خطب الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من عمه الحسين بن علي رضي الله عنهما فقال له: يا ابن أخي، قد انتظرت هذا منك انطلق معي، فخرج معه حتى أدخله منزله ثم أخرج إليه ابنته فاطمة وسكينة، وقال له: اختر أيهما شئت! فاختر فاطمة، فزوجه إياها. فلما حضرت الحسن الوفاة قال لها: إنك امرأة مرغوب فيك، متشوف إليك لا تتركين، وإني ما أدع في قلبي حسرة سواك. فتزوجني من شئت سوى عبد الله بن عمر بن عثمان. ثم قال لها: كآتي قد خرجت وقدمت جاءك لابساً حلتته، مرجلاً جمته، يسير في جانب الناس معترضاً لك، ولست أدع من الدنيا همماً غيرك. فلم يدعها حتى استوثق منها بالإيمان.

ومات الحسن، فأخرجت جنازته، فوافاه عبد الله بن عمر وكان يجد فاطمة وجداً شديداً، وكان رجلاً جميلاً كان يقال له المطرف من حسنه، فنظر إلى فاطمة وهي تلطم وجهها على الحسن، فأرسل إليها مع وليدة له: أن لابن عمك أرباً في وجهك فارقي به. فاسترخت يدها واحمر وجهها حتى عرف ذلك جميع من حضرها. فلما انقضت عدتها خطبها فقالت: كيف أفعَل بِيَمَانِي؟ قال لها: لك بكل مال مالان؛ وبكل مملوك مملوكان. فوقى لها وتزوجها فولدت له محمداً. وكان يسمى من حسنه الديباج والقاسم ورقية.

وقال الزبير: لما حضرت الوفاة حمزة بن عبد الله بن الزبير خرجت عليه فاطمة بنت القاسم بن علي بن جعفر بن أبي طالب فقال لها: كآتي بك تزوجت طلحة بن عمر بن عبد الله بن معمر، فحلفت له بعق رقيقها، وإن كل شيء لها في سبيل الله أن تزوجه أبدأ. فلما توفي حمزة بن عبد الله وحلت، أرسل إليها طلحة بن عمر فخطبها فقالت له: قد حلفت. وذكرت يمينها، فقال لها: أعطيك بكل شيء شينين. وكانت قيمة رقيقها وما حلفت عليه عشرين ألف دينار، فأصدقها ضعفها فتزوجته، فولدت له إبراهيم ورملة. فزوج طلحة ابنته رملة من إسماعيل بن علي بن العباس بمائة ألف دينار وكانت فائقة الجمال والخلق، فقال إسماعيل لطلحة بن عمر: أنت أتجر الناس. قال له والله ما عالجت تجارة قط. قال: بلى حين تزوجت فاطمة بنت القاسم بأربعين ألفاً فولدت لك إبراهيم ورملة، فزوجت رملة بمائة ألف دينار فربحت ستين ألفاً وإبراهيم.

تزوجته قبل انقضاء عدتها

وعن هشام بن الكلبي قال: قال عبد الله بن عكرمة: دخلت على عبد الرحمن بن هشام أعوده فقلت: كيف تجد؟ فقال: أجد بي والله الموت، وما موتي بأشد علي من أم هشام، أخاف أن تتزوج بعدي. فحلفت له أنها لا تتزوج بعده فعشي وجهه نوراً، وقال: الآن فليزل الموت متى شاء. فلما انقضت عدتها تزوجت عمر بن عبد العزيز. فقلت في ذلك؟

فإن لقيت خيراً فلا يهنيها
وإن تعست بؤساً فللعين والفم

فلما بلغها ذلك كتبت إلي: قد بلغني ما تمثلت به، وما مثلي في أخيك إلا كما قال الشاعر:

وهل كنت إلا والهأ ذات ترحه
قضت نحبها بعد الحنين المرجع
فدع ذكر من قد وارت الأرض شخصه
ففي غير من قد وارت الأرض مقع

قال: فبلغ مني كل مبلغ. فحسبت حسابها فإذا هي قد عجلت بالتزوج وبقي عليها من عدتها أربعة أيام. فدخلت على عمر فأخبرته فانقضى النكاح.

هل يزول الهوى بعد الموت

قال الزبير بن بكار: كانت امرأة من العرب تزوجت رجلاً، فكانت تجد به، ويجد بها جداً شديداً، فتحالفا وتعاهدا أن لا يتزوج الباقي منهما. فما لبث أن مات بعلمها، فتزوجت، فلامها أهلها على نقض عهدها، فقالت:

لقد كان حبيّ ذاك حباً مبرحاً
وكانت حياتي عند ذلك جنّة
فلما مضى، عادت لهذا مودّتي،
وحبيّي لذا مات ذاك شديداً.
وحبيّي لذا طول الحياة يزيد
كذاك الهوى بعد الممات يبيد

لم ترع لبعلمها حرمةً

حكى الهيثم بن عدي قال: عاهد رجلٌ امرأته وعاهدته أن لا يتزوج الباقي منهما، فهلك الرجل، فلم تلبث المرأة أن تزوجت. فلما كان ليلة البناء بها رأته في أول الليل شخصاً فتأملتته، فإذا هو زوجها، وهو يقول لها: نقضت العهد ولم ترعي له. وأصبحت فأتت نكاحها.

تركها وأوصى بها فخائته

وروى ابن شهاب: أن رجلاً من الأنصار غزا فأوصى ابن عمّ له بأهله، فأتى ابن عمّ الرجل ليلة من الليالي فتطلع على حال زوجة ابن عمّه فإذا بالبيت مصباح يزهر ورائحة طيبة، وإذا برجلٍ متكئٍ على فراش ابن عمّه وهو يتغنّى ويقول:

وأشعث غرة الإسلام منّي
أبيت على ترائبها ويغدو
كأنّ مجامع الرّيلات منها
خلوت بعرسه بدر التّمات
على جرداء لاحقة الحزام
فئام ينتمين إلى فئام

فلم يقدر الرجل أن يملك نفسه حتى دخل عليه فضربه حتى قتله. ورفع الخبر إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فصعد المنبر وخطب وقال: عزمت عليكم أن كان الرجل الذي قتل حاضرأ ويسمع كلامي فليقم. فقال: أبعد الله، ما كان من خبره؟ فأخبره وأنشده الأبيات، فقال: أضربت عنقه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: أبعد الله، فقد هدر دمه.

لم ترع عهداً ولم يرع قرابةً

قال أبو عمرو الشيباني: كان أبو ذؤيب الهذلي يهوى امرأة يقال لها أم عمرو، وكان يبعث إليها خالد ابن أخيه زهير، فراودت الغلام عن نفسها، فامتنع وقال: أكره أن يبلغ أبا ذؤيب. فقالت له: ما يراني وإياك إلا الكواكب. فبات وقال:

ما تمّ إلاّ أنا والكواكب
وأتمّ عمرو فلنعم الصّاحب

فلما رجع إلى أبي ذؤيب استراب به، وقال: والله إنّي لأجد ريح أمّ عمرو منك. ثمّ جعل لا يأتيه إلاّ استراب به، فقال خالد:

يا قوم ما لي وبني ذؤيب،
يمسّ عطفي، ويشمّ ثوبي،
كنت إذا ما جنّته من غيب،
كأنّني أربته بريب.

فقال أبو ذؤيب، وهي من قصيدة من جيّد شعره:

دعا خالداً أسرى ليالي نفسه
يولي على قصد السبيل أمورها

فلما توقاها الشَّباب وغدره،
لوى رأسه عني، ومال بوذه،
تعلقها منه دلال ومقلة

وفي النَّفس منه غدرها وفجورها
أغانيج خودِ كان حيناً يزورها
يظنُّ لأصحاب السَّفاه يثيرها

فأجابه خالد:

فلا يبعدين الله عقلك إن غزا
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي
وقاسمها بالله جهداً لأنتم
فلم يغن عنه خدعه حين أزمعت

وسافر والأحلام جمُّ غيورها
إليك إذا ضاقت بأمر صدورها
ألدَّ من الشَّكوى إذا ما يسورها
صريمته والنَّفس مرَّ ضميرها

قال: وكان أبو ذؤيب أخذها من ملك بن عويمر وكان ملك يرسله إليها، فلما كبر أخذت أبا ذؤيب، فلما كبر أخذت خالدًا. وقال:

ترديدن كيما تجمعييني وخالدًا
أخالد، ما راعيت مني قرابةً

وهل يصلح السيِّفان، ويحك، في غمد؟
فتحفظني بالغيب أو بعض ما تبدي.

عن قريبٍ تبع كفلها

قال أبو عبيدة: كان صخر بن عبد الله الشَّريد يتعشَّق ابنة عمِّه سلمى بنت كعب، وكان يخطبها فتأبى عليه، فأقام على ذلك حيناً ثمَّ أغارت بنو أسدٍ على بني سليم فغلبوهم وصخر غائب. وأخذت سلمى فيمن أخذ من النساء، وقتل عددٌ منهم، وأسر آخرون. وأقبل صخر فنظَّر إلى ديارهم بلقعاً وأخبر الخبر، فشَدَّ عليه سلاحه، واستوى على فرسه، وأخذ أثرهم حتَّى لحقهم، فلما نظروا إليه قالوا: هذا كان شرِّد من بني سليم، وقد أحبَّ الله أن لا يدع منهم أحداً. فجعل يبرز إليه الفارس بعد الفارس فيقتله، فلما أكثر فيهم القتل، حلت أسارى بني سليم بعضها بعضاً، وثاروا على بني أسد.

ونظر صخر إلى سلمى وهي مع عبد أسود، قد شدَّها على ظهره، فطعنه صخرٌ فقتله واستنقذ سلمى ورجع بها. وقد أصابته طعنة أبي ثور الأسدي في جنبه، وتزوَّج سلمى. وكان يحبُّها ويكرمها، ويفضِّلها على أهله. ثمَّ بعد ذلك انتقض جرحه فمرض حولاً، وكان نساء الحيِّ يدخلن إلى سلمى عوائد فيقلن: كيف أصبح صخر؟ فنقول: لا حيَّ فيرجى ولا ميت فينسى. ومرَّ بها رجلٌ وهي قائمةٌ وكانت ذات خلق وأرداف، فقال: أبيع هذا الكفل؟ فقالت: عن قريبٍ فسمعها صخر، ولم تعلم، فقال لها: ناوليني السِّيف أنظر هل صدئ أم لا؟ وأراد قتلها، فناولته ولم تعلم، فإذا هو لا يقدر على حمله فقال:

أرى أمَّ صخرٍ ما تملَّ عيادتي
وما كنت أخشى أن أكون جنازةً
فأيَّ امرئٍ ساوى بأمر حليَّةٍ
أهمَّ بأمر الحرم لو أستطيعه،
لعمري لقد أيقظت من كان نائماً
فللموت، خيرٌ من حياةٍ كأنها

وملأت سليماً مضجعي ومكاني
عليك ومن يغترَّ بالحدثان
فلا عاش إلاَّ في شقا وهوان
وقد حيل بين العير والنزوان
وأسمعت من كانت له أذنان
محلة يعسوب برأس سنان.

قال: ونتاجت في موضع الجرح قطعةً فأشاروا عليه بقطعها، فقال لهم: شأنكم. فلما قطعت مات.

غدرت حتَّى بأبيها

قال كان الساطرون والملك، ملك اليونانيين، قد بنى حصناً يسمَّى الثَّرثار ولم يكن له بابٌ ظاهرٌ فكلَّ من غزاه من الملوك رجع عنه خائباً حتَّى غزاه سابور ذو الأكتاف، ملك فارس، فحصره أشهراً لا يقدر على شيء.

فأشرفت يوماً من الحصن النضيرة ابنة الملك، فنظرت إلى سابور فهويته، وكان من أجمل الناس وأمدّهم قامّةً، فأرسلت إليه: إن أنت ضمنت لي أن تنزّجني وتفضّلني على نساءك دلتك على فتح هذا الحصن. فضمن لها ذلك فأرسلت إليه: أن أنثر في التّراث تبناً واجعل الرّجال يتبعونه حتّى يروا حيث يدخل. فإنّ ذلك المكان يفضي إلى الحصن، وفيه باب. ففعل ذلك سابور، وعمدت النضيرة إلى أبيها فسقته الخمر حتّى أسكرته، فلم يشعر أهل الحصن إلاّ وسابور معهم وهم آمنون.

قال: فلما فر سابور بالحصن، وقتل الملك أبا نضيرة، وجمع جنده، تزوّج بالنضيرة فباتت معه مسهرةً لا تنام تتقلّب من جنب إلى جنب. فقال لها سابور: ما لك لا تنامين؟ فقالت: إنّ جنبي تجافى عن فراشك. قال: ولم، فوالله ما نامت الملوك على ألين منه ولا أوطأ، وإنّ فرشه لزغب اليمام. فلما أصبح سابور نظر إلى ورقة أس بين أعكاتها، فتناولها، فدمى موضعها. فقال لها: ويحك بماذا كان أبوك يغيّيك؟ قالت: بالمدّ والبلح والشهد وصفو الخمر. فقال لها سابور: إني لجديرٌ أن لا أستيقك بعد إهلاك أبائك وقومك، وكانت حالك عندهم هذه الحالة التذّصفين، وأمر بإحضار فرسين فربطت إلى أرجلها بغدائرهما ونفّرا فقطعاها نصفين، فذلك قول عدي حيث يقول:

والحصن صبّت عليه داهيةً
من يعد ما كان وهو يعمره
من قعره أيد مناكبها
أرباب ملك جزل مواهبها

وصلت الخيانة حتّى إلى أم البنين؟

ويروى أنّ وضّاح اليمن نشأ هو وأمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان بالمدينة صغيرين فأحبّها وأحبّته، وكان لا يبصر عنها حتّى إذا شبّت حجبت عنه، فطال بهما البلاء. فحجّ الوليد بن عبد الملك فبلغه جمال أمّ البنين وأدبها فنزّوجها ونقلها معه إلى الشّام فذهب عقل وضّاح عليها وجعل يذوب وينحلّ فلما طال عليه البلاء وصار إلى الوسواس خرج إلى مكّة حاجاً وقال لعليّ أستعيذ بالله ممّا أنا فيه وأدعو الله فلعنه يرحمني.

فلما قضى حجّه شخص إلى الشّام فجعل يطوف بقصر الوليد بن عبد الملك في كلّ يوم لا يجد حيلةً حتّى أرى في يوم من الأيام جاريةً صفراء خارجةً من القصر تمشي فمشى معها ولم يزل بها حتّى أنست به فقال لها: أتعرفين أمّ البنين بموضعي؟ فقالت: عن مولاتي تسأل؟ قال لها: هي ابنة عمّي، وإنّها لتسرّ بموضعي لو أخبرتها، قالت: فأنا أخبرها.

فمضت الجارية فأخبرت أمّ البنين فقالت لها: ويحك أحيّ هو؟ قالت لها: نعم يا مولاتي. قالت لها: إرجعي إليه، وقولي له كن مكانك حتّى يأتيك رسولي، فإنّي لا أدع الاحتيال لك؛ واحتالت له فأدخلته في صندوق، فمكث عندها حيناً فإذا أمنت أخرجته فقعد معها، وإذا خافت عين رقيب أدخلته في الصندوق.

وأهدي يوماً لوليد جوهر فقال لبعض خدمه خذ هذا العقد وأمض به إلى أمّ البنين وقل لها: أهدى هذا إلى أمير المؤمنين فوجّه به إليك. فدخل الخادم مفاجأةً ووضّاح معها قاعد فلمحه الخادم، ولم تشعر أمّ البنين، فبادر إلى الصندوق فدخله.

وأدى الخادم الرّسالة وقال: هبي لي من هذا الجوهر حجراً واحداً. فقالت له: لا أمّ لك، فما تصنع بهذا. فخرج وهو عليها حنق، فجاء الوليد فأخبره الخبر ووصف له الصندوق الذي رآه دخله، فقال له: كذبت، لا أمّ لك: ثمّ نهض الوليد مسرعاً فدخل إليها وهي في ذلك البيت وفيه صناديق كثيرة فجاء حتّى جلس على ذلك الصندوق الذي وصف له الخادم فقال لها: يا أمّ البنين هبي لي صندوقاً من صناديقك هذه؟ قالت: أنا لك يا أمير المؤمنين، وهي لك، فخذ أيّها شئت. قال: ما أريد إلاّ هذا الذي تحتي. قالت له يا أمير المؤمنين إنّ فيه شيئاً من أمور النساء. فقال: ما أريد غيره. قالت فهو لك.

قال فأمر به فحمل، ودعا بسلامين وأمرهما أن يحفرا حتّى وصلا إلى الماء ثمّ وضع فمه في الصندوق وقال يا صاحب الصندوق قد بلغنا عنك شيء فإن كان حقاً فقد دفنّا خبرك، وإن كان كذباً فما أهون علينا، إنّما دفنّا صندوقاً. وأمر بالصندوق فألقى في الحفيرة، وأمر بالخدّام الذي عرفه فقذف معه، وردّ التراب عليهما. قال فكانت أمّ البنين لا ترى إلاّ في ذلك المكان تبكي إلى أن وجدت ذات يوم مكبوبةً على وجهها ميتة.

استطعن التّخلص في آخر لحظة

وروي عن أبي نواس قال حجبت مع الفضل بن الربيع فلما كنا بأرض فزارة أيام الربيع، نزلنا منزلاً بفنائهم ذا أرضٍ أريضٍ، ونبتٍ غريضٍ، وقد اكتست الأرض نبتها الزّاهر، وبرزت براخم غررها والتّحف أنوار زخرفها الباهر ما يقصر عن حسنه التّمارق المصفوفة، ولا يداني بهجته الزّرابي المبوثة. فزادت الأبصار في نضرتها، وابتهجت النفوس بثمارها. فلم نلبث أن أقبلت السّماء بالسّحاب، وأرخت عزاليها ثمّ اندهمت برداً ثمّ بطش ثمّ بوابلٍ حتّى إذا تركت الدّيم، كالوهاد انقشعت وأقلعت وقد غادرت الغدران مترعةً برفقٍ، والقيعان ناضرةً تتألق، يتضاحك بأنوار الزّهر الغضّ حتّى إذا هممت بتشبيهه منظر حسن رددته إليه، وإذا تقفّ إلى موضع طيّبٍ لم يجد في البكاء معولاً إلاّ عليه. فسرحت طرفي راتعاً في أحسن منظرٍ، واستنشقت من رياها أطيّب من ريح المسك الأذفر. فقلت لزميلتي: ويحك أمض بنا إلى هذه الخيمات، فلعلنا نلقى من نأثر عنه خبراً، نرجع به إلى بغداد.

فلما انتهينا إلى أوائلها إذا نحن بخباء على باب جارية مبرقة بطرف مريض وسانان التّظر قد حشي فتوراً، وملء سحراً، فقلت لصاحبي: والله إنّها لترنو عن مقلة لا رقية لسليمتها ولا براء لسقيمتها. فقال لي: وكيف السبيل إلى ذلك؟ فقلت: استسقى ماءً. فدوننا منها فاستسقىها فقالت نعم، ونعما عين وإن نزلتما ففي الرّحب والسّعة. ثمّ قامت تنهادي كالذّعص الملبد. فراعني والله ما رأيت منها، فأنت بالماء فشربت منه، وصيبت باقية على يدي، ثمّ قلت: وصاحبي عطشانٌ أيضاً. فأخذت الإناء ودخلت الخباء ثمّ جاءت، فقلت لصاحبي: تعرض لكشف وجهها. فقال:

إذا بارك الله في ملبس
تريك عيون المها غرّة
فلا بارك الله في البرقع
وتكشف عن منظر أشنع

فمرّت مسرعةً وأنت وقد كشف البرقع وتفتعت بخمارٍ أسود وأنشأت وهي تقول:

ألا حيّ ضيفي معشر قد أراهما
هما استقيا ماءً على غير ظمأٍ
أضلاً ولما يعرفا مبتغاهما
ليستمتعا باللحظ ممّن سفاهما
كما ذمّ تجرا سلعةً مشتراهما
يذمّان تلباس البراقع ضلّة

قال: فشبهت، والله كلامها بعقد درّ وهي من سلكه. فهو ينتثر بنعمة عذبة رخيمة لو خوطبت به الصّم الصّلاب لانجست ماءً لرطوبة منطقتها، وعذوبة لفظها، بوجه يظلم لنوره ضياء العقول، ويتلف من رؤيته مهج النفوس. فهي كما قال:

فرقت وجلّت واستكرت فأكملت
فلو جنّ إنسانٌ من الحسن جنّت

فلم أتمالك أن خررت ساجداً، فقالت: ارفع رأسك غير مأجور، ولا تدمنّ بعدها برقعاً. فكشف البرقع عمّا يطرد الكرى، ويشغل الهوى، من غير بلوغ أربٍ، ولا إدراك طلبٍ. وليس إلاّ الحين المملوب، والقدر المكتوب، والأمل المكذوب. فيقيت والله معقول اللسان عن الجواب، حيران لا أهتدي إلى طريق الصّواب. والتفت إليّ صاحبي لمّا رأى لهفي فقال: ما هذه الخفة لوجه، إنّما برقت لك بارقةً لعلك ما تدري ما تحتها. أما سمعت قول الشّاعر؟ حيث يقول:

على وجه مّي مسحة من ملاحه
وتحت الثّياب العار لو كان باديا

فقال: بنس ما ذهب إليه، لا أبالك، لأنّا أشبه بقول الشّاعر حيث يقول:

منعمة حوراء يجري وشاحها
خزاعية الأطراف كندية الحشا
على كشح مرتج الرّوادف أهضم
فزارية العينين طائية الفم

ثمّ رفعت ثيابها حتّى جاوزت نحرها، فإذا هي كقضيبي فضّة قد شيب بماء الذهب، يهتزّ على مثل كتيب؛ ولها صدرٌ كالورد عليه رمّانان أو حقان من عاج يملآن يد اللامس؛ وخصرٍ مطويّ الاندماج، يهتزّ في كفلٍ

رجراج، لو رمت عقده لانعقد؛ وسرّة مستديرة يقصر وهمي عن بلوغ وصفها؛ تحت ذلك أرنبٌ جائمٌ أو جبهة أسدٍ غادر، وفخذان لقاوان، وساقان خدلجان يحسان الخلاخيل، وقدمان خمصاوان. فقالت: أعارٌ ترى؟ قلت: لا والله، قال: فخرجت عجوزٌ من الخباء وقالت: أيها الرّجل امض لشأنك، فإنّ قتلها مطلول لا يودي، وأسيرها مكبول لا يفيدي. فقالت لها الجارية: دعيه فمثله قول ذي الرّمة:

وإن لم يكن إلاّ تمّتع ساعةً قليلاً فإنّي نافعٌ لي قليلاً

فولّت العجوز وهي تقول:

فما لك منها، غير أنّك ناكحٌ بعينيك عينيها، فهل ذاك نافعٌ؟

قال: فبينما نحن كذلك إذ ضرب الطبل للرّحيل فانصرفت بكمدي قاتلي، وكربٍ داخلي، ونفسٍ هائمةٍ، وحسرةٍ دائمةٍ، فقلت في ذلك:

رسم الكرى بين الجفون مخيل	عفا عليه بكا عليك طويل
يا ناظراً ما أقلعت لحظاته	حتّى تشخص بيتهنّ قتيل
أحللت من قلبي هواه محلّة	ما حلّها المشروب والمأكول
بكمال صورتك التي في مثلها	يتحير التّشبيه والتّمثيل
فوق القصيرة والطويلة فوقها	دون السّمين ودونها المهزول

قال: فوالله ما انتفعت بحجّ ولا لقيت أحداً ممّا كنت تأهّبت للقائه. ثمّ رجعنا منصرفين، فلمّا كنّا بذلك المنزل وقد تضاعف نواره، واعتّم نبتّه، وتزايد حسنه، قلت لصاحبي: امض بنا إلى صاحبتنا. فلمّا مضينا وأشرقنا على الخيام ونحن دونها، سترني روضةً أريضةً موقنةً، عليها جمان الطلّ، يغازلها كالأعين النّجل، وقد أشرقت بدموعها على قصب الزّبرجد، وهبت ريح الصّبا فصبت له الأغصان، وتمايلت تمايل النّشوان. فصعدنا ربوةً، ونزلنا وهدّة، فإذا هي بين خمس لا تصلح أن تكون خادمةً لإحداهنّ، وهنّ يجنين من نوار ذلك الزّهر، وينقلبن على ما أعتم من عشبةٍ وزهرةٍ. فلمّا رأيننا تقربن، فسلمنا عليهنّ. وقالت الجارية من بينهنّ: وعليك السّلام، ألسّت صاحبي أنفاً؟ قلت: بلى، ولكنّ لحبي كان ذلك. فقلن لها: أو تعرفينه؟ قالت: نعم. فقصّت عليهنّ القصّة كلّها ما كتمت منها حرفاً واحداً.

قلن لها: ويحك، أمّا زوّدته شيئاً؟ قالت زوّدته والله موتاً مريحاً، ولحداً ضريحاً. فانبرت لها أنضرهنّ وجهاً، وأرقهنّ خداً، وأرشقهنّ قدأً، وأبدعهنّ شكلاً، وأكملهنّ عقلاً. فقالت: والله ما أجملت بدءاً، ولا أحسنت عوداً، ولقد أسأت في الرّدء، ولم تكافئيه بالودء، وإنّي أحسبه إليك وامفاً، وإلى لقائك تانفاً، فما عليك من إسعافه في هذا المكان ومعك من لا ينمّ عليك. فقالت لها: يا تعساً إلى ما دعوتني، والله لا أفعل من ذلك شيئاً أو تفعلينه وتشركيني في حلوه ومرّه، وخيره وشرّه. فقالت لها: تعساً تلك إذا قسمة ضيزي تعشقين أنت فترهين، وتوصلين فتقطعين، ويرغب فيك فنزهدين، ويبدل لك الودّ فتمنعين الرّفد، ثمّ تأمريني أن أشاركك فيما يكون منك شهوةً ولذّةً، ومثي عناءً وسخرةً؟ ما أنصفت في القول، ولا أجملت في الفعل.

قالت أخرى منهنّ: قد أطلتّن الخطاب في غير قضاء أربي؟ فاسألن الرّجل عن قصّته وما في نفسه من بقيةٍ؟ فلعله لغير ما أنننّ فيه. فقلن: حيّاك الله وأقرّ بك عيناً، من أنت، ومن تكون؟ فقلت: أمّا الاسم فالحسن بن هانئ الحكمي وأنا من شعراء السّلطان الأعظم ومن يتزوّج بمجلسه، ويفتخر بحمده وشكره، ويتقي لسانه. قصدت لتبريد غلّة، وإطفاء لوعةٍ قد أحرقت الكبد، وأذابت الجسد، ثمّ استبطنت الأحشاء فمنعت من القرار، ووصلت الليل بالنّهار. فقالت: لقد أضفت إلى حسن المنطق والمنظر، كريم الخيم والمخبر، وأرجو أن تبلغ أمّنيك، وتنال بعينك. فهل قلت شيئاً في صبوتك؟ قلت: نعم. قلن: أنشد فأنشدتهنّ:

حجبت رجا الفوز بالأجر قاصداً،	لحطّ ذنوب من ركوب الكبائر،
فأبت، كما أب الشقيّ بخفّه	حنين، فلم أوجر بتلك المشاعر
دهنتي بعينيها، وبهجة وجهها،	فتاةً، كمثل الشّمس أسحر ساحر؛

منعمة، لو كان للبرد نورها،
فإن بذلت، نلت الأمانى كلها،
لما طلعت ببيض النجوم الزواهر .
وإن لم تتلني، زرت أهل المقابر .

فقلن: أحسنت، والله. ثم قالت: إنها والله ساعتك الطولى، إن خالفتني! قالت: لقد سمعت جوابي. فقالت أخرى: أجيبيها إلى ما دعت من الشراكة لتكن إحدانك في الأمر. فقلن: قد انتصفت، وقد أطلت الخراب على أمر فأمضيه قبل انتشار الحي، فالوقت ممكن، والمكان خالٍ. فأجمعن على ذلك ولست أشك فيما أظهرن، ثم قلن: بمن تبدأ؟ قلت اقترعن. فوقعت القرعة على أملهن. فصرت إلى باب المغارة هناك، فأدخلتني وأبطأت عني قليلاً، وجعلت أتوق وأنظر إلى دخول إحداهن. فبينما أنا كذلك، إذ دخل عليّ أسود كأنه سارية، بيده أيره وهو منعظ كمثّل ذراع البكر. فقلت: ما تريد؟ قال: أنيكك. فأهمتني والله نفسي، فصحت بصاحبي، وكان أجد مني، فخلصني من الأسود. ولم أكد أخلص منه فخرجت من المغارة فإذا هنّ ينظرن من الخيمات كأنهنّ لآلئ ينحدرن من سلك، وهنّ يتضحكن حتى غين عن بصري. فأسرنا الرجعة إلى رحالنا فقلت لصاحبي: من أين جاء الأسود؟ قال: كان يرعى غنماً عند ربوة من المغارة، فأومأ إليّ، فأسرع نحوهنّ، فأوحين إليه شيئاً فرأبني ذلك. فأسرعت نحوك فسبقني ودخل عليك، ولولا ذلك لكان قد تمكّن منك الأسود. فقلت: أترأه كان يفعل؟ قال لي: فأنت في شك من هذا؟ فقلت له: اكنم عليّ. وانصرف وأنا والله أخزى من ذات التحيين.

فاجرة السرداب

قال دعبل بن علي: بينا أنا سائرٌ بباب الكرج وقد استولى الفكر على قلبي فحضرني بيت شعرٍ خطر به لساني من غي النطق به، فقلت:

دموع عيني لها انبساط
ونوم جفني له انقباض

وإذا جاريةً معترضةً تسمع كلامي فقلت:

وذا قليلٍ لمن دهته
بلحظها الأعين المراض

فلم أعلم أنّي خاطبت جاريةً أعذب منها لفظاً، ولا أسحر طرفاً، ولا أنضر خدّاً، ولا أحسن مشياً، ولا أرجح عقلاً. فوددت أنّ كلّ جارحةٍ مني عينٌ تنظر، أو قلبٌ يفهم، أو أذنٌ تسمع. فقلت:

أترى الزمان يسرنا بتلاق
ما للزمان يقال فيه وإنما
ويضمّ مشتاقاً إلى مشتاق
أنت الزمان فسرنا بتلاق

قال: فلحظتها، وتبعنتي. وذلك حين أملاقي، واختلال حالي. فقلت: مالي إلاّ منزل صريع الغواني، فأنتيته، واستوقفتها، ودخلت إليه. وقلت: ويلك يا مسلم، أجمل لك الحبروجة على الباب تقلّ له الدنيا وما فيها من عسر وضيق. قال لي: شكوت إلى ما كدت أبدؤك به الشكوى، ولكن أنت بها على كلّ حال. فلما دخلت قال لي: والله ما أملك إلاّ هذا المنديل. فقلت له: هو البغية. قال، فأخذته فبعته بثلاثين درهماً، واشترت خبزاً ولحماً ونيبداً. وإذا هما يتنازعان حديثاً كأنه قطع الرّوض ذكرت به قول بشّار فقلت:

وحديثٌ كأنه قطع الرّو
ض وفيه الصّفراء والحمراء

فقال لي مسلم: بيتٌ نظيفٌ، ووجهٌ ظريفٌ، ولا نفل ولا ربحان؟ أخرج فالتمس لنا ذلك. قال، فخرجت وجئت بما طلب، فإذا لا حسّ منهما ولا أثر لهما، فجعلت أطيل الذّكر، وأرجم الظنّ، حتى إذا جنّ الليل وفي قلبي لهيب النيران، ثاب عليّ عقلي وقلت: لعلّ الطلب يوقيني على موضع خفي. فوقفت على باب سرداب وإذا هما قد نزلا ومعهما جميع ما يحتاجان إليه فأكلا وشربا ونعما. فدليت رأسي وصحت مسام ثلاث مرّات، فلم يكلمني بأكثر من أن قال لي: محلنا، والنّفقة من عندنا، وأنت فضولي، ما هذا الذي تقترح؟ اصبر مكانك حتى يؤذن لك، فبقيت طول ليلتي أتقلّي على جمر الغضا لا أعرف أين أنا. فلما انشق الصّبح إذا به طلع وطلعت الجارية في أثره، فأسرعت إليه وخرجت تعدو ولم تخاطبني، فكانت أعظم حسرةٍ نزلت بي.

باب ما جاء في الزنا والتحذير من عواقبه

سَيِّئَاتُ الزَّانَا

روي عن الأعمش، عن سفيان، عن حذيفة، أن رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: " يا معشر المسلمين إياكم والزنا، فإن فيه ستّ خصال: ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة. فأما التي في الدنيا: فزوال البها، ودوام الفقر، وقصر العمر؛ وأما اللواتي في الآخرة. فسخط الله جلّ ثناؤه، وسوء الحساب، والخلود في النار". المقيم على الزنا كعابد وثنّ .

وعن الحارث بن النعمان قال: سمعت أنس بن مالك يقول أن رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "المقيم على الزنا كعابد وثنّ".

هُوْلَاءُ اللّوَاتِي يَزْنِينَ

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ليلة أسرى بي انطلق بي إلى خلق من خلق الله ونساءٍ معلقاتٍ بنديهنّ ومنهنّ بأرجلهنّ، منكساتٍ، ولهنّ صراخٌ وخوار. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء اللواتي يزنيّن أولادهن، ويجعلن لأزواجهنّ ورثةً من غيرهم".

اللّهِ يَبْغِضُ ثَلَاثَةَ

وعن أبي الدرداء. أنّ النبيّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "أنّ الله عزّ وجلّ ليبيغض ثلاثة. الشّيح الزّاني، والمقلّ المختال، والبخيل المنان".

أَعْظَمُ الذُّنُوبِ أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ

وعن عمر بن شرحبيل، عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: قلت: يا رسول الله، أو قال غيري: أيّ الذنوب أعظم عن الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك". قلت: ثمّ أي؟ قال: "أن تقتل النفس بغير حقّ"، ثمّ أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك". قال: "ثمّ أنزل الله في كتابه تصديق ذلك". ثمّ قال: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً".

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الزّاني بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكّيه، ويقول أدخل النار مع الداخلين".

مَسْئُولِيَّةُ الرَّجُلِ

وعن أبي هريرة، أنّه سمع رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول حين نزلت آية الملائكة: "أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنّته. وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين".

الزّنا يجمع خصال الشّرّ كلّها

ذكر الزّنا عند يحيى بن خالد بن برمك فقال: الزّنا يجمع الخصال كلّها من الشّر. لا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاءً بعهد، ولا محافظةً على صديق؛ الغدر شعبةٌ من شعبه، والخيانة فنٌّ من فنونه، وقلة المروءة عيبٌ من عيوبه، وسفك الدّم حرام جنائياً من جنائياته.

الملك زائلٌ وما تدين تدان

وحكى ابن الأعرابي قال: كان الحارث بن أبي شمر الغساني إذا أعجبت امرأة ووصفت له، بعث إليها واغتصبها نفسها، فاتاه أبوها فقال له:

ليلاً وصباحاً كيف يختلفان
ليلاً وهل لك بالمليك يدان
واعلم بأنك ما تدين تدان

يا أيها الملك المخوف أما ترى
هل تستطيع الشمس أن تأتي بها
فاعلم وأيقن أن ملكك زائل

كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر

وعن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: كان في بني إسرائيل راهبٌ عبد الله زماناً من الدهر، حتى كان يؤتى بالمجانين يعوذهم فيبرؤون على يديه. وأنه أتى بامرأة من أشراف قومها قد جنت وكان لها أخوة، فأتوه بها، فلم يزل الشيطان يزيّن له حتى وقع عليها، فحملت، فلما استبان حملها، لم يزل الشيطان يخوفه ويزيّن له قتلها ودفنها، فقتلها ودفنها.

وذهب الشيطان في صورة رجلٍ حتى أتى بعض أخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقيّة أخوتها رجلاً رجلاً فجعل الرجل يلقي أخاه فيقول له: والله لقد أتاني أنت فذكر لي شيئاً كبيراً علينا. فأخبر بعضهم بعضاً بما قيل لهم، فأتوا إلى الراهب فقالوا: ما فعلت أختنا؟ قال: خرجت، ولست أدري أين ذهبت. فرفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار إليه الناس حتى استنزلوه من صومعته، فأقرّ لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب على خشبة، وتمثّل له الشيطان فقال له: أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأخلصك؟ قال: نعم. قال: تسجد لي سجدة واحدة فسجد له الرجل، ثم قتل. فهذا داخلٌ تحت قول الله عزّ وجل: " كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ". ولم تنزل أشراف العرب في الجاهليّة يتجنّبون الزنا ويذمّونه، وينهون عنه.

الزنا يورث الفقر

وروى هشام بن عروة عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قالت: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهليّة وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش إياكم والزنا، فإنّه يورث الفقر.

إياكم وفضيحة النساء

وفي وصية دريد بن الصّمة: إياكم وفضيحة النساء فإنّها عقوبة غديّ، وعار أبديّ، يكاد صاحبها يعاقب في حرمه بمثلها، ولا يزال لازماً ما عاش له عارها.

راودته فامتنع فسّمته

وحكي بعضهم قال: وفد عبد المطلب بن هاشم على بعض ملوك حمير فألطف منزلته وأكرمه. وكان تاماً جميلاً، فقال له الملك: يا أبا الحارث، أحبّ أن ينادمني ابنك. فأذن له أبوه في ذلك. وكان الحميري أجمل ملوك حمير، وكانت زوجته أجمل منه. فكان إذا شرب مع الحارث خرجت زوجته فجلست معهما تسقيهما، فعشقت الحارث زوجة الملك، فكلفت به، فراسلته، فأعلمها أنه محصن عن الزنا ولا يخون نديمه. فألحّت عليه فكتب إليها:

عف منادمتي عفيف المنزر
غمرؤا فطفن البيت عند المشعر
أربي بنفسي أن يعيّر معشري

لا تطعمي فيما رأيت فإنني
أسعى لأدرك مجد قوم سادة
فافني خيالاً واعلمي أنني امرء

ثمّ إنّه أخبر أباه، فصوّب رأيه وقال له: يا بني إنّ لنساء الملوك طفاحاً. فلما رأته قد عزفت نفسه عنها قالت: والله لا أدعه تتمتع به امرأة أبداً. فدست إليه شربة فشربها وارتحل مع أبيه، فلما قدم مكة مات فجزع عليه عبد المطلب جزعاً شديداً وقال يرثيه:

بيبطن مكة تعفوه الأعاصير
فما لقلبي عن ذكراك تغيير

سقى الإله صدى واريته بيدي
يا حارث الخير قد أورتني شجناً

راودته فامتنع فسمه والدها

ولما قتلت بنو أسد بن خزيمة حجر بن الحارث أبا امرئ القيس دار في أحياء العرب فلم ير منهم ما يحب، فمضى حتى قدم على هرقل ملك الروم، فأقام عنده شهراً فأكرمه وندمه، وأعجبه كماله وعقله. ثمبعث معه ستمائة من أبناء الملوك ومن تبعهم. ونظرت إليه ابنة الملك فعشقتة وأرسلت إليه أن يلقاها قبل خروجه، فجعل يعتذر لها ويعللها ولا يرضى أن يخون أباهاً فيها مع ما فعله معه. وخرج منصرفاً إلى بلده فقالت بنت هرقل لأبيها: ما صنعت بنفسك وجهت أبناء ملوك الروم مع ابن ملك العرب؟ لو قد استمكن مما أراد غزاك ونزع ملكك. فوجه إليه الملك بخلعة منسوجة بالذهب مسمومة فلما لبسها تنفط جلده، وتساقط لحمه، فنظر إلى جبل فسأل عنه، فقيل له: اسمه عسيب. فقال:

أجارتنا إن المزار قريب
وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

وقيل إنه قال هذا لأنه رأى قبراً عند هذا الجبل فسأل عنه فأخبر أنه قبر امرأة من بنات ملوك الروم. فمات هناك.

أفضل الثلاثة: العفيف الجواد

ومما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن طفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب. أن بسطاماً كان فارساً عفيفاً جواداً؛ وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً؛ وكان عامر فارساً جواداً عاهراً. فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة فبذلك فضلها بسطام.

ساد بعفافه

قال الشعبي تنافر عامر بن الطفيل بن ملك بن جعفر وعلقمة بن علاثة بن الأحوص إلى هرم بن قطبة بن سنان الدبباني حكيم العرب فقال لعلقمة: بأي شيء أنت أسود من عامر؟ قال: أنا بصير، وهو أعور، وأنا أبو عشرة وهو عقيم، وأنا عفيف وهو عاهر.

العوام أكثر الناس عذراً

وإنما أطلقت العرب حديث الرجال إلى النساء لما كانوا يرون من النقص في الرّيب، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران، وما يعرف بعضهم من بعض من استعمال الوفاء، والتحرّز من العار. لأنّ الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة من حرمه. لا يرى أحد منهم لنفسه رخصة في إضاعة ذلك، وإنما يتحمّل الغدر، ويرخص نفسه فيه، من باين البوادي، وخالط الحضرة، لأنه رأى أجناس العبيد، وأخلط العوام، وقد نشأوا على عادة فجرروا عليها ولن يستوي من كرم طبعه وصحت بنيته وترك الفواحش وجانبها تنزهاً عنها ولأنها محظورة عليه وغير مباحة له. وأحب شيء إلى الإنسان ما منع عنه. فترك الأول طبع، وترك هذا تكلف. وأما العوام وأخلط الناس فلا يكادون يتورعون عن محرّم، ولا يستحيون من عار، وهم أكثر العالم عذراً.

شهادة المسح ع

قال المسيح عليه السلام: لا يزني طرفك بما غضضت بصرك.

أحبها بنظرته

ونظر أشعث إلى ابنه يوماً وهو يديم النظر إلى امرأته فقال له يا بني أظنّ نظرك إليها قد أحبها. أخذ هذا بعض الشعراء فقال:

بنظرة أنتى لقد حبلت منى

ولي نظرة لو كان يحبل ناظر

رشقوها بأبصارهم فعنفتهم

مرّت امرأةٌ بقوم من بني نمير فرشقوها بأبصارهم وأداموا النَّظْرَ إليها، فقالت: قَبَّحَكُمُ اللهُ يا بني نمير، فوالله ما أخذتم بقول الله تبارك وتعالى: " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم" ولا بقول الشاعر:

فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فغضَّ الطرف إنك من نمير

فخجل القوم ممّا قالت وأطرقوا.

أربع لا يشبعن من أربع

وكان يقال: أربع لا يشبعن من أربع: عينٌ من نظر، وأذنٌ من خبر وأرضٌ من مطر، وأندى من ذكر.

يخاف عينيها

قال إسحاق بن بهيل: رأيت رجلاً في طريق مكة وعديله في المحمل وجارية قد شدَّ عينيها وكشف سائر وجهها فقلت له في ذلك، فقال: إنما أخاف عينيها لا عيون النَّاسِ.

حلقت شعرها لأته رآه خصي

وكان عند بعض القرشيين امرأةٌ عربيَّةٌ فدخل عليها خصي لزوجها وهي واضعةٌ خمارها تمشط شعرها، فحلقت شعرها، وقالت: لا يصحبنى شعرٌ نظر إليه غير ذي محرّمٍ منى.

الزنا ليس فقط بإجهاد النفس

وقال رجلٌ لأعرابي: ما الزنا عندكم؟ قال: النَّظْرَةُ، والقبلة. قيل له: ليس هذا الزنا عندنا! قال: وما هو؟ قال: أن يجلس بين شعبها الأربع ثمَّ يجهد نفسه. قال: بأبي أنت، ليس هذا زانياً هذا طالب ولد!

ليلة الدير وما ليلة الدير؟

قيل لأبي الطّمحان القيني: أخبرنا عن أقيح ذنوبك؟ قال: ليلة الدير. قيل: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت على نصرانيَّةٍ فأكلت طفشلاً بلحم خنزير، وشربت من خمرها، وزنيت بها، وسرقت كساءها، ومضيت.

لو تمرّست به ما استعصمت

وقال الجاحظ: قرأ قارىء: قالت فذلكنّ الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم. فقال إبراهيم بن عزوان: لا والله ما سمعت بأعدل من هذه الفاسقة، أمّا والله لو تمرّست بي ما استعصمت.

منعه ثلاثة عندها

بات أعرابيٌّ ضيفاً لبعض الحضر فرأى امرأته، فهمّ أن يأتي إليها في الليل فمنعه الكلب؛ ثمَّ أراد ذلك مرّةً أخرى، فمنعه ضوء القمر؛ ثمَّ أرادت ذلك في السحر، فإذا عجوزٌ قائمةٌ تصلّي. فلمّا رأى ذلك قال:

غير العجوز وغير الكلب والقمر

وهذه سبعة قوامه السحر

لم يخلق الله شيئاً كنت أبغضه

هذا يبوح، وهذا يستصاء به،

عيدان القيان أجمل

وصف أعرابيُّ رجلاً ماجناً فقال: والله لو أبصرته عيدان القيان لتحركت أوتارها، ولو رأته مومسةً لطار خمارها.

بغت ثلاث مرّاتٍ

وحكى خريدة بن أسماء، قال: حججنا، ونحن في رفقةٍ، إذ نزلنا منزلاً ومعنا امرأةٌ نامت ثمّ انتبهت وحيّةٌ على عنقها لا تضرّها بشيءٍ، فلم يجترىء أحدٌ منّا أن ينحيها عنها، فلم تزل كذلك حتّى أبصرت الحرم فانسابت ومضت عنها، فحمدنا الله ودخلنا مكةً فقصينا نسكنا، ورأى الغريض المغني المرأة وقد سمع الحديث وما تحاكاها الناس عنها فقال لها: يا شقيّة ما فعلت حيّتك؟ قالت: في النار. قال: ستعلمين في النار. قال فضحكت المرأة ولم تفهم ما أراد وارتحلنا منصرفين حتّى إذا كنّا بالموضع الذي حين نزلناه جاءت الحيّة حيث انسابت وتطوّقت عليها، فلمّا تألمت المرأة عرفتها، ثمّ صفّرت الحيّة، فإذا الوادي يسلم علينا من جنباته حيّاتٍ، فنهشتها حتّى بقيت عظاماً ونحن نرى ذلك. ثمّ انصرفنا جميعاً فقلنا للجارية التي معها: ويحك خبّرنا بخبر هذه المرأة، فقد والله رأينا منها عجباً؟ قالت: نعم بغت ثلاث مرّاتٍ، تلد في كلّ مرّةٍ غلاماً، فإذا وضعته حمت تتوراً ورمته فيه وتكتم خبره. قال: فقلت سبحان الله ما أعجب هذا. وذكرت قول الغريض لها ستعلمين من في النار، فزادنا ذلك تعجباً منها.

على غير ذنبٍ جناه

قال أحمد بن يحيى: كان مرثد، عمّ عمرو بن قميئة الشاعر، عنده امرأةٌ جميلةٌ، وكان قد كبر، وكان يجمع بني أخيه وبني عمّه في منزله للغداء كلّ يوم. وكان عمرو بن قميئة شاباً جميلاً، وكانت أصبع رجله الوسطى والتي تليها مفترقتين. فخرج مرثد يرمي بالقدّاح، فأرسلت امرأته إلى عمرو بن قميئة: ابن عمّك يدعوك. فجاءت به من دبر البيوت، فلمّا دخل عليها لم يجد عمّه فأنكر أمرها، فراودته عن نفسها، فقال لها: لقد جئت بأمر عظيم، وما كان مثلي يدعى لمثل هذا! قالت: لتفعلنّ ما أقول لك أو لأسواتك. قال: إلى المساء دعوتني! ثمّ أتته قام فخرج. وأمّرت بجفنةٍ فكبّت على إثر رجله فلمّا رجع مرثد وجدها متغضبّةً فقال لها: ما لك؟ قالت: إنّ رجلاً من قومك قريب القرابة جاء يستامني نفسي ويريد فراشك منذ خرجت. قال: ومن هو؟ قالت: أمّا أنا فلا أسميه، ولكن قم فاقتف أثره تحت الجفنة. فلمّا رأى الأثر عرفه فأعرض عنه وجفاه، ولم يزد على ذلك، وكان أعجب الخلق إليه. وعرف ابن قميئة ذلك وكره أن يخبره فقال:

لعمرك ما نفسي بجذّ رشيدةٍ	تؤامرني شراً لأصرم مرثدا
عظيمٍ رماه القدر لا متعبسٍ	ولا مؤيس منها إذا هو أحمدا
فقد ظهرت منه بوائق جمّة	وأفرغ في لومي مراراً وأصعدا
على غير ذنبٍ أن أكون جنّيته	سوى قول باغ جاهد فتهجدا

وبلغت الأبيات مرثداً فكشف عن الأمر حتّى تبين له، فطلق امرأته وعاد على ما كان عليه لابن أخيه.

الله يعلم شأن ذاك الجار

وذكر هشام بن محمّد الكلبي، عن الحصين بن لبيد قال: كان الحطيئة نازلاً في بني المسند من بني ضبّة فرأى لينة بنت قرطبة أخت العلاء، وكانت فاسدةً، فأعجبته فكلمها فأجابته، فوقع عليها، فحملت منه. ثمّ ارتحل الحطيئة، فلمّا بان حملها، زوّجها العلاء بن غالب بن صعصعة فولدت الفرزدق على فراشه فنسب إليه. ففي ذلك يقول جرير بن الخطفي.

كان الحطيئة جار أمك مرّة	والله يعلم شأن ذاك الجار
لا تفخرنّ بغالبٍ ومحمّدٍ	وافخر بعبس يوم كلّ فخار

اختبره ونفاه

قال: وقدم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فأكرمه وأحسن ضيافته. فبلغه أنه زان أن يختبر ذلك، فقال لجارية له: انطقي إلى الفرزدق، وعمر في حجرة له ينظر ما يصنع الفرزدق، فأنته الجارية بال غسل والدّهن، وذهبت لتغسل رأسه، فوثب عليها فركضته وقالت: لعنك الله من شيخ. ثم خرجت فأنت عمر فأخبرته فنفاه من المدينة. وقال جرير:

نفاك الأعرّ بن عبد العزيز وحقك تنفي من المسجد

فقال الفرزدق:

فأوعني وأجني ثلاثاً كما وعدت بمهلكها ثمود

ودخا الفرزدق يوماً على سليمان بن عبد الملك، وهو خليفة، فقال: أنشدني يا أبا فراس! فأنشده قصيدته حتى بلغ إلى قوله:

خرجن إليّ لم يطمئن قبلي فملن أصحّ من بيض النعام
فبتن بجانبى مصرعاتٍ وبت أفض أغلاق الختام

قال ما لم يفعل

فقال له سليمان: ما أظنك يا أبا فراس إلا قد أحللت نفسك، أقررت عندي بالزنا، وأنا إمام، ولا بدّ من إقامة الحدّ عليك. فقال: يا أمير المؤمنين، ما أحللت نفسي إن كنت تأخذ بقول الله وتعمل به. قال سليمان: فيقول الله تأخذ عليك الحد. قال الفرزدق: فإنّ الله يقول: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كلّ وادٍ يهيمون، وإنهم يقولون ما لا يفعلون". وأنا، يا أمير المؤمنين، قلت ما لم أفعل. فتبسّم سليمان، وقال: تلافيتها يا أبا فراس، ودرأت الحدّ عن نفسك. وخلص عليه، وأمر له بجائزة.

طلب غنيمة فوجد أيراً

قال أبو عبيدة: هوى أبو العباس الأعمى امرأة ذات بعلٍ فراسلها فأعلمت زوجها، فقال لها: أطمعيه. فأطمعته، ثمّ قال: أرسلني إليه فليأتك. فأرسلت إليه، فأتاها، وجلس زوجها إلى جانبها، فقال لها أبو العباس: إنك وصفت لنا فآلمسينا. فأخذت يده فجعلتها على أير زوجها وقد أنعط، فنثر يده وعلم أنه قد كيد، فخرج من عندها وقال:

أتيتك زائراً فوضعت كفي على أير أشدّ من الحديد
عليّ أليّة ما دمت حيّاً أمسك طائعاً ألا أعود
فخيرٌ منك من لا خير فيه وخيرٌ من زيارتكم قعودي

طيبة عليه حراماً

وكان بشّار الأعمى يرتع، فبلغ امرأته ذلك، فعاتبته مراراً فحلف لها. وإنها سألت عن المكان الذي يمضي إليه فدلت على امرأة تجمع بين النساء وبين الرجال، فبذلت لها شيئاً وسألته إذا جاءها بشّار أن تبعث إليها. ففعلت، وقالت: أبشّار قد وقعت اليوم امرأة من أجمل النساء ووصفتها له فطرب إليها، فلمّا خلا بها وخالطها ضربت ببديها في لحيته وشمتمته، وقالت: أين إيمانك الفاجرة؟ فقال لها: لعنك الله ألا تركتني حتى أقضي حاجتي، فوالله ما رأيت أبرد منك حلالاً، ولا أطيب منك حراماً! !

زوجة الرّشيد ومخارق

قال إسحاق بن إبراهيم: كان مخارق يهوى البهار جارية أمّ جعفر وشغف بها حتّى أفضى غايته في حبّها. فبينما هو منصرفٌ ذات ليلةٍ من دار المأمون في دجلة، وقد عمل الشّراب فيه، وأمّ جعفر جالسةٌ في دارها على دجلة إذ رفع عقيرته يغنّي شعر عبّاس بن الأحنف:

إن يمنعوني ممري قرب داركم، فسوف أنظر من بعدٍ إلى الدّار.
ما ضرّ جيرانكم، والله يكلؤهم، لولا شقائي إقبالي وإدباري
لا يقدرون على منعي، وإن جهدوا إذا مررت، وتسليمي بإجهاري.

فسمعت أمّ جعفر صوته فأمرت خدامها فصاحوا بملاحةٍ فقدم وصعد إليها، فدعت له بكرسيٍّ وصينيّةٍ فيها نبيذٌ فشرّب، وخلعت عليه وقالت لجواربها: أضرين معه. فكان أول ما تغنّى به:

أغيب عنك بوذّ لا يغيره نأى المحلّ ولا صرفٌ من الزّمن
فإن أعشّ فلعلّ الدهر يجمعنا وإن أمت فبطول الشّوق والحرن
قد حسّن في عيني ما صنعت حتّى أرى حسناً ما ليس بالحسن

قال، فاندفعت البهار تباريه في الصّوت وتغنّى:

تعتلّ بالشّغل عنّا لا تكلمنا والشّغل للقلب ليس الشّغل للبدن

فضحكت أمّ جعفر، وقالت، ما رأيت ولا سمعت قط بأحسن من هذا. ووهبت له الجارية فأخذها وانصرف.

أخذ الجارية والعتيده والذنانير

قال إبراهيم بن الخطيب: حدّثني مخارق قال: كنت عند الرّشيد فلما أراد الانصراف قال لي: يا مخارق بگرّ عليّ. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين. فلما أصبحت بگرّت أريد ما ذكره، فإذا جارية راقية وهي أحسن النّاس عينين في النّقاب، فنظرت إليها، ونظرت إليّ، فلم أملك نفسي وتعشّقتها وتبعّتها حتّى دخلت منزل المعبدي الهاشمي، فقلت لغلماني: إذا كان المغرب فصيروا إليّ، فإذا كنت في الدّنيا خرجت إليكم، وإذا كنت متّ فقد قضيت وطراً. قال: واقتحمت ودخلت الدّار، فإذا جماعةٌ مجتمعون وقد أحضروا طعاماً فأكلت معهم، وأحضر الشّراب، وغنّت الجارية فإذا هي أحذق النّاس وأطيبهم، فغنّيت، فقال المعبدي: ما أحسنه وأبهاه، فمن هو؟ فقال له القوم: ما نعرفه. فقال: ما أظرف هذا يدخل منزلي بغير أمرٍ أبغوا إليّ صاحب الشّروط. وكلّ ذلك بمسمعي، قالت الجارية: يا مولاي لا تفعل، لعلّ له عذراً. فبجياتي هب لي جرمه فقد رحمته، وأحسب أنّ هذه صناعته. قال: فطابت نفسي فلما خرجت قال لي: يا فتى تغنّي؟ فقلت: نعم. فغنّيت، فطرب القوم وقال المعبدي: إن كان في الدّنيا مخارق فأنت هو! قلت: نعم أنا مخارق وحدّثته حديثي والسّبب في دخول منزله، فسرّ وفرح ودعا بدواةٍ وقرطاسٍ وأقبل يكتب ويعود إليه الجواب، ثمّ وزن مالاً ووجّه به.

فلما كان بالعشيّ قال: يا غلام هات تلك العتيده. فأحضر عتيدهً مملوءةً طيباً، وقال: هات ذلك التّخت. فأحضره إيّاه، فقال: أتدري ما نحن فيه: قلت: لا. قال: قد اشتريت لك الجارية بأربعين ألف دينار، وهذه عتيدهٌ فيها طيب، وتخت ثياب. فأخذت بيدها وانصرفت بها عروساً، فلما أصبحت بگرّت على الرّشيد فقال لي: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ فحدّثته الحديث فسرّ به، وقال: ما توهمت أنّ في أهلي مثل هذا. وأمر من ساعته أن يحمل إليه أربعون ألف دينار.

أخذ الجارية لشعره وأدبه

وكان ليوسف بن القاسم، وهو أبو أحمد بن يوسف، وزير المأمون، غلامٌ أسودٌ متأدّبٌ نشأ في الأعراب فهوى جاريةً لرجل قرشيٍّ، فشكاه القرشيّ لمولاه، فضربه وحبس، وحلف أن لا يطلقه إلاّ بعد شفاعة من شكاه، فقيل له: ويحك أتحبّك كما تحبّها؟ فقال:

تجلد أحياناً وما بي من تجلّد
جنوني عليها حين أنهى وأوعد

كلانا سواءً في الهوى غير أنّها
تخاف وعيد الكاشحين وإنّما

فبلغ مولاه شعره فقال: وإنّ فيه لهذا الفضل! فركب من وقته إلى القرشيّ فقال له: أسألك أن تبيعني هذه الجارية بأيّ ثمن شئت. فقال: ما أفعل حتّى أعرف السبب في ذلك. فعرفه الخبر وأنشده البيتين، فقال: أشهدك إنّي قد وهبت له الجارية، وأنا أعطي الله عهداً أن أخذت لها ثمناً أبداً، لشفاعتك وأدب الغلام. ووجه الجارية معه فدفعها إلى الغلام.

المتوكّل يعيش همّ المحيّين

قالوا كان المتوكّل جالساً يوماً في القصر الذي يقال له المختار إذ مرّ خادمٌ أسودٌ لفتيحة مبادراً يريد الدخول إلى دار النساء، فسقط منه كتابٌ مختومٌ، فأمر من جاءه بالكتاب وفتحه فإذا فيه مكتوبٌ:

أكثرني المحو في الكتاب
وأمرّي الختام فوق ثنايا
إنني كلّما مررت بحرفٍ
فأراها تقبيلة من بعدي
ومحّه بريق اللسان لا بالبنان
ك العذاب المفلجات الحسان
فيه محوٌ لطعته بلساني
أهديت لي وما برحت مكاني

فقال: يا فتح ما ترى؟ قلد اجترأ لي من كتب هذا الشعر! عليّ بالخدم. فأتي به، وقد علم الخادم إنّ الكتاب سقط منه فطار عقله خوفاً ورعباً، فقال له: من دفع هذا الكتاب إليك وأنت آمن؟ فإن صدقت نجوت، وإن لم تصدق ضربت عنقك. قال: يا مولاي إنّ لمولاتي فتيحة وكيلاً يتصرّف في أمرها من أبناء البرامكة وهو يحبّ جاريته نسيماً الكاتبة، وأنا أسعى بينهما بالكتب التي يتكاتبان بها. فقال له: امض بلا خوف عليك. ثمّ قام المتوكّل فدخل على فتيحة وقال لها خذي في أمر جاريته نسيماً الكاتبة فأبّيتي قد زوجتها من فلان وكيلاً وأنقذت عنه عشرة آلاف درهم. وأمر بإحضار الوكيل فقال له: هل لك في نسيماً؟ فذهب عقله، وطار قلبه، وخاف خوفاً شديداً، فقال له: تكلم وأنت آمن، فقد زوجتك بها، ومهرتها عشرة آلاف درهم وأمرت لا بعشرة آلاف تولم بها. وسأل فتيحة تعجيل زفافها إليه ففعلت.

خدعها القواد

وحكى الهيثم بن عدي، عن ابن عباس، قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان، وكان يجد بها ويحبّها حبّاً شديداً، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكلّ أمر، فأبّت حتّى أضرب به ذلك وشكا إلى خاصّته. فقال له عمر بن الأسدي: ما لي إن أرضيتها؟ قال له: حكمك. قال، فخرج فاتأها وجلس بين يديها يبكي. فقال له حاضنتها: ما لك يا أبا حفص؟ قال: لقد جئت إلى بنت عمّي في أمر مهمّ عظيم، فاستأذني لعلّها تقضي حاجتي. فقالت: ما بالك؟ فقال لها: قد عرفت حالي مع أمير المؤمنين عبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين، فتعدّى أحدهما على الآخر فقتله. فقلت: أنا وليّ الدّم وقد عفوت. فقال أمير المؤمنين: ما أحبّ أن أعود رعيّتي هذا. وهو قتله بالعداء فنشدتك الله ألا كلمته فيه، وسألته في إبقائه لي، فأبّتك تجمعين في ذلك إحياءه وإحياء نفسي. فأبّه إن قتله قتلت نفسي. فقالت: ما أكلّمه. فقال لها: ما أظنّك تكسبين شيئاً أحبّ من إحياء نفسين. . . وبكى بكاءً شديداً: فلم يزل بها صواحبتها وخدمها وحاشيتها حتّى قالت: عليّ بثيابي. فلبست، وكان بينها وبينه بابٌ قد ردمته. فأمرت بفتحه ثمّ دخلت. فأقبل أحد الغلمان فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة. قال: ويلك رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. وإذا هي قد أقبلت وعبد الملك على سريرته. فسلمت، فسكت، فقالت: أمّا والله لو لا مكان عمر ابن بلال ما فعلت، ولا أتيتك والله. إن عدا أحد بنيي على الآخر فقتله، وهو الوليّ وقد عفا عنه، لتقتله؟ قال: أي والله، وهو راغمٌ. قالت: أنشدك الله أن لا تفعل. فدنت فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت أرجله فقَبَلتها، فأكبّ عليها وضّمها إلى نفسه ورفعها إلى سريرته، وقال: قد عفوت عنه. فتراضيا.

وراح عبد الملك فجلس مجلس الخاصّة، فدخل عمر بن بلال، فقال: يا أبا حفص أظفت الحيلة في القيادة فلك حكمك! فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الرقيق والآلة. قال: هي لك. قال: ومرابض لولدي وأهل بيتي. قال: وذلك كلّك. . . وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القواد خدعني.

حسب الاتفاق بعد حين

ويروى أنّ معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، رأى، كاتباً له يكلم جاريةً لامرأته فاخته بنت قريظة، في بعض طرق داره، فقال له: أتحبها؟ قال: أي والله، يا أمير المؤمنين. قال: أخطبها من فاخته. فخطبها. وكلم معاوية فاخته فأجابته، فزوجها منه، فدخل معاوية وبين يديه عتيبة من العطر لعرس جارتها، فقال: هوني عليك يا بنت قريظة، إني أحسب الاتفاق كان بعد حين.

يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام

قال عمر بن شبة: كان الأحنف بن قيس يوماً جالساً مع معاوية، إذ مرّت بهما وصيفة فدخلت بيتاً من البيوت، فقال معاوية: يا أبا بحر، أنا والله أحب هذه الجارية وقد أمكنتني منها لولا الحياء من مكانك. فقال الأحنف: فأنا أقوم. بل تجلس لئلا تستريب بنا فاطمة. فقال الأحنف: شأنك. فقام معاوية إليها. فبينما هو يماجنها إذ خرجت بنت قريظة فقالت للأحنف: يا قواد، أين الفاسق. فأوماً الأحنف إلى البيت الذي هو فيه، فأخرجته ولحيته في يدها، فقال لها الأحنف: أرفقي بأسيرك، رحمك الله. فقالت: يا قواد، وتتكلم أيضاً؟ فقال معاوية: يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام.

ثقبها ثقب اللؤلؤ

قال ابن شبة: كانت بالمدينة امرأة يقال لها صهباء، من أحسن الناس: وكانت من هذيل. وكانت رتقاء. فنزّوجها ابن عم لها. فمكث حيناً لا يقدر عليها لشدة ارتقاها، فأبغضته بغضاً شديداً، فطلبت منه الطلاق فطلقها. ثم إنه أصاب أهل المدينة مطراً شديداً، في الخريف، وسيلٌ عظيم. فخرج أهل المدينة، وخرجت صهباء مع أهلها، وخرج ابن جحش وأصحاب له للنزهة. فلما انتصف النهار وخلا الوادي، خرجت صهباء واستنقعت في السيل، وخرج ابن جحش ولم تشعر به صهباء، فرأها وأحبها وتهالك عليها.

وكان بالمدينة دلالة على النساء يقال لها قطبة. وكانت تداخل القرشيين بنسائهم: فلقيها ابن جحش فسألها عن صهباء فقال: اخطبها عليّ. قالت: قد خطبها عيسى بن طلحة بن عبيد الله، وأنعم له بها أهلها ولا أراهم يتخطون عيسى إليك. فشتمها ابن جحش وقال: كل مملوك لي حرّ لوجه الله إن تحتالي فيها حتى أتزوجها، لأضربك ضربة بالسيف. وكان مقداماً جسوراً. ففزعته منه فدخلت على صهباء وأهلها، فتحدثت معهم، ثم ذكرت ابن عمها، فقال لعمّة صهباء: ما باله فارقه؟ فأخبرتها خبره فأصغت إلى عمّتها فقالت لها، وأسمعت صهباء: أمّا والله لو كان ابن جحش لنقبها ثقب اللؤلؤة. ثم خرجت من عندهم.

فأرسلت إليها صهباء أن مري ابن جحش فليخطبني. فلقيت قطبة ابن جحش فأخبرته الخبر. فخطبها، فأنعمت له، وأبى أهلها إلا عيسى بن طلحة. وأنت صهباء إلى ابن جحش فنزّوجها وأقتضها من ساعته. وفيها يقول:

دار الصّهباء الذي لا ينتهي	عن ذكرها أبداً ولا ينهاها
صفراء يطوبها الضّجيع لطافة	طيّ الجمانة لئناً مثناها
نعم الضّجيع إذا النّجوم تغوّرت	بالقرب أراها على أولها.

ألقوا النساء بأقفاهنّ

قالوا: كان رجلٌ من تجار أهل المدينة من ذوي النعمة، في ليلة من شهر رمضان، في المسجد يصلي إذ عرض له في منزله بعض الأمر. فانصرف من التّراويح فأصاب بابه مفتوحاً، وإذا رجلٌ مع ابنته في محلها يحدثها. فأخذ بيده وذهب به إلى منزل ابن أبي عتيق. فدق عليه، فأشرف عليه، فقال: أردت أن أكلمك، جعلت فداك. قال، فأنحدر إليه فقال له: إن هذا الفتى وجدته في منزلي على حال كذا. فسألته فزعم أنه ابنك. فأقبل ابن عتيق فأخذ بيد التاجر فشكره وجزاه خيراً، وقال: لن يعود إلى شيء تكرهه أبداً إن شاء الله. فأخذ الفتى ولكزه وشتمه. فلما ولّى الرجل قال للفتى: من أنت ويحك؟ قال: أنا ابن فلان التاجر وابتليت بآبنة هذا التاجر فدخلت عليها هذه الليلة أتحدث عندها. فما راعني إلا أنه واقفٌ على رأسي. فلم أجد ملجأ إلا أن اعتريت إليك، لما علمت من قدرك وشرfk وكرمك. قال: أخبرني عن الجارية، أتحبك؟ قال: نعم. قال: فهل يمكنك أن تأتي بها إلى منزلي هذا؟ قال: نعم. قال: فعدّها وأت بها. وأمر غلاماً له، وقال: إذا جاءت المرأة التي يأتيك بها هذا الفتى فأدخلها،

واجلس أنت مع الفتى، وأرسل إليّ من يعلمني. ففعل الفتى، وأتى بالجارية إلى المكان. وأرسل إلى ابن أبي عتيق فعرّفه. فأرسل إلى أبي الجارية: إنك اصطنعت إلى فتانا يداً، وقد أحببنا أن نصنع إليك مثل ذلك في فتاتكم. فأدخله عليها، فلما رآها استرجع، فقال له ابن أبي عتيق: ما هذا؟ أهون عليك هذا الأمر وأقبل وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين قال: "ألحقوا النساء بأكفائهن". إن هذا الفتى ليس والله بولدي، ولكن هو قد انتسب إليّ لما أدرك من النجاة منك، وهو فلان ابن فلان التاجر، وهو من نظرائها وأكفائها. فهل لك أن تزوجه إياها وأصدقها عنه من مالي مائة دينار. قال: نعم.

ولم يبرحوا حتى زوجهها منه وأصدقها وأخرج المهر من عنده، وسأله التّعجيل بزفافها إليه.

أحييت نفسي بقتل نفسك

وحكي عن ابن أبي ورقاء الجبلي قال: خرجت من الكوفة أريد بغداد. فلما صرت بأول مرحلة نزل غلماننا ففرشوا بسطهم، وهياؤا عداهم، ونزلت. ولم يجر أحدٌ بعد. فرمانا الطريق برجلٍ حسن الهيئة، فاره البردون فصمت بالعلمان. فأخذوا دابته. ودعوت بالغداء فيسط يده غير محتشم. وجعلت لا أكرمه بشيء إلا قبله. وكنا كذلك ساعة، إذ جاء غلمانه. ثم تناسبنا فقال الرجل: أنا طريح بن إسماعيل التقي. فلما ارتحلنا كنا كذلك في قافلة لا تترك طرفها. فقال لي طريح: ما حاجتنا إلى زحمة الناس، وليست بنا إليهم وحشة ولا مخافة. فتأخر بنا بعد القوم. فنزلنا إلى جانب نهرٍ مظلٍ بالشجر فتغدينا ثم قمنا إلى النهر نستنقع فيه. فلما نزع ثيابه إذ أثار داهية في جنبه بلج فيها الكف، فوقع في نفسي منه شيء، فنظر إليّ وفطن وتبسّم، وقال لي: قد رأيت عجباً منك لما رأيت ما بي وأنا أحدثك حديثه إذا سرنا العشيّة.

فلَمَ ركبنا قلت له: الحديث؟ قال: نعم، قدمت من عند الوليد بن يزيد بالدنيا وما فيها، وركبت إلى يوسف بن عمر، مع قرابتي منه، فمأى يدي. فخرجت من عنده إلى الطائف. فلما اشتد بي الطريق، وليس يصحبي فيه خلق، عن لي أعرابي على قعودٍ له، وهو حسن الحديث قد روى الشعر، وأنشدني لنفسه. فقلت له: من أين أقبلت؟ قال: لا أدري والله. قلت: فإلى أين يممت؟ قال: لا أدري والله. قال، فقلت: ما قصتك؟ فقال: أنا عاشقٌ تجارية من قومي، قد أفسدت عيشتي وتلفت، فأنا أستريح بأن أنحدر في الطريق مع منحدره، وأصعد مع مصعديه. قال، فقلت له: وأين هي؟ قال: غداً تنزل بإزائها. وأخذ يحدثني بحديثه معها.

فلَمَ جئنا إلى الموضع قال لي: انزل ذلك المكان فإنها عنده منقطعة. فأدركتني أريحية الحداثة، وأخذت منه علامة ما بينهما، وقصدت حيث أشار إلي. فإذا ببيتٍ جديدٍ على الطريق، وإذا امرأةً جميلةً حديثهً ظريفةً. فذكرته لها ووريت رسالته وأمارته. فزفرت زفرةً كادت تتفتت أضلاعها، وقالت: أو حي هو؟ قلت: نعم تركته في رحلي وراء هذا الجبل ونحن بابتون ومصطحبون قالت: فإني أرى لك وجهاً يدل على الخير، فهل لك في الأجر؟ فقلت: فقيرٌ إليه. قالت: فالبس ثيابي وادخل في أريكتي ودعني حتى آتبه. فإني تحيي نفسي، وتغنم أجراً عظيماً. قلت: أفعل ما تريد. قالت: إنك إذا أصبحت أتاك زوجي في هجته فقال يا فاجرة، فأوسعك شتماً، فأوسعته صمناً ولا تجعل إنك سمعته فإن يقول في آخر كلامه: أقمعي سقاك يا عدوة. فضع المقمع في ذلك السقاء الأخر فإنه منخرق. قال: ومضت. فجاء زوجها ففعل ما قالت. وقال إقمعي سقاك فحببني الله أن تركت الصّحيح وقمعت الواهي، فما شعر إلا واللبن يتسبب بين رجليه. فعدا إلى زاوية البيت فتناول حبلاً ثم ثناه على اثنين فصار على ثمان، فجعل لا يبقى بع رأساً ولا وجهاً ولا جنباً فخشيت أن يبدو له وجهي فألزمته الأرض، فعمل بجنبي وظهري ما ترى، ومضى عني.

فلَمَ كان الصّباح جاءت فرأت ما حلّ بي من الشرّ فأكبّت عليّ وقالت: بأبي أحييت نفسي بقتل نفسك. ودخلت تعتذر وتتلّهف لما بي، وتدعو لي وتتضرّع. فأخذت ثيابي وانصرفت ولا يعدل ظفرهما عندي شيء.

طلق لبني وزوجه لقيس

قد قدمنا في أخبار قيس بن ذريح كيف كان سبب تطليقه لبني وندمه عليها ثم ساءت حاله، ولف عقله، واشتد مرضه، وأشرف على حتفه. فقال أهله: لو زوجتموها إياه لئس منها، وسلا عنها. فخطبها رجلٌ من قريش وحكم أباها في المهر. فزوجه إياها، فحملها معه إلى المدينة. فقال قيس:

بخير، فلا تندم عليها وطلق
فأنبت في رضوانها كلّ مونق

وقالوا تراها فتنة كنت قبلها
فليت، وبيت الله، أني عصيتهم

وكأفت خوض النار سبعين حجّة
 وكنت على أثباح بحر مغرّق
 كآني أرى النّاس المقيمين بعدها
 نقاعة ماء الحنظل المتغلّف
 وتكره عيني بعدها كلّ منظرٍ
 ويكره سمعي بعدها كلّ منطق.

قال: وخرج أبي عتيق يريد العمرة. فنزل بحيّ قيس بن ذريح فسألهم عنه، فقال: دلّوني عليه. فدّلوه فلمّا رآه قيس أقبل عليه ورحب به وقال: من أنت، حيّك الله وعافاك؟ قال، فانتسب له ابن عتيق وقال له: بين حديثك لي تجدني معيّنًا لك على أمرك إن شاء الله. فاستحى قيس من ذلك وامتنع ساعة، ثمّ جعل يحذّته حتّى بلغ إلى خبر القرشي. فقال: يا هذا، إنّي خرجت من منزلي أريد العمرة التماساً للثّواب. وقد عزمت، عندما سمعت، أن أترك ما خرجت إليه فارجع معك احتساباً للأجر، فبكر فامض معي أيّها الرّجل، وأكتم شأنك، ولا يعلم أحدٌ من أهلك. فحمله معه وأقبل راجعاً نحو المدينة فاستقبله أهله وإخوانه يسألونه عن سبب رجوعه. فجعل يعتذر وهو يقول لهم: عاقني عن ذلك عائقٌ. وأخفى قيساً في منزله أياماً ثمّ سأل عن منزل القرشي فدلّ عليه. فبعث مولاة له عجوزاً إلى ابني تخبرها بقيس وبما صار له من عشقها. فقالت: يعزّ عليّ، وما حيلتي له. أطاع أباه وفارقني في غير جرم. وقد صرت الآن عند غير هولا سبيل لي على نفسي. وإنّ كيدي عليه لحرّاً، وإنّ عيني لغبرا مذ فارقتّه وإنّها لما علمت بمكانه إسنّت ولهها حتّى أنكر زوجها شأنها فسألها عن خبرها وهل رأت شيئاً تنكره. فجعلت لا تجيب جواباً. وجعل يعتذر إليها، فقال لها: ما أراك إلاّ ذكرت قيساً. فقالت له: هيهات وأين أنا من قيس، وأين قيس منّي؟ أله عن هذا الحديث.

قال: وبلغت العجوز ابن أبي عتيق ما سمعت من لبني فقال لها: عودي إليها فقول لها: إن كنت على العهد فأتك ستصلين إلى ما تريدين. قالت: أي والله لا أزال على عهده مقيمة أو يفارق روعي جسدي؛ ولا أكافئه بسوء فعل كان منه إليّ.

قال: وأقبل ابن أبي عتيق ومعه جماعة من أشراف قريش وغيرهم حتّى أتوا منزل القرشي زوج لبني فأكبر مجيئهم. فقالوا: إنا جنناك في حاجة ولا سبيل إلى ردنا عنها. قال لهم: قضيت حاجتكم. قال ابن عتيق: كأنه ما كانت؟ قال له: نعم. قال فإنّ حاجتنا أن تجعل أمر لبني في يدي. قال القرشي: وهل رأيت أحداً سأل مثل هذا؟ قال: فهي حاجتنا، وقد جنّت إليها. قال: فإنّي قد فعلت. قال: فيشهدون عليك أنّ أمرها في يدي. قال: نعم. قال ابن عتيق: فأشهدوا إنّها طالقٌ ثلاثاً. قال: قد أجزت: قال: فما برحوا حتّى نقلها ابن أبي عتيق إلى منزله. فلمّا انقضت عدّتها زوجها من قيس وأصدق عنه وجّهها بأحسن جهاز، وحملها معه إلى منزله. فما لبثت عنده إلاّ يسيراً حتّى نهشته الأفعى كما قدّمنا في حديثه فماتت وماتت بعد.

هكذا رواه أحمد بن أبي طاهر. ولست أدري صحّة هذا الحديث، لأنّا كنّا قدّمنا في حديثه ما يخالف هذا من أنّه لم يتزوَّج بها ثانياً.

مكر به في امرأته

حكى الهيثم بن عدي، عن الكلبي قال: كان ملك النّعمان بن المنذر أربعين سنةً لم ير منه في ملكه سقطةً غير هذه: وذلك أنّه ركب يوماً فنظر إلى امرأةٍ خارجةٍ من الكنيسة فأعجبه جمالها وحسنها وهيئتها فقال: علي بعدي بن زيد، وكان كاتبه وخاصّته فقال له: يا عدي، قد رأيت امرأةً لئن لم أظفر بها إنبه هو الموت. فلا بدّ في أن تتلطف في الجميع بيني وبينها. قال: ومن هي؟ قال: قد سألت عنها فقيل لي امرأةٌ حكم بن عوف، رجلٌ من أشراف أهل الحيرة. قال: فهل أعلمت بذلك أحداً؟ قال: لا فإكتمه، فإذا أصبحت فجد بكلّ كرامةٍ لنزيلك، يريد حكم بن عوف.

فلما أذن للنّاس بدأ به وأكرمه وأجلسه معه على سريره. فأعجب النّاس حاله، وتحدّثوا به. فلمّا أمسى فأذن للنّاس بدأ به فأكرمه وأجلسه معه وكساه وجملته. ففعل به ذلك أياماً. ثمّ قال له عدي: أيّها الملك عندك عشر نسوةٍ فطلق أقلهنّ عنك منزلةً ثمّ قل له فليتزوّجها. ففعل. فلمّا دخل عليه قال له: يا حكم إنّي قد طلقت فلانةً لك فتزوّجها. فقال حكم لعدي: ما صنع الملك بأحد ما صنع بي ولا أدري بما أكافئه؟ فقال له عدي طلق امرأتك كما طلق امرأته. ففعل. وحظي عدي بها عند الملك: وعلم الرّجل أنّه مكر به في امرأته. وفيها يقول بعض أهل الحيرة:

ما في البريّة من أنثى تعادلها
 إلاّ التي أخذ النّعمان من حكم

رياً وعمرو وبساط النوم

وحدّث الزبير: إنّه كان فتىً من بني عذرة يقال له عمرو بن عود، وكان عاشقاً لجاريةٍ من قومه تسمّى رياً بنت الرّكين. فترّوجها رجلٌ منهم يقال له دهم. فأبّت رياً لإحباب عمرو بن عود، وأبى إلا حبّها وقول الشعر فيها، والوجد بها حتّى أتى اليمن فنزل في بني الحارث بن كعب فطلبها عمرو، فخفي عليه أمرها ولم يعلم لها خيراً ولا موضعاً. فمكث حيناً لما به، يبكي له من عرفه، لولاه وشدة ما أصابه. فخرج به أهله إلى مكّة لعلّه يتعلّق بأستار الكعبة عسى أن يرحمه ربّه ويذهب ما في قلبه من حبّها.

فلما كان بمنى نظر إليه فتىٌ من بني الحرث بن كعب فتعجّب ممّا به، وجلس يتحدّث معه، وسأله عن حاله فشكا إليه عمرو وجده بها، وأنشد ما قال فيها، فرقّ له الفتى ورحمه. وسأله عن صفتها وصفة زوجها. فوصفها له. فقال له الفتى: عندي خبر هذه المرأة وهذا الرجل منذ سنين قليلة فخرّ عمرو ساجداً ثمّ سأله عن حالها، فأخبره أنّها سالمةٌ وأنها باكيةٌ لا يهينها شيءٌ من العيش. قال عمرو: فهل لك في صنيعتي عندي؟ فقال له الفتى: إذن افعل ما بدا لك. قال: تتخلّف عن أصحابك، وتتخلّف عن أصحابي حتّى لا يكون عند أحدٍ منهم علم. ثمّ أمضى معك متنكراً حتّى تخفيني في موضعٍ؛ ثمّ تعلمها بمكاني. فقال الفتى: لك ذلك في عنقي.

فلما كان السّفر، تخلّف كلّ واحدٍ منهما عن أصحابه. فجهد أصحاب عمرو أن لا يتخلّف وأن يمضوا به فأبى عليهم فودّعوه ومضوا. ثمّ مضى حتّى وصل به الفتى فأدخله مع أخته وامرأته في سترهما. ومضى إلى رياً فأخبرها. فكانت تجيء إليه كلّ يوم فيشكوان ما كانا فيه من البلاء، ويتحدّثان. فاستراب زوجها غشيانها ذلك البيت. ولم تكن تغشاه ولا تعرف أهله، واستراب أيضاً تطبيب نفسها وأنّها ليست كما كانت.

وخرجت رفقاً له إلى حرّان فأخبرها أنّه خارجٌ معها. فخرج وأقام ليلتين مختفياً في موضع. وأقبل راجعاً في الليلة الثالثة، وقد أمناه وظناً أنّه قد خرج، فأتى عمرو إلى رياً فبسطت له بساطاً قدام البيت وتحدّثا حتّى غلبهما النّوم، وهي مضطجعةٌ إلى جانب البساط وعمرو إلى الجانب الآخر. وأقبل الرجل حتّى وجدهما على تلك الحال. فنظر في وجه عمرو، فانتبه فزاعاً. فقال له: ويلك يا عمرو، وما ينجيني منك برٌّ ولا بحرٌّ! فقال: يا ابن عمّي، ما أنا والله على ربيّة، ولا يسألني الله عن أهلك عن قبيح؛ ولكن نشأت أنا وهي وألفتها ونحن صبيان، ولست أستطيع عنها صبراً، وما بيننا أكثر من هذا الحديث الذي ترى. قال: أمّا أنا فلم أهرب إلى هذا البلد إلاّ منك.

فانصرفنا راجعين وهي معهما حتّى قدما على وطنهما، فأقاما بعده بيسير.

مواعيد بثينة وجميل

حكى سنة بن عقال، عن الشعبي قال: حدّثني رجلٌ من بني أسدٍ، قال: إنّي لذات يوم في الحيّ إذ أقبل فتىً نظيف الثّوب، حسن الوجه، حتّى وقف بي، فقال: يا فتى، هل نزا بك حيٌّ من بني عذرة؟ قال، قلت: نعم، وتيك بيوتهم. قال: وهل أحسست لي بكرةً صفتها كذا وكذا؟ قال، قلت: لا. فنزل ثمّ قال: أنت منشدها لي في أبيات الحيّ؟ قال فخرجت وأنا أنشدها حتّى مررت بالبيوت وأنا أنشد. فقالت لي جاريةٌ: عند الأكمة. فأشرفت على الأكمة فلم أر شيئاً فأخبرته، فأخرج سفره معه ودعاني فأكلنا، ثمّ نام. وجعلت أراعيه حتّى ظنّ أنّي قد نمت. فأخرج من رحله فلبسها، ثمّ اشتمل على سيفه وخرج حتّى أتى الأكمة وأنا أتبعه من حيث لا يراني. فإذا بها قاعدةٌ كأنّها مهرةٌ عربيةٌ. فسلم عليها وسلمت عليه ثمّ قال لها: يا بثينة قلت فيك كذا. ولقيت فيك كذا.

ولك يزل يحدّثها وينشدها، وتحدّثه حتّى إذا كان في السّحر وضع رأسه في حجرها فنام ساعةً. فلم يشعر إلاّ بالفجر قد برق. فقالت: قم يا جميل، لا يفضحنا الصّبح.

قال: فرجعت مبادراً حتّى رميت بنفسي في الرّحل. وجاء فأيقظني، ثمّ عمل إلى ثوبٍ من ثيابه فكسانيه، فلم يزل جميل يغشاني في كلّ نهار وليل، فأطير إلى الحيّ وأتبه فأخذ ميعاد بثينة إلى موضع يجتمعان فيه ويتحدّثان إلى أن فطن بعض الحيّ بأمرّي. فقالت لي بثينة: أتج بنفسك، فإنّ الحيّ قد شعروا بك، وقل لجميل موعدك وسكن البطن. وأتيتّه فأخبرته، فمضى وانقطع عني خبره دخل وأجبر على تركها

وروي عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنانير، وهي لمولاتها زهراء، فلما وضع المهدي

الرّشيد في حجري اشتريتها؛ فلم أسرّ بشيءٍ من الدّنيا مثل سروري بها وبملكها، فما لبثت إلّا يسيراً حتّى وجّه المهدي ابنه الرّشيد غازياً إلى بلد الرّوم، فخرجت معه، فعظم على فراقها، فأقبلت لا أتهدأ بطعان ولا شرابٍ صبايةً بها وذكراً لها. فأنا ليلةً في مضربي، وقد أصابني بردٌ شديدٌ وتلجٌ كثيرٌ، وأنا أتقلب على فراشي أذكر الجارية، إذ سمعت غناءً خفياً وصوت عودٍ بالقرب مني. فأنكرت ذلك وجلست على فراشي فأشجاني الصّوت من غير أن أفهم حتّى أبكاني. ففقت، ولم أوقظ أحداً من العسكر، حتّى انتهيت إلى خيمةٍ صغيرةٍ من خيام الجند، فإذا فيها سراجٌ، فدنوت منها، فإذا فتىٌ جالسٌ، وإذا بين يديه ركوةٌ فيها شرابٌ وفي حجره عودٌ يضرب عليه ويتغنّى بهذا الصّوت:

ألا يا لقومي أطلقوا غلّ مرتهن
 ألم ترها بيضاء، روداً شبابها
 ومثّوا على مستشعر الهمّ والحزن .
 لطيفةً طيّ البطن كالشّادن الأغن

قال: فكأما غنى بيتاً بكى وتناول قدحاً فصبّ فيه من ذلك الشراب، وشرب، ثمّ يعود إلى مثل ذلك.

قال: فأقمت طويلاً أرى ما يفعل وأبكي ليكائه، ثمّ سلّمت فردّ السّلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت، فلمّا رأيته أجلسني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبّرني بخبرك، وما أنت فيه، وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتىٌ من الأبناء، لي ابنةٌ عمّ قد نشأنا جميعاً فعلقناها وعلقنتني، ثمّ بلغنا فحجبت عني، فسألت عمّي ليزوجنيها فأجاب، فمكثت حيناً أحتال لمهرها حتّى تهياً فأديته، فدخلت بها، فلمّا أن كان يوم سابعها ضرب عليّ البعث وخرجت وبني من الشّوق إليها ما لا أجد، فحملت معي هذا العود، فإذا أصبت شراباً في بعض هذا القرى أخذت منه شيئاً، ثمّ أفعل ما ترى تذكراً إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأنكرني، فما أدري أتعمداً أم حقيقةً.

قال، فقلت له: أنا يحيى بن خالد، فلمّا قلت له ذلك نهض قائماً. فقلت: اجلس، فإذا كان غداً فألقني، فهذا مضربي بالقرب منك، فأبني أصير منك إلى ما تحب.

قال: ووافق ذلك رسولاً قد هيّأه إلى المدينة، فما كان أسرع شيءٍ حتّى دنا الصّبح وتهياً للنّاس للرّحيل، فأول من لقيني ذلك الفتى، فأنّيت وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبّرني، فمضيت حتّى دخلت على الرّشيد ومعني المؤتمرات، فكنيت أمرها على سمعةٍ من عنوان يكون له فيها، فقلت وفتىٌ من الأبناء فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهمٍ معونةً له ويصحب فلاناً الرّسول. ففعل ذلك وانصرف إلى أهله.

الرّنا بالجملة

وحكى إبراهيم بن إسحاق الموصلي، عن أبي السّائب المخزومي قال: تعشّق العرجي امرأةً من قريش فجعلني رسولاً إليها، فأتيته برسالةٍ وأخذت موعدها لزيارته إلى موضع سماه، ثمّ بكرت أنا فأتيت على أتانٍ ومعها جاريته، وجاء على حمارٍ ومعها غلامٌ. فتحدّثنا ساعةً ثمّ قمت عنهما، فوثب عليهما، ووثب الغلام على الجارية، والحمار على الأتان، وقعدت أسمع النّخير من كلّ ناحية.

قال، فقال لي العرجي: يا أبا السّائب، هذا يومٌ غابت عوانله، قال أبو السّائب: فما لي حسباً أرجو ثوابها رجائي لذلك اليوم وثوابه.

حلف ألا يجتمع بها ثانيةً

وقال: كان عمر بن أبي ربيعة يتعشّق امرأةً يقال لها أسماء، فوعده أن يزورها، فتهياً لذلك يوماً فأبطأت عليه، فنام، فلم يلبث أن جاءت ومعها جارية، فضربت الباب فلم يستيقظ، فانصرفت وحلفت أن لا تأتيه حولاً. فقال عمر قصيدته التي أولها:

طال ليلى وتعانني الطّرب
 أشهد الرّحمان لا يجمعنا
 فبعثنا طبةً عالمةً
 واعتراني طول همّ ونصب
 سقّف بيتٍ رجياً على رجب
 تخطّ الجدّ مراراً باللعب

وتراخي عند سورات الغضب
عن منيف اللون صافٍ كالثَّغْب

ترفع الصَّوت إذا لانت لها
فأجابت يا فتى وابتسمت

فلما سمع ابن أبي عتيق هذه الأبيات قال له النَّاس في طلب إمام مثل قيادتك هذه مذ قتل علي، فما يقدرون عليه. قال حماد الراوية: استنشدني الوليد بن يزيد شعراً كثيراً فما استعاني إلاَّ هذه الأبيات. وقال لي: يا حماد اطلب لي مثل هذه وأرسلها إلى سلمى.

كفى أخاه العذري ما أصابه

ويروى عن حماد قال: أتيت مكة فجلست إلى جماعة في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وإذا هم يتذكرون العذريين وعشقم وصيانتهم، قال عمر: أحدثكم عن بعض، وذلك: أنه كان لي خليل من بني عذرة، وكان مشتهراً بحديث النساء فيتشب بهن وينشد فيهن، على أنه لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة وكان يوافي الموسم في كل سنة، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار وألفت له الأشعار حتى يقدم فيتحدث حديث محزون كنيب. وإته راث ذات سنة، حتى قدم وفد عذرة، فأتيت القوم وأنا أنشد عن صاحبي وإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال: عن أبو المسهر تسل؟ قلت نعم عنه سألت قال هيهات هيهات أصبح والله أبو المسهر لا ميؤوساً فيهم ولا مرجواً فيعمل؛ لا أصبح والله كما قال الشاعر:

صحيحاً ولا أقضي به فأموت

لعمرك ما حبي لأسماء تاركي

قلت له: وما الذي به؟ قال لي: هو ميت مؤله! قلت: ومن أنت يا ابن أخي؟ قال: أنا أخوه. قلت وما يمنعك أن تركبلا طريق أخيك الذي ركبه، وتسلك مسلكه. ألا إنك وأخاك كالوشى والنَّجَار لا ترفعه ولا يرفعك. ثم انصرف وأنا أقول:

ولما يرح في القوم جعد بن مهجع
متى ما يقل أسمع، وإن قال يسمع
سألقي كما لاقيت في الحب مصرعي

أرائحة حجاج عذرة روحة
خيلان تشكو ما نلاقي من الهوى
فلا يبعثك الله خلا، فإبني

فلما كان في العام الآتي وقفت في الموضع الذي كنا نقف فيه بعرفات، فإذا شاب قد أقبل وقد تغير لونه، وساءت هيئته فما عرفته إلاَّ بناقته، فأقبل حتى اعتنقني وجعل يبكي. قلت: ما هذا وما دهاك وما غالك؟ قال برح الغرام وطول السقام. وأخذ يشكو إلي فقلت: يا أبا مسهر، إنها ساعة عظيمة، فلو دعوت الله كنت تظفر بحاجتك. فجهل يدعو حتى إذا بدت الشمس للغروب وهم النَّاس أن يفيضوا، سمعته يهمهم بشيء، فأصغيت إليه مستمعاً فجعل يقول:

يا رب عذوة وروحة

من محرم بعد الضحى واللواحة

أنت حسيب الخطب يوم الدوحة .

قلت: يا أخي، وما الدوحة؟ قال سأخبرك إن شاء الله. فلما قضينا حجتنا وأحللنا قلت له: حدثني بخبرك! قال: نعم، أعلمك أتى امرؤ ذو مال كثير من نعم وشاء، وإني خشيت على مالي التلّف فأتيت أخوالي فأوسعوا لي عن صدر المجلس فكانت في عز أخوالي، فخرجت يوماً إلى مالي وهو ببعض مياهم، وركبت فرسي، وعلقت معي شراباً أهدي إلي. فانطلقت حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم رفعت لي دوحة عظيمة فقلت: لو نزلت تحت الشجرة وتروحت مبرداً! فنزلت وشدت فرسي بغصن من أغصانها، ثم جلست وقدمت شرابي، فإذا بغبار قد سطع من ناحية الحي فبدت لي ثلاثة شخوص، وإذا فارس يطرد عنزاً وأتانا، فلما قرب مني إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء، وإذا فروع شعره تنال كعبه. فقلت في نفسي: غلام حديث السن ركب على فرس أعجلته لذة الصيد، فأخذ ثوب امرأته ونسي ثوبه. فما لبث أن لحق بالعنز قطعنه ثم عطف على الأتان فقتلها، ثم قال:

كرك الأمين على نائل .

نطعنهم سلكاً ومخلوجة

فقلت له: إنك قد تعبت وأتعبت فرسك، فلو نزلت. فثنى رحله، وشدّ فرسه بغصنٍ من أغصان الشجرة، ثم أقبل حتى جلس قريباً مني فجعل يحدثني حديثاً كأنه الدرّ، ذكرت به قول الشاعر:

وإن حديثاً منك لو تبدلنيهِ
جنى النحل في ألبان عودٍ مطافل

قال، فبينما هو كذلك إذ نقر بالسوط على ثنيتيه، فرأيت والله خلل السوط بينهما فما ملكت نفسي إن قبضت على السوط وقلت: أخاف أن تكسرهما فإنهما رقيقان. وقال: وهما مع ذلك عذبتان. قال، ثم رفع عقيرته وجعل يغني:

إذا قبل الإنسان ممّن يحبّه
فإن زاد زاد الله في حسناته
ثناياه لم يأنم وكان له أجرا
مثاقيل يمحو الله عنه بها وزرا

ثم قال لي: ما هذا الذي علقت على سراجك؟ قلت: شرابٌ أهداه إليّ بعض أهلي، فهل لك فيه؟ قال: وما أكره منه؟ فأثيت به فوضعت بين يديه. فلما شرب منه نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهابة قد أضلت ولداً فأذعرهما قانص. فعلم نظري فرفع عقيرته وجعل يغني:

إنّ العيون التي في طرفها حورٌ
يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به
قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
وهنّ أضعف خلق الله إنسانا.

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال: وقع رجلٌ منّا باليمامة فأنشدنيهِ.

قال: ثمّ قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسي، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه، فإذا غلامٌ كأنما وجهه الشمس حسناً، فقلت: سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك، وأجلّ صنعك. قال: فكيف؟ قلت له: ممّا راعني من نورك وبهرني من جمالك. قال: وما الذي يروّعك من رهن ترابٍ ورزق دوابٍ ثم لا تدري أينعم بعد ذلك أم لا؟ قلت: بل يصنع الله بك خيراً إن شاء الله.

ثم أقبل على فرسه؛ فلما أقبل برقت له بارقة من الدرّ، فإذا نديٌّ كأنه حقّ، فقلت: نشدتك الله امرأة؟ قالت: أي والله امرأة تكره العهر وتحبّ الغزل. فقلت: وأنا والله كذلك. فجلست والله تحدثني ما أفقد من أنسها شيئاً حتى مالت على الذوّة سكرى، فاستحسننت، والله يا ابن ربيعة، الغدر، وزين في عيني، ثم إن الله عصمني. فما لبثت أن انتبعت مرعوبة، فلاتت عمامتها برأسها وأخذت رمحها وجالت في متن فرسها، فقلت: زوديني منك زاداً.

فأعطتني ثوباً من ثيابها، فشممت منه كالروض الممطور. ثمّ أتتني قلت: أين الموعد؟ فقالت: إن لي أخوة شوساً وأباً غيوراً؛ والله لأن أسرك أحبّ إليّ من أن أضرك.

قال، ثمّ مضت فكان والله آخر العهد بها إلى يومي هذا. فهي التي بلغت بي هذا المبلغ، وأحلّنتني هذا المحل. قلت له: والله يا أبا المسهر، والله ما كان يحسن بك الغدر إلاّ بك. فإذا به قد اخضلت لحيته بدموعه باكياً. فقلت: والله ما قلت هذا إلاّ مازحاً. ودخلتني له رقة. فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشدّ وحملت غلاماً لي على بعير وحملت عليه قبه أدم حمراء كانت لأبي ربيعة، وأخذت معي ألف دينارٍ ومطرفاً ثم خرجنا حتى أتينا كلباً فسألناه عن الشّيح فإذا هو في نادي قومه، فسلمت قومه، فقلت: عليك السّلام، من أنت؟ قلت عمر بن ابي ربيعة المخزومي. قال: المعروف غير المنكر؛ فما الذي جاء بك؟ قلت: خاطباً. قال: أنت الكفاء الذي لا يرغب عن حسبه، والرّجل الذي لا يردّ عن حاجته. قلت له: إني لم أتك عن نفسي، وإن كنت موضع الرّغبة، ولكن أتيتكم في ابن أخيك العذري. وقال: والله إنّه لكفاء الحسب، غير إن بناتي لا يقعن إلاّ في هذا الحيّ من قريش. فعرّف الجزع في نفسي وتبين له في وجهي، وقال: أنا أصنع لك شيئاً لا أصنعه لغيرك. قلت: ما هو؟ قال: أخبرها لأنك أنت تختار لغيرك.

فأولاً إليّ صاحبي أن أمره أن يخبرها. فقلت: افعل. ثمّ مضى الشّيح. وقد أتى وقال لي إنّها قالت: إن الأمر أمرك والرّأي للقرشي يختار لي ما رأى. فحمدت الله عزّ وجلّ وصلّيت على نبيّه، صلّى الله عليه وسلّم وقلت: قد زوجت الجارية بجعد بن مهجع وأصدقها ألف دينار، وهي هذه، وجعلت كرامتها الغلام والبعير والقبة وكسوت الشّيح المطرف فقيله، وسألته أن يبني بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك. وضربت القبة في وسط الحيّ وأهديت إليه ليلاً. وبتت عند الشّيح خير مبيت.

فلما أصبحت غدت ففقت بباب القبة، فخرج إليّ، فقلت له: كيف كنت بعدي؟ وكيف هي؟ فقال: أبديت لي كثيراً ممّ أخفت يوم رأيتها. فقلت: عليك أهلك، بارك الله فيهم. وانطلقت إلى أهلي وأنا أقول:

كفيت أخي العذريّ ما قد أصابه
أما استحسنت منّي المكارم إنّها
ومثلي لأثقال التّوائب أحمل
إذا عرضت إنّي أقول وأفعل

نساؤهم شرّ النساء والفرع يجري على الأصل

وحكى المدائني: أنّ رجلاً من بني عقيل كان يسمّى صخرًا، وكانت له ابنة عمّ تدعى ليلي، فكان بينهما حبٌّ مبرحٌ ولم يكن أحدهما يصبر عن الآخر ساعةً واحدةً، وكان لهما مكانٌ يجتمعان فيه للحديث في كلّ ليلةٍ. ثمّ إنّ أبا صخر زوّج صخرًا لامرأةٍ من الأزدي، وصخرٌ لذلك كارّةٌ؛ فلما بلغ ليلي الخبر قطعتة، فمرض مرضاً شديداً. فكان أهله يقولون سحرته ليلي، لما كانوا يرونه يصنع بنفسه. وكانت ليلي أشدّ وجداً به وحبّاً له. فأرسلت جاريتها إليه وقالت لها: اذهبي إلى مكاننا وانظري هل تري صخرًا، فإذا رأيته قولي له:

تعساً لمن بغير ذنبٍ يصرم
إنّك مشغوفٌ بنا مقيمٌ
قد كنت، يا صخر، زماناً تزعم
حتّى بدا منك لنا المجمع

قال: فأتته الجارية فأبلغته قولها، ووجدته كالشّن البالي وجداً وحرناً، فقال: قولي لها:

فهمت الذي عبّرت، والله شاهدٌ
فإن كنت قد سميت صخرًا فإنني
لما كان عن رأيي ولا كان عن أمري
لأضعف عن حمل القليل من الهجر
ولست، وربّ البيت، أبغي سواكم
حبيباً ولو عشنا إلى ملتقى الحشر.

فقال له الجارية: يا صخر، إن كنت كارهاً لتزويج أبيبك لك فاجعل أمر إمرأتك بيدي لتعلم ليلي أنّك لغيرها خال ولعهدها راع، وإنّك مكرهاً. قال: قد فعلت. قالت: فهي طالقٌ منك ثلاثاً. وأخبرت ليلي، فأظهرت من ذلك جزءاً وتراحاً إلى ما كانا عليه من اللقاء، والجارية تختلف بينهما. ولم يظهر صخر طلاق امرأته حتّى قال له أبوه: يا صخر ألا تبتني بأهلك؟ قال: وكيف وقد بانّت منّي في يمينٍ حلفت بها. فأعلم أبوه أهل المرأة فقالت المرأة تهجو ليلي:

ألا بلغا عنّي عقيلاً رسالةً،
نساؤكم شرّ النساء، وأنتم
فما لعقيلٍ من حياءٍ ولا فضل:
كذلك، إنّ الفرع يجري على الأصل .
وما فيكم حرٌّ يغار بأخته؟
وما خير حرٍّ لا يغار على الأهل!

قال، وهجتها ليلي حتّى شاع خبرها، وسعت الجارية إلى أهل صخر وأهل ليلي وما هما عليه، وإنّهما يخاف عليهما من لوم الفعل. ولم تنزل حتّى جمعت بينهما وتزوّجها.

المهدي وحديث العشاق

وحكى الأصمعي قال: خرج المهديّ حاجاً، حتّى إذا كنّا ببعض الطريق، إذا أعرابيٌّ يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا عاشقٌ- وكان المهديّ يحبّ العشاق وحديثهم- موكلٌ به بعض الغلمان. فلما نزل أمر بإحضاره، قال: أنت المنادي؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: ما اسمك؟ قال: أبو مياس. قال أمير المؤمنين: من عشيقتك؟ قال له: ابنة عمّي، وقد أبى عليّ أبوها أن يزوّجنيها. قال: لعلّه أكثر منك مالا؟ قال: أنا أكثر منه مالا! قال له: فما قصّتك؟ قال له: ادن رأسك منّي. فجعل المهديّ يضحك، وأصغى إليه برأسه. قال له: إنّي هجينٌ. قال له: ليس بضرّك ذلك أخو أمير المؤمنين وأكثر أولاده هجناً! ثمّ قال له وأين عمّك؟ قال له: على ثلاثة أميالٍ.

قال: فأرسل أمير المؤمنين في طلبه فجيء به فقال له: ما لك لا تزوج أبا مياس، فإنني أرى عليه نعمه؟ قال: متاع سوء، وليس مثلي يزوج مثله. قال: فإن الذي كرهت ليس ممّا يعاب به عندنا، وأنا معطٍ صدق ابنتك عشرة آلاف درهم، ومعوضك ممّا ذكرت عشرة آلاف درهم! قال: فذلك لك! قال فخرج أبو مياس وهو يقول:

وأتبع ظبيةً بالغلاء وإنما
يعطي الغلاء لمتلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها
إن القباح وإن رخصن غوالي .

المنتصر بالله وجارية سعيد الصغير

قال سعيد الصغير: كان المنتصر بالله في أيام إمارته وجّهني إلى مصر في بعض أمور السلطان، فاعترضني عند بعض النخاسين جارية تامّة المحاسن حاذقة بالغناء. فأبى مولاها أن يأخذ منّي إلا ألف دينار. ولم تكن تحضرني، ولا وجدت أن أقرضها، وأزعجني الشخوص، وقد علقها قلبي وأخذني المقيم المقعد من حبها. فلما قدمت إلى المنتصر وعرفته ما بعثني فيه؟ سألتني عن حالي وخبري. فأخبرته بمكان الجارية وكلفي بها، وقصّتي مع مولاها. فأعرض عني وصار ما بي يزيد.

ولم أملك صبراً. وجعل المنتصر، كلما دخلت وخرجت من عنده، يذكرها ويهيج أشواقها إليها، ويعيرني بقلة الصبر عنها. وكان قد أمر ابن الخطيب أن يكتب إلى مصر في سراها وحملها إليه من حيث لا أعلم ولا أدري. فلما سارت إليه، وعرضت عليه أمرها، فغنت وعذرتني، فأمر قيّمة جواريه فأصلحت من شأنها. فلما ذهب عنها ألم السفر استجلسني يوماً وهو على فراشه. فلما غنى جواريه كانت آخرهن. فلما سمعتها عرفتها وكرهت أن أعلمه حتى ظهر عليّ ما كتمت، وغلب عليّ الصبر، فقال لي: ما لك يا سعيد؟ قلت: خيراً أيها الأمير! قال، فاقترح عليها صوتاً كنت أعلمته أنني سمعته منها فاستحسنه من غنائها، فغنته، فقال: هل تعرف هذا الصوت؟ قلت: أي والله أيها الأمير، فما تكون المعرفة وقد كنت أطمع في صاحبته! فأما الآن فقد يئست منها وكنت كقاتل نفسه بيده، وجالب حتفه إلى حياته. قال: والله يا سعيد ما اشتريتها إلا لك، وما يعلم الله أنني رأيت لها وجهاً إلا الساعة التي أدخلت عليّ، وأنا تركتها حتى استراحت من تعب السير، وهي لك. فأكبيت على رجليه، ودعوت له بما أمكنني من الدعاء؛ وشكره عني من حضر من الجلساء، وأمر بها فحملت إلى منزلي. فما أجد أحظى عندي منها، ولا لي ولد أحب من ولدها.

من أحاديث المؤلفين

ذكاء السفهاء والقوادين

من أحاديث المؤلفين: ما حكاه أبو الحسن المدائني، قال: كان بمكة سفية يجمع بين النساء والرجال على أقبح الرّيب؛ وكان من قريش، ولم يذكر اسمه، قال: فشكا أهل مكة ذلك إلى الوالي ففاه إلى عرفات. فأخذ بها منزلاً، ودخل مكة مستتراً. فلقى حرفاءه من الرجال والنساء فقال لهم: وماذا يمنعكم منّي؟ قالوا له: وأين بك وأنت بعرفات! قال لهم: حمراً بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزّهة والخلوة واللذة. قالوا: نشهد بأنك صادق. فكانوا يأتونه، فكثرت ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم، فعادوا بالشكاية على أميرهم، فأرسل وراءه، فأبى به فقال: أي عدو الله، طردتك من حرم الله عز وجل فصرت إلى المشعر الأعظم تفسد وتجمع بين الخبائث!! فقال: أصلح الله الأمير يكذبون عليّ ويحسدونني. فقالوا للوالي: بيننا وبينه واحدة تجمع حمير المكارين وترسلها نحو عرفات، فإن قصدت داره لما اعتادت من السير لها، فالقول كما قلنا، وإلا فالقول كما قال. . . فقال للوالي: إن في ذلك دليلاً. وأمر بحمير المكارين فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله، وجاءه بذلك أماناً. فأمر بتجريده. فلما نظر إلى السياط بكى، فقال له: ما يبكيك يا عدو الله؟ قال: والله، أصلح الله الأمير، ما من الضرب جزعت، ولكن يسخر منا أهل العراق ويقولون إن أهل مكة يجيزون شهادة الحمير. فضحك الوالي وأمر بتخليته.

كان يمزح

قال المدائني: كان يزيد يسبق الحجاج في كلّ عام إلى الحجّ، وكان يأتي إلى المدينة في ثلاثة أيام على راحلته. فتأخّر مرّة عن وقته الذي كان يجيء فيه لعلّه أصابته، وكان لامرأته صديق صوّاف. فلما تأخّر ظنّ الصوّاف أنّه قد مات فأقام عندها ولم يبرح، وجاء يزيد فدخل على الوالي فأخبره ودنا إلى منزله. فلما رأى أنّه قرب من

الباب تطلع من كوة وإذا الصوّاف مع امرأته في البيت، فلم يستفتح، فمضى إلى المختئين فدعاهم، فأتوا معه، فوقفوا على بابه، وأمرهم فضربوا طبولهم وزمروا، فاجتمع الناس من كل ناحية، فأقبلوا يقولون له: يا أبا إسحاق، أشيء حدث؟ فيقول لهم: تزوجت امرأتي. فقالوا له: ما بك؟ وما هذه القصة؟ فلم يخبرهم بشيء. فوقف الصوّاف خلف الباب وقال: يا أبا إسحاق أدن أكلّمك. فدنا منه فقال: إتق الله في الفضيحة، وأنا أفندي منك. فقال له: أردت عليّ مهرها ونفقتي عليها فقد أفسدتها. قال: وكم ذلك؟ قال خمسون ديناراً. فكتب رقعة إلى غلامه في السوق فبعث بها من قبض المال وجاء به. فقال: أي بني تفرقوا. إنّما كنت أمزح. ففزع رأس الصوّاف وأنزله، وقعد مع امرأته وسكت.

من أخبار المختئين

قال أبو عثمان الجاحظ: كان عندنا بالبصرة مختئٌ يجمع بين الرجال والنساء في منزله. وكان بعض المهالبة يتعشق غلاماً. فلم يزل المختئ يتلطف له حتى أوقعه. قال: فلقيته من غدٍ، وقد بلغني الخبر، فقلت له: كيف كانت وقعة الجعرانة، فقد بلغني خبرها؟ قال: لما تدانى الأقوام وقع الالتزام، ورقّ الكلام، والتقت الساق بالساق، ولطّخ باطنها بالبصاق، وجعلت الرّماح تمور، وقرع البيض بالذكور، وشفيت حرارات الصدور، ومال كل واحد فأصيبت مقاتل كل حجر، وانعقد الوصل واتصل الحبل. فلو كان أعد هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهرٍ كان قد أجاد وملح.

حباية وسليمان بن عبد الملك

وحكى محمد بن سلام، عن يونس، قال: حجّ سليمان بن عبد الملك فاشترى حباية بألف دينار، وكان اسمها العالية، فلما رجل بها قال الحارث بن خالد المخزومي:

ظعن الأمير بأحسن الخلق وغدا بليلى مطلع الشرق
وبدت لنا من تحت كلتها كالشمس أو كغمامة البرق

قال: وبلغ خبرها يزيد بن عبد الملك فقال: لقد هممت أن أحجر على سليمان. فبلغ سليمان ذلك فاتقاه وردّها إلى مولاها، فاشتراها رجلٌ من أهل مصر من مولاها بأربعة آلاف دينار ورحل بها إلى مصر، وكانت في نفس سليمان إلى أن وليّ الخلافة. فقالت له يوماً سعدى بنت عبد الله بن عمر بن عثمان زوجته: يا أمير المؤمنين، هل بقي في نفسك شيءٌ تتمناه؟ قال: نعم، حباية. فأرسلت سعدى رجلاً إلى مصر فاشتراها بخمسة آلاف دينار وسار بها إلى سعدى، فاستأذنت سليمان أن تنتزّه في بستانه بالغوطة، وأن يزورها إذا استزارته. فأذن لها، فصيّغت حباية وهيأتها وأعلمتها بمكانها من قلب سليمان، وضربت له قبة وشي وفرشتها. ثم أرسلت إلى سليمان تستزيده، فزارها. وقد أجلس حباية وراء سرير وقالت له: يا أمير المؤمنين إني قد أخذت لك جاريةً ذكرت أنّها قد أخذت عن حباية، فهل لك أن تسمعها؟ فقال: إن شئت. قالت: غني يا جارية. فغنت سليمان صوتاً كان سليمان قد سمعه منها بالمدينة.

قال، فلما سمعه قال: حباية وربّ الكعبة. فقالت: هي حباية، ولك اشتريتها، فشأنك بها. فقامت وانصرفت وختنهما، فكان سليمان لا يزال يشكر سعدى على ذلك.

حديث سمية الزانية

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أنّ علياً عليه السلام وليّ زياداً فارساً حين أخرج منها سهل بن حنيف فضرب بعضهم ببعض حتى غلب عليها، وما يزال يتنقل في كورها حتى أصلح أمر فارس. ثم ولّاه على اصطخر، وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بشر بن أرطاة ابنته وكتب إليه يقسم عليه ليقتلها إن لم يدخل في طاعة معاوية. وتوفي عليّ عليه السلام، فكتب معاوية يدعوه إلى طاعته وأن يقره على عمله ويستخلفه إذا كان أبو مريم السلولي شهد عنده أنّه جمع بين أبي سفيان وسمية في الجاهلية على الزنا. وكانت سمياً من الزانيات بالطائف تؤدّي الضريبة إلى الحارث بن كلدة. وكانت تنزل بموضع ينزل فيه البغايا بالطائف. فقال له: كره ترك المشورة من العي. فشاور زياد المغيرة بن شعبة قال: إرم الغرض الأقصى ودع عنك الفضول، فإنّ هذا الأمر لا يمدّ أحدٌ إليه بدأ إلا الحسن بن علي. وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك، وانقل أصلك إلى أصله، وصل حبلك بحبله، وأعر الناس منك أدناً صمّاء، وعيناً عمياء. فقال له زياد: يا ابن شعبة، لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته، لا

أصلٌ يَغْذِيهِ ولا ماءً يسقيه. وعزم على ذلك، وقبل رأي المغيرة، وقدم على معاوية. فأرسلت إليه جويرة، عن أمر معاوية، فاتأها ودنت له وكشفت شعرها بين يديه وقالت: أنت أخي، أخبرني بذلك أبي.

ثم أخرجه معاوية إلى المسجد وجمع الناس، فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف، وأنا خمارٌ بالجاهلية، فقال: إبغني بغياً فقلت له: لم أجد إلا سمية جارية الحارث بن كلدة! فقال: إنني بها على ذفرها وقدرها. فقال زياد مهلاً، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً. فقال أبو مريم: لو كنتم أبغضتموني كان أحب إلي، فما شهدت إلا بما عاينت ورأيت، فوالله لقد أخذ بكم درعها وأغلق الباب عليها، وقعدت، فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان؟ فقال: ما أصبت مثلها يا أبا مريم، لولا استرخاء من ثديها وذفر مرفقيها. فقال زياد: أيها الناس، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم، ولست أدري حق ذلك من باطله، ومعاوية والشهود أعلم بما قالوا. فقام يونس بن التقي فقال: يا معاوية، قضى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالولد للفراش؛ وشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة يطيب وقوعها، هل إلا إلى الله أفع، قال: نعم، فاستغفر الله. فقال ابن مفرع، ويقال أنها لعبد الرحمن بن أم الحكم ونحله ابن مفرع:

ألا أبلغ معاوية بن صخر
أنغضب أن يقال: أبوك عف
مغلغة على الرجل اليماني
وترضى أن يقال: أبوك زان
كأل الغيل من ولد الأتان
فاشهد أن ألك من زياد

هل حفصة كذلك؟!

وروى الهيثم بن عدي، أن الحسن بن علي تزوج حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان المنذر بن الزبير يهواها، فبلغ الحسن عنها شيئاً أنكره فطلقها، فخطبها المنذر فأبى أن تتزوج، وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب فتزوجته، فرمى إليه المنذر بن الزبير شيئاً فطلقها، وخطبها المنذر فأبى أن تتزوج فندس لها امرأة من قريش، فأنتها فتحدثت معها ثم ذكرت لها المنذر، وأعلمتها أنه قد شهر حبها، فقالت: قد خطبني فأبى أن لا أتزوج. قالت: ولم ذلك؟ فوالله إنه لفتى قريش وشريفها وابن شريفها. قالت: شهرني وفضحني! قالت لها: والآن ينبغي أن تتزوجيه ليعلم الناس أن كلامه كان باطلاً. فوقع في نفسها كلامها، وجاءت المرأة إلى المنذر فقالت: أخطبها فقد أصلحت لك قلبها. فخطبها فنزجته، فعلم الناس أنه كان يكذب عليها. وكان في نفس الحسن منها شيء، وكان إنما طلقها لما أبلغه عنها الزبير. فقال الحسن يوماً لابن أبي عتيق: هل لك في العتيق؟ قال: نعم. فعدل الحسن إلى منزل حفصة فدخل عليها فتحدثا طويلاً، ثم خرج، ثم قال لابن عتيق يوماً آخر: هل لك في العتيق يا ابن أبي عتيق؟ فقال له: ألا تقول هل لك في حفصة فتصير إليها على علم، وأسعى لك منها فيما تحب؟! فقال الحسن: أستغفر الله.

عاتكة المزوجة

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، تزوج عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيذ فعشقها وأحبها حباً شديداً حتى منعه عن حضور الصلوات في جماعة. فأمره أبو بكر، رضي الله عنه. بطلاقها، ففارقتها، فوجد عليها جداً عظيماً، فأمره أن يراجعها، فراجعها وكانت عنده حتى توفي عنها. وكان قد أخذ عليها يميناً أن لا تتزوج بعده، فجاءها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأفتاها أن تنكح، فقالت: لست أقبل في هذا كلامك وحدك. لأنه قد بلغها أنه يريد أن يتزوجها فجاءت بعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فأفتاها بذلك، فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتزوجته، فبعث إليها بعشرين ديناراً كقرت بها عن يمينها، ثم توفي عنها فخطبها طلحة بن عبيد الله، فلقى الزبير بن العوام هناد بن الأسود، وكان لهناد امرأة كانت صديقة لعاتكة فقال له الزبير: ما أنا عنك براض حتى تزوجني عاتكة بنت زيد. قال، فحلف هناد لامرأته إن هي لم تزوج الزبير لعاتكة ليجلدنها مائة جلدة.

فانطلقت امرأة هناد لعاتكة، وكانت عندها حتى أتاها رسول طلحة بن عبيد الله فقالت له: فديتك ومن يرد طلحة لقدمه وشرفه وسخائه؟ ولكن ردي رسول اليوم فإنه سيزيدك ضعفاً ما أراد أن يعطيك. فردته، فقالت امرأة هناد لهناد: إلق طلحة فقل له: أما تستحي أن عاتكة ردتك وحلفت أن لا تتزوجك؟ ففعل ذلك، فقال طلحة: لا أتزوجها أبداً. فأمرت الزبير أن يرسل إليها، فجاءها رسولها وهي عندها فقالت لها امرأة هناد: قد بلغك ما في حق الزبير من الشدة؛ أما والله لو تزوجته ثم غلبت عليه لكونن لك بذلك الشرف في نساء قريش. ثم لم تزل بها حتى تزوجت الزبير. وسنذكر بقية خبرها بعد هذا إن شاء الله.

ابن زهير المختت القواد

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: كان ابن زهير المدايني مختتاً، وكان يؤلف بين الرجال والنساء، وكانت له قبة خضراء وكان فتيان قريش يقولون من يدخل قبة ابن زهير لم يصنع في الفتوة شيئاً.

قال: فواعد رجلٌ صديقاً له إلى قبة ابن زهير فجاءت بعد العتمة، وجاء الرجل، فتعشيتا، فقالت المرأة: أشتهي نبياً. فقال صاحبها لابن زهير: أطلب لنا نبياً. قال: من أين لنا في هذه الساعة؟! قال: لا بد منه. فلما ألح عليه عمد إلى حضضٍ فضربه بماءٍ وصبره في قنينةٍ ثم جاءه به فقال: والله ما وجدنا غير هذا فصب الرجل منه في قدح فذاقه فوجده مرأً فكره أن يعيبه فيكرهه إليها فشرّب ثم صب فسقاها. فلما صار في بطنه تحرك. فقال لابن زهير: أين المخرج، فصعد إلى أن حرّكها بطنها فصعدت إلى أن تحرك بطنه فصعد، فلم يزا كذلك ليلتهما. فقال ابن زهير: امرأته طالق إن كانا التقيا إلا على الدرجة حتى أصبحا ممّا يختلفان، وجاء الصبح ولم يقضيا حاجة لأنهما يطلبان النبيذ في منزل ابن زهير القواد بعد العتمة.

جميل وبثينة، وكثير وعزة

وكان جميل أيضاً لما اشتهر في بثينة توّعه أهلها، فكان يأتيها سرّاً فجمعوا له جميعاً يرصدونه، فقالت بثينة: يا جميل، احذر القوم. فاستخفى وقال في ذلك:

ولو أن ألفاً دون بثينة كلهم
لحاولتها، إمّا نهاراً مجاهراً
غيارى وكلّ حارب مزعّ قتلتي؟
وإمّا سرى ليلٍ وإن قطعوا رجلي .

فالتقى جميل وكثير فشكا كل واحدٍ منهما إلى صاحبه أنه محصور لا يقدر أن يزور. فقال جميل لكثير: أنا رسولك إلى عزة. قال: فأتهم فأنشدهم ثلاث نوق سودٍ مررن بالقاع، ثم احفظ ما يقال لك. قال فأتاهم جميل ينشدهم فقالت له جاريتها: لقد رأينا ثلاثاً سوداً مررن، عهدي بهنّ تحت الطلحة فانصرف حتى أتى كثير فأخبره. فأقاما، فلما نصف الليل أتيا الطلحة فإذا عزة وصاحبة لها. فتحدّتا طويلاً، وجعل كثير يرى عزة تنظر إلى جميل. وكان جميل جميلاً وكان كثير دميماً فغضب كثير وغار، وقال لجميل: انطلق بنا قبل أن نصبح. فانطلقا: ثم قال كثير لجميل: متى عهدك ببثينة؟ قال في أول الصيف، وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم فخرجت معها جارية ترخص ثياباً. قال، فخرج كثير حتى أناخ بال بثينة فقالوا: يا كثير حدّثنا كيف قلت لزوج عزة حين أمرها بسبك قال كثير: خرجنا نرمي الجمار فوجدني قد اجتمع الناس بي فطالعني زوجها، فسمع مني إنشاداً، فقال لعزة: اشميه. فقالت: ما أراك إلا تريد أن تفضحني؟ فألح وحلف عليها، فقالت مكرهة: المنشد يعضّ بظر أمه: فقلت:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلّت .

فقالت بثينة: أحسنت يا كثير. وقلت أبياتاً لعزة أعاتبها فيهنّ وأنشدتها:

فقلت لها يا عزّ أرسل صاحبي
على بعد دارٍ والموكل مرسل

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً=وأن تأمريني بالذي فيه أفعل

وآخر عهدٍ منك يوم لقيتكم
بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل .

فقالت بثينة: يا جارية، أبغنا خطباً من الروضات لنذبح لكثير غريضاً من البهم: فراح إلى جميل فأخبره. ثم إن بثينة قالت لبنات خالتها، وكانت اطمأنت إليهنّ وتطلعنّ على حديثها: أخرجن بنا إلى الدومات فإنّ جميلاً مع كثير، وقد وعدته. فخرج جميل وكثير حتى أتيا الدومات، وجاءت بثينة وصواحبها. فما برحن حتى برق الصبح. وكان كثير يقول: ما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك المجلس، ولا فهماً أحسن من فهم أحدهما من صاحبه، ما أدري أيهما كان أفهم؟!

شروط الزواج عند الجاحظ

قال أبو عثمان الجاحظ: إذا ابتلى الرَّجُلُ بِمَحَبَّةِ امْرَأَةٍ لِنَظَرَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا، وَلِمَحَّةٍ مِنْهَا، لَمْ يَكُنْ يَزُوجُ مِثْلَهُ مِثْلَهَا وَكَانَتْ مَمْتَنَّةً، فَالْحِيلَةُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَرْسَلَ إِلَيْهَا امْرَأَةً قَدْ كَمَلَتْ فِيهَا سَبْعَ خِصَالٍ مِنْهُنَّ: أَنْ تَكُونَ كَتُومَةَ السَّرِّ؛ وَأَنْ تَكُونَ خِدَاعَةً لَهَا مَعْرِفَةً بِالْمَكْرِ؛ وَأَنْ تَكُونَ فَطْنَةً مَتِيقِظَةً؛ وَأَنْ تَكُونَ ذَاتَ حَرِصٍ؛ وَأَنْ تَكُونَ ذَاتَ حِظٍّ مِنْ مَالٍ وَلَا تَحْتَاجَ إِلَى النَّاسِ وَلَا يَنْكُرُ النَّاسُ اخْتِلَافَهَا وَدُخُولَهَا عَلَيْهَا، بِأَنْ تَكُونَ إِمَّا بَيَّاعَةً طَيِّبٍ، أَوْ قَابِلَةً، أَوْ صَانِعَةً لِآلَةِ الْعِرَائِسِ، وَتَقَدِّمَ إِلَيْهَا أَرْقًا وَالطَّفَّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الشُّكُوفِ وَاللُّطْفِ، وَتَخْبِرَهَا أَنَّ نَفْسَهُ فِي يَدِهَا، وَأَنَّهَا مَتَمَثَّلَةٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى ذِكْرَهَا، وَأَنَّهُ يَرَاهَا فِي الْمَنَامِ كُلِّ لَيْلَةٍ تَضْرِبُهُ وَتَخَاصِمُهُ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرِ مِنْهَا نَظْرَةً أَوْ خُلُوعًا هَلَكَ، وَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعَهُ مِنْ خُطْبَتِهَا إِلَّا خَشْيَةُ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ دُونَهُمْ فِي الْحِسْبِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ وَخَوْفُ التَّمَنُّعِ مِنْهَا هِيَ أَيْضًا. فَإِنَّهَا إِذَا سَمِعَتْ هَذَا وَأَمثالَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ لَمْ تَدْعُ أَنْ تَمَكَّنَهُ بِمَالٍ إِنْ قَدَرْتَ عَلَيْهِ وَأَذْنَتْ لَهُ فِي خُطْبَتِهَا مِنْ أَوْلِيَائِهَا، فَإِذَا شَاوَرُوهَا فِي ذَلِكَ. رَضِيَتْ، وَقَدْ تَمَكَّنَ قَوْلُهُ مِنْ قَلْبِهَا، تَوَصَّلَ مِنْهَا إِلَى مَا أَرَادَ بِحِلَالِ التَّرْوِيحِ دُونَ حِيلَةٍ مِنْ حِيلِ الْحَرَامِ.

ليس لهنَّ من يعشقهنَّ

وقال هارون بن المنذر: رأيت عطيطا المفتي يضرب جواريه على أنَّ ليس لهنَّ من يعشقهنَّ. فقلت له؟ ويحك، أما تتقي الله؟ أي ذنب لهنَّ في هذا؟ ما أهون عليك! قال: إذا أردت أن أشتري كسوتهنَّ أين قلت تكوهن لأنك مولاهن فقال وما لهن الزواني ألا تجعل كسوتهم عليهم؟! فقلت: إنك سمعتنَّ ما قال؟ قلن: نعم، والله، ونجعل له أولاداً؟ قال: فتنفس وقال: يقولون ما لا يفعلون!

سمّاها ليلي

قال الزبير بن بكار: خرج أبو السائب المخزومي وعبد الله بن جندب إلى موضع يتنزّهان فيه، فلقي ابن المولى الشاعر، فصح به ابن جندب. فقال: ما شأنك؟ وأنشد:

وأبكي فلا ليلي بكت من صباية
واخضع للعتبي إذا كنت مذنباً
وقد زعمت أتي سلوت وأنني
لما بي ولا ليلي لذي الودّ تذبذ
وإنني إذ نبت كنت الذي أتصل
ثباتي عن إتيانها متعلّل.

قال ابن جندب: من ليلي هذه؟ امرأته طالق إن لم أهداها. قال: هي والله يا أخي فرسي سميتها ليلي.

أمرته بتقوى الله

قال الزبير بن بكار: قال عمر بي أبي ربيعة المخزومي:

أحنّ إذا رأيت حجال سعدي
وقد أرف المسير فقل لسعدي
وأبكي إن سمعت لها حنيينا
فديتك أخبري ما تأمرينا.

قال، فسمعه ابن أبي عتيق فخرج حتّى أتى الحيان من أرض غطفان، ثمّ أتى خيمة سعدي، فاستأذن عليها وأنشدها البيتين ثمّ قال لها: ما تأمر به؟ قالت: أمره بتقوى الله.

النساء فتن الرجال

أبو غسان المهدي قال: مرّ أبو بكر الصّدّيق، رضي الله عنه، في خلافته بطريق من طرق المدينة، فإذا جارية تطحن وتتشد:

وعشقتة من قبل قطع تمانمي
وكأنّ نور البدر سنّة وجهه
متمايساً مثل القضيب الناعم
ينمي ويصعد في ذؤابة هاشم

فدقّ عليها الباب فخرجت إليه، فقال: ويلك أحرّة أم مملوكّة؟ قالت: مملوكّة يا خليفة رسول الله. قال: فمن هو؟ قال فبكت ثمّ قالت: يا خليفة رسول الله بحقّ الغير ألا انصرفت عني؟! قال: وحقّه لا أريم مكاني أو تعلميني!. فقالت:

وأنا التي لعب الغرام بقلبها
فبكت بحبّ محمّد بن القاسم،

قال، فسار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه: وبعث إلى محمّد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، وقال: هؤلاء فتن الرّجال، فكم مات بهنّ كريم، وعطب عليهنّ سليم!!.

رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

وكان فتىً من أهل الكوفة عاشقاً لجارية، وكان أهلها قد أحسّوا به فتوعدوه ورصدوه، فلم يقدر على الوصول إليها فواعدها في ليلة مظلمة أن تسير إليه. وأتى فتسوّر عليها حائطاً. فعلم به أهلها فأخذوه وأتوا به خالد بن عبد الله القسري وقالوا له: إنّه لصّ تسوّر علينا من الحائط. فسأله خالد عن ذلك فكره أن يجحد السرقة فيفضح الجارية، فقال: أسارق أنت؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير. فأمر بقطه يمينه. وكان للجارية ابن عمّ من أهل الفضل قد اطلع على بعض شأنه فأخذ رقعةً وكتب فيها هذه الأبيات:

أخالد قد، والله، أوطئت عشوةً
أقرّيباً لم يجن عمداً لأته
ولولا الذي قد خفت من قطع كفه
إذا مدّت الغابات في السبق للعلی
وما العاشق المظلوم فينا بسارق
رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
لألقيت في أمر الهوى غير ناطق
فأنت ابن عبد الله أول سابق

ثمّ حذف الرقعة فوُقت في حجر خالد فقرأها ثمّ أمر بالفتى إلى السجّ، وصرف القوم. فلما خلا مجلسه دعا به فسأله عن قصّته فعرفّه، فبعث إلى أبي الجارية فقال: قد عرفت قصّة هذا الفتى فما يمنعك من تزويجه؟ قال: خوف العار. قال: لا عار عليك في ذلك، والعار أن لا تزوجه فتشف أمره!. فسأله أن يزوجه ففعل، فدفع إليه عن الفتى خمسة آلاف درهم، وأمره بتعجيل إهدائها إليه.

كانت تنزيهه بين يديها.

سأل رجلٌ بعض العلماء عن الواصلة، فقال: إنك لمنقر. قال، قالت عائشة، رضي الله عنها: ليست الواصلة كما تعنون، لأنهم كانوا يقولون: الواصلة هي أن تكون المرأة بغياً في شبيبته إذا شابته وصلته بالقيادة. وكانت كلمة التي يضرب بها المثل في القيادة صبيّة في الكتاب تسرق أقلام الصبيان فلما شبّت قادت، فلما أعددت اشترت تيساً وكانت تنزيهه بين يديها.

القوادة لا يشفع فيها إلا زان

ذكر المدائني أنّ بعض عمال البصرة كان لا يزال يأخذ قوادةً فيحبسها، فيأتي من يشفع فيها فيخرجها. فأمر صاحب شرطته وكتب رقعةً يقول فيها: فلانة القوادة تجمع بين النساء والرّجال، لا يتكلّم فيها إلا زان. فكان إذا كلّمه فيها أحدٌ قال: أخرجوا قصّتها. حتّى إذا قرئت قام الرّجل مستحياً.

هل ينبت الحبّ إلا أن يزرع

وحكى يقظان بن عبد الأعلى قال: رأيت القين يضرب جاريتته سلمى المغنّية ويقول: ما جننتي بهديّة، ما جننتي بخلعة قط، هل هو إلاّ هذا الكرى؟ فهبك لم تقدرى على شيء، فما تقدرين على ولدٍ؟ فقالت: هذه المرّة أجيئك بابلن. فقال: يا زانية إن لم تصدقي لأضربنك ألف سوط. فرأيتها بعد ذلك ولها ابنٌ متحرّكٌ تخدمه. فقلت لها: وقد وقيت لمولاك؟ قالت: نعم، ولكن ما ناكني رجلٌ حتّى جاءني هذا الولد! فقال مولاها: صدقت، فهل ينبت الحبّ إلا أن يزرع؟ فعجبت من كسختة المولى وطيب نفس الجارية.

باب ما جاء في ما لا يحاط به

وهذا باب، أعزك الله، أكثر من لا يحاط به. ولكنني اختصرت من ملح أحاديثهم ما فيه مستمتع. وستقف في الأخر التي أفردها من أخبار القيان على كثير منه. وقد قالت الشعراء في الرسل في الجاهلية والإسلام. ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالي:

خليلي إني مشتاك ما أصابني
أمنتكما، إن الأمانة من يخن
فلا تفشيا سرّي، ولا تخذلاً أحياناً
لنتخذنا لي، بارك الله فيكما،
فإن كان ليلاً، فألوانه هديتما،
وقولا: خرجنا تاجرين فأبطأت
فإن أنتم أطمأننتما وأمنتما
وقولا لها: ما تأمرين بصاحب
أبيني لنا إنا رحلنا مطيناً
ألا هل صدا، أم الوليد مكلّم

لنتستقينا ما قد لقيت وتعلما،
بها يحتمل يوماً من الله مأثماً.
أبتكما منه الحديث المكتماً،
إلى أهل ليلى العامرية سلماً.
وإن خفتما أن تعرفا فتلتثما،
ركاباً تركناها بثد قيماً.
وأخليتما ما شئتما فتكلّما،
لنا قد تركت القلب منه مميماً؟
إليك، وما نرجوك إلاّ توهُماً.
صداي، إذا ما كنت رسماً وأعظماً

المأمون: يا ليتني كنت الرسول

وقال المأمون لرسول بعث له:

بعثتك مرتاداً، ففزت بنظرة
وناجيت من أهدى وكنيت مقرباً.
ورددت طرفاً في محاسن وجهها،
أرى أثراً منها بعينيك لم يكن،
فيا ليتني كنت الرسول فأشتقي،
وأغفلتني، حتّى أسأت بك الظنّاً،
فيا ليت شعري، عن دنوك ما أغنى؟
ومتعت باستمتاع نغمتها الأذنا.
لقد سرقت عينك من وجهها حسناً.
وكنيت الذي يعصي وكنيت الذي أدنى.

المتنبّي: أنا أهوى وقلبك المتبول

وقال أبو الطيّب المتنبّي في مثل ذلك:

ما لنا كلنا جويّ، يا رسول،
كلّما عاد من بعثت إليها،
أفسدت بيننا الأمانات عينا
وإذا خامر الهوى قلب حبّ

أنا أهوى، وقلبك المتبول
غار منّي، وخان فيما يقول .
ها وخانت قلوبهنّ العقول
فعليه لكلّ قلب دليل.

بعض المحذّثين: شغلتنى وشغلت عني

وقال بعض المحذّثين:

يا سوء منقلب الرسول مخبراً بخلاف ظني
إني أعيذك أن تكون شغلتنى وشغلت عني

أبو نواس: شمّر ثيابك

وأشدد لأبي نواس:

باباً، وأحراس به وكلوا:
لو عمّ خلق الله لاشتغلوا،
لولا مرارة غمه عسل
أفعاله كالنّار تشتعل
الابتدال ولا إذا دخلوا

يا من أتى من دون حاجته
شمّر ثيابك، قد شغلت بما
وانظر رسولاً ذا ملاطفةٍ
ممنّ عليه غباوةً، وترى
لا يحلفون به إذا خرجوا

رأي الأهوازي في القوادة

وأشدد أحمد بن عيسى الأهوازي في قوادة:

تجري من الإنسان مجرى الدّم
محله في الموضع الأعظم

تكاد لو لم تكن أنسيّة
لا يعصم المقدار من كيدها

شروط مناجاة الغادة

وأشدد لآخر أيضاً:

من الغواني صعبة المنقده
أدب في الظلماء من جرادة
تلوح في جبينها السّجادة
في يدها سبحتها الصّيّادة
قد ألقت غرائب القيادة
بذكر كلّ غافلٍ معادة
حتّى إذا نصبت لها الوسادة
ثمّ خلعت بالغادة المرادة
حتّى ترى طاعتها سعادة

إذا أردت أن تناجي غادةً
فادسس لها عجيّزاً قوادة
قد انحنت من شدة العيادة
كالحسن البصري أو قتادة
قد أحكمت من شدة المرادة
فإنّها تدخل، كالمرتادة،
وتصف الشّقاء والسّعادة
ولاحظت عقله وقّادة
تروّضها بالّجم المقادة

زهدا يغرّ العيون

وقال أحمد بن أبي طاهر:

وأسرع من سيلٍ بليّ إذا احتفل
لطاقتها في الرّأي والقول والحيل.
وتهدي إلى طرق الضلال فلا تضل
إذا ما رآها وهي أختل من ختل
ويستنزل العصماء من شغف القل
لألقت الدّنب الأزل مع الحمل
برقيتها يوماً لزلّ بها الجبل
وتسيحها عند الشّروق وفي الأصل
وتفتح ما قد كان غلقاً وما قفل.

فأرسلتها أمضى من السّيف مقدماً
تدبّ دبيب النّمل في كلّ مفصل
يذلّ لها الصّعب الجموح قياده
يرى الفطن الدّاهي عليها عبادة
يولّف بين الأسد والشّاء لطفها
ولو أنّها شاءت، بأهون سعيها،
ولو جبلّ رامت إزالة ركنه
يغرّ العيون زهدا وخشوعها
تسهّل ما قد كان وعراً طريقه

قامتها غصن بانٍ ممطور

وأنشد لابن بشير:

وزولةٍ في الذي رامت يتاح لها
لا تحزر الخود منها أن تدبّ لها
كأنّ في قلب من يصغي لمنطقها
أخفى من الرّوح في تأليف معصيةٍ
قد ناطت الدهر مصباحاً بمعصمها
خلت بواضحة الخدين مخطفةٍ
باتت تعلّمها في طول ليلتها
رفقاً، وتقليب عين عند كلّ فتىٍ
ما زلت أسألها حظاً وترفع لي
لبذل أصغر، دهرأ كنت أدخره،

الماشية على الماء

وأنشد لإسحاق بن خلف البصري:

لو أنّ رقيتها في صخرةٍ نطقت
أخفى من الرّوح إذ دبّت لحاجتها

عيبه إصلاح شأن العشائر

وأنشد الخمار:

ظلم النَّاس، حسبنا
ما له عيبٌ سوى، إصلاح

ورموه بالكبائر
حه بين العشائر

قوَادٍ يخلي منزله بدرهمين

وأنشد لعبد بن وهب:

قالوا ابن عثمة قوَادٍ، فقلت لهم:
لكنّه رجلٌ يخليك منزله

كذبتهم، ما أبو حفص بقوَادٍ
بالدّرهمين وما يبقى من الزّاد

المتكامل

وأنشد ابن الأعرابي:

هل من رسول لطيف
له سريرة ذنبي
تكامل الظرف فيه

إلى غزالٍ عنيف
وسمت قسّ عفيف
ففاق كلّ ظريف

نحن منصرفان

ومن ملح ما قيل في هذا المعنى قول ابن الدّمينية:

خليلي سيرا مسعدين فسألما
ومرّا فقولا: نحن نطلب حاجةً
على حاضر الماء الذي تردان
ومرّا فقولا: نحن منصرفان

باب ما جاء في خلق النساء

أوصاف النساء

إذا كانت المرأة ضخمةً في تعمّدٍ وعلى اعتدالٍ فهي: رمجلة. فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي: مسبجلة. فإذا كانت طويلةً قيل: جاريةٌ سبطةٌ وعيطبول. فإذا كانت بها مسحةٌ من جمالٍ فهي: جبلةٌ ووضينةٌ. فإذا أشبه بعضها في الحسن بعضهاً فهي: حسانةٌ. فإذا استغنت بجمالها عن الزينة فهي: غانيةٌ. فإذا كانت لا تبالي أن تلبس ثوباً حسناً ولا قلادةً فاخرةً فهي: معطالٌ. فإذا كان حسننها ثابتاً كأنها رسمت به فهي: وسيمةٌ. فإذا قسم لها حظٌ وافرٌ من الحسن فهي: قسيمةٌ.

وقالوا: وقال الصّباحة في الوجه الوضاعة في البشرة. الجمال في الأنف. الحلاوة في العينين. الملاححة في الفم. الظرف في اللسان. الرّساقفة في القد. اللباقفة في الشّمال. كمال الحسن في الشّعر.

والمرأة الرّعبوبة: البيضاء. الرّهراء: التي يضرب بياضها إلى صفرة كلون القمر والبدر. والهجان: الحسنه البيضاء.

والمرأة طفلةٌ ما دامت صغيرةً؛ ثم وليدةٌ إذا تحرّكت؛ ثم كاعبٌ إذا كعب ثديها؛ ثم ناهدٌ إذا زاد؛ ثم معصرٌ إذا أدركت؛ ثم خودٌ إذا توسّطت الشّباب.

والرّجاء: الدّقيقة الحاجبين الممتدّتهما حتّى كأنّهما خطاً بقلم. والبلج: إن يكون بينهما فرجةٌ، وهو يستحبّ، ويكره القرن وهو اتّصالهما. والدّعج: أن تكون العين شديدة السّواد مع سعة المقلّة. والبرج: شدّة سوادهما وشدّة بياضهما. والنّجل: سعتهما. الكحل: سواد جفونهما من غير كحل. الحور: اتّساع سوادهما.

الشّنب: رقة الأسنان واستواؤهما وحسنها. الرّتل: حسن تنزيدها واتّساقها. التّفليج: تفرج ما بينهما. الشّنتت: تفرّقها في غير تباعدٍ في استواءٍ وحسنٍ يقال منه، ثغرٌ شنتت. الأشر: تحديّد في أطراف التّنايا يدلّ على الحدائث. الظّم: الماء الذي يجري على الأسنان من البريق. الجيد: طول العنق. التّلع: إشرافها.

وإذا كانت المرأة سائبةً حسنة الخلق فهي: خود. فإذا كانت جميلة الوجه حسنة المعرى فهي: بهنكة. فإذا كانت دقيقة المحاسن فهي: مملودةٌ. فإذا كانت حسنة القدّ، لينة العصب: فهي: خرعبةٌ. وإذا كانت لم يركب بعض لحمها بعضهاً فهي: مبتلةٌ. فإذا كانت لطيفة البطن فهي خصمانه. فإذا كانت لطيفة الكشحين فهي: هضيّم. فإذا كانت لطيفة الخصر مع امتداد القامة فهي: مشوقةٌ. فإذا كانت طويلة العنق في اعتدالٍ وحسنٍ فهي: عيطبول. فإذا كانت عظيمة العجيزة فهي: رداخ. فإذا كانت سميئةً ممثلةً الذّراعين والسّاقين فهي خدلجةٌ.

فإذا كانت سميئةً ترتجّ من سمنها فهي مرمادةٌ. فإذا كانت ترعد من الرّطوبة والغضاضة فهي برهرهةٌ. فإذا كانت كأنّ الماء يجري في وجهها فهي رقرافةٌ. فإذا كانت رقيقة الجلد ناعمة البشرة فهي: بضّة. فإذا عرفت في وجهها نضرة التّعيم فهي: نظرةٌ. فإذا كان فيها فتورٌ عند القيام لسمنها فهي: أناةٌ وهنانةٌ. فإذا كانت طيبة الرّيح فهي بهنانةٌ. فإذا كانت عظيمة الخلق مع جمالٍ فهي عرهرهةٌ. فإذا كانت ناعمة جميلةً فهي: عبقرهةٌ. فإذا كانت مثنيةً للين وتعمّدٍ فهي: غيداءٌ وغادةٌ. فإذا كانت طيبة الفم فهي: رشوفٌ. فإذا كانت طيبة ريح اليد فهي: أنوفٌ. فإذا كانت طيبة الخلوة فهي: رصوفٌ. فإذا كانت لعوباً ضحوكاً فهي: شموغٌ. فإذا كانت تامّة الشعر فهي: فرعاء. فإذا لم يكن لمرقبها حجمٌ من سمنها فهي: درماء. فإذا ضاق ملتقي فخذيها لكثرة لحمها فهي: لفاء. فإذا كانت حييةً فهي: خفرةٌ وخريدةٌ. فإذا كانت منخفضة الصّوت فهي: رخيمةٌ. فإذا كانت محبةً زوجها متحببةً

إليه فهي: عروبٌ. فإذا كانت نفوراً من الرّيب فهي: نوارٌ. فإذا كانت تجتنب الأقدار فهي: قذورٌ. فإذا كانت عفيفةً فهي: حسانٌ. وإذا كانت عاملة الكفّين فهي صناع.

فإذا كانت كثيرة الولد فهي: بنون. فإذا كانت قليلة الولادة فهي: نزورٌ. فإذا كانت تلد الذكور فهي: مذكارةٌ. فإذا كانت تلد الإناث فهي: منناتٌ. فإذا كانت تلد مرّة ذكراً ومرّة أنثى فهي: مهابٌ. فإذا كانت لا يعيش لها ولدٌ فهي: مقلاتٌ. فإذا كانت تلد النّجباء فهي: منجابٌ. فإذا كانت تلد الحمقاء فهي: محمقةٌ.

فإذا كانت يغشى عليها عند الجماع فهي: ربوخٌ. والممكورة: المطويّ الخلق. واللّذنة: اللّينة النّاعمة. والمقصدة: التي لا يراها أحدٌ إلاّ أعجبته. والخبرنجة: الجارية الحسنة الخلق في استواء. والمسبطرة: الجسيمة. والعجزة: العظيمة العجيزة. والرّعبوبة: الرّطبة. والرّجراجة: الدّقيقة الجلد. والرّتكة: الكثيرة اللحم؛ والطفلة النّاعمة. والرّود: المنتنبة اللّينة. والأملود: النّاعمة؛ ومثلها الخرع- مأخوذ من نبت الخروع وهو نبتٌ ليّن- والبارقة: البيضاء الثّغر. والدّهثمة: السّهلة. والعاتق: التي لم تنزوّج. والبلهاء: الكريمة، والمفضّلة عن السّره الغريرة. والعيطموس: الفطنة الحسنة.

والسّلهية: الخفيفة اللحم، والمجدولة المشوقة. والسّرعوفة: النّاعمة الطّويلة. والفيصاء والعفاء: الطّويلة العنق. والتهانة أيضاً: الضّحكة المهلّلة.

والغيلم: الحسنة. والخليق: الحسنة الخلق؛ وقال الفرّاء هي أحسن النّاس حيث نظر ناظرٌ، أي هي أحسن النّاس وجهاً. وقال أبو عمرو: ويقال للمرأة إذا كانت حسنة: كأنّها فرسٌ شرهاء- والشّرها: الحديدة النّفس- وامرأة حسنة المعارف- ومعارفها: وجهها- والمتحرّية: الحسنة المشية في خيلاء. والشّموس: التي لا تطمع الرّجل في نفسها، وهي الدّعور. وامرأة ظمياء: إذا كانت سمراء، وشقّة ظمياء كذلك. ويقال لها إنّها لحسنة العطل أي الجسم. ويقال عبقة أي التي يشاكلها كلّ النّاس.

اختلاف النّاس في أمورٍ عدّة

ونذكر اختلافات النّاس في التّدي والعجز والمجدولة من النّساء والضّخمة الطّويلة، والغضبيضة. واختلاف شهواتهم في الممسوحة والمفلّكة والكاعب والنّاهد والمنكسرة. ومن استحسن التّدي الضّخم الذي يملأ الكفّين، ومن ذم ذلك.

وممن وصف الشّحم عبد بني الحساس حيث يقول:

توسدني كفّاً وترفع معصماً
أميل بها ميل النّزيف، وأتقي
عليّ وتحنو رجلها من ورائي
بها القطر، والشّقان من عن شمالي

فسحيم لم يتخذها هدفاً تستر عنه الرّيح والقطر إلاّ وهي في غاية الضّخم.

لا يريد لها خناء قبّاء

وقال أبو عبيدة: دخل مالك الأشتر على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، في صبحه بنائه على نسائه فقال: كيف وجد أمير المؤمنين أهله! قال كالخير من امرأة، لولا أنّها خناء قبّاء قال: وهل يريد الرّجال من النّساء إلاّ ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كلاً، حتّى تدفّء الضّجيع، وتروي الرّضيع.

تفضيل المرأة المجدولة

وهذا يدلّ على العجب بالضّخم والشّحم. وأكثر البصراء بجواهر النّساء الذين هم جهاذة هذا الأمر يقدّمون المجدولة، فهي تكون في منزلة بين السّمينية والممشوقة مع جودة القدّ وحسن الخرط. ولا بدّ أن تكون كاسية العظام. وإنما يردون بقولهم مجدولة جدولة العصب وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمة من الزّوائد والفضول، لذلك قالوا خمصانة وسيفانة، وكأنّها جدل عنانٍ وغصن بانٍ وقضيب خيزران.

والثنتي من مشية المرأة أحسن ما فيها. ولا يمكن ذلك الضخمة والسمنة. ووصفوا المجدولة فقالوا: أعلاها قضيبٌ، وأسفلها كثيبٌ.

وقال بعض الأعراب:

لها قسمةٌ من خوط بانٍ ومن نقيٍّ
يكاد كليل الطرف يكله خدها

ومن رشأ الغزلان جيد ومذرف
إذا ما بدت من خدرها حين تطرف

وقال آخر:

ومجدولةٌ جدل العنان إذا مشت
تنوء بخصريها ثقال الرّوادف

وقال آخر:

ومجدولةٌ، أمّا مجال وشاحها
لها القمر السّاري نصيبٌ، وإنّها

فغضٌ، وأمّا ردفها فكثيبٌ؛
لتطلع أحياناً له فيغيّب.

وقال أبو نواس. وقد أحسن ما شاء:

أحللت من قلبي هواك محلّة
بكمال صورتك التي في مثلها
فوق القصيرة، والطويلة فوقها؛

ما حلّها المشروب والمأكول.
يتحير التّشبيه والتّمثيل.
دون السّمين، ودونها المهزول .

وأما قول الأعشى حيث يقول:

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها
كأنّ مشيتها من بيت جاريتها

تمشي الهويّنا كما يمشي الوحى الوجل
مرّ السّحابة لا ريثٌ ولا عجل

فقد وصفها كما ترى بالضخم، ولكنّه يذكر أفرطاً.

وقال الأحوص:

من المدمجات اللّحم جدلاً كأنّها
عنانٌ ضاع أنعمت أن تجودا

قال أبو عثمان الجاحظ: كان أبو معمر بن هلال يقول: عذرت الرّجل الطّويل الأير حتّى يتمنّاها ضخمةً. ولكن ما عذر الصّغير الأير في ذلك؟.

وفي اختلافهم في الثّدي

أنشد للمرار بن سعيد

صلبة الخدّ طويلٌ جيدها
سجمة الثّدي ولما ينكسر

وقال النّابغة في النّهود:

يحططن بالعيدان في كلّ مقعدٍ
ويخبأن رمان النّديّ النّواهد

وأنشد لمسلم بن الوليد:

فأقسمت أنسى الدّاعيات إلى الصّبيّ
فغطّت بأيديها ثمار صدرها
وقد فجأتها العين والشّرّ واقع
كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

وذمّ أعرابيٌّ امرأةً فقال: والله ما بطنها بوالديّ، ولا شعرها بوارديّ، ولا ثديها بناهديّ، ولا فوهها ببارديّ.

وكتب الحجاج بن يوسف إلى الحكم بن أيوب قال: اخطب على عبد الملك امرأةً جميلةً من بعيدٍ، مليحةً من قريبٍ، شريفةً في قومها، ذليلةً في نفسها، أمةً لبعْلِها. فكتب إليه: أصبتها، وهي خولة بنت مسمع، لولا عظم ثديها! فكتب إليه الحجاج: لا يحسن بدن المرأة حتّى يعظم ثديها فتدفي الضّجيع، وتروي الرّضيع. وقال آخر يذمّ عظم الثّدي:

لعمرى لبيضٌ يحتلن بقفزةٍ
أحبّ إلينا من ضخام بطونها
لطائف ثدي الصّدر غيد السّوالف
لأباطها تحت الثّدي تعاطف

في الممسوحة الصّدر

وقال آخر في الممسوحة التي لم يبدها بصدرها شيءٌ:

وعلّقت ليلي وهي بكرٌ خريذةٌ
صغيرين نرعى البهم، يا ليت أنّني
ولم يبده للأتراب من ثديها حجم
إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

وقال نصيب:

ولولا أن يقال: صبا نصيبٌ.
بنفسي كلّ مهضوم حشاها
لقلت: بنفسي النّشو الصّغار؛
إذا ظلمت فليس لها انتصار .
إذا ما الزّلّ ضاعفن الحشايا
كفاها أن يلاث بها الإزار

وقال ذو الرّمة:

بعيدات مهوى كلّ قرطٍ عقده
لطف الحشا تحت الثّدي الفوالك

وذكر آخر ابتداء النّهود فقال:

نظرت إليها نظرةً وهي عاتقٌ
على حين شبّنت واستبان نهودها

وليس في الحيوان شيءٌ واسع الصّدر غير الإنسان. ولا في جميع الحيوان أنثى في صدرها ثديّ إلاّ المرأة والفيلة، وكذلك الرّجل. والعرب تمدح الرّجال والنساء بطول الأعناق. قال الشّاعر:

آراءٌ في طول الأعناق

ومن كلّ شيءٍ قد قضيت لبانتي
وهصري أعناقاً تلين وتثنني
سوى ضخم أعجازٍ تقال الرّوادف
كما كان خيطان الأراك الصّعائف

وقيل لإبراهيم بن النّظام: أيّ مقادير النّدي أحمد؟ قال: وجدت النّاس يختلفون في الشّهوات، وسمعت الله تبارك وتعالى حين وصف حور العين جعلهنّ كواعب أتراباً. ولم يقل فوالك ولا نواهد. وقالت العرب: يسار الكواعب. ولم تقل يسار النّواهد ولا يسار الفوالك.

ولم أرهم يختلفون في مدح عظم الرّكب كما اختلفوا في مقادير النّدي في طول الأعناق. يقول الشّمردل.

ويشبهون ملوكاً في مهابتهم وطول أنصبة الأعناق والأمم

وقال آخر:

طوال أنصبة الأعناق لم يجدوا ريح الإماء إذا راحت بأذفار .

وهوة حسناً ما لم يطل جداً، فإذا أفرط كان عيباً. كما عيب بذلك واصل بن عطاء رئيس المعتزلة فسّمى عنق نعاماً، وعيب بذلك جعفر بن يحيى البرمكي.

وكذلك قال فيه الحسن بن هانئ:

ذاك الوزير الذي طالوت علاوته كأنه ناخرٌ في السيف بالطول

وقد زعموا أنّه أول من اتّخذ هذا الأطواق العراض، فاستحسنها النّاس بعده، فاتّخذوها.

آراء في صفة الأعكان

وفي صفة الأعكان يقول يزيد بن معاوية:

لها عكنٌ بيضٌ كأنّ غضونها إذا شفّ عنها السّابري فداح

وقال أبو الطيّب المتنبّي:

يضمّها المسك ضمّ المستهام بها حتّى يصير على الأعكان أعكانا

وقال آخر:

غرّاء واضحة أقراب خرعبة طوع العناق فلا بكرٌ ولا نصف

وقال النّابغة الذّبياني:

والبطن ذو عكنٍ لطيفٍ طيّه،
محطّوة المتنين غير مفاضية
وإذا لمست، لمست أجنم جاثماً
وإذا نزعت، نزعت عن مستحصفٍ
والنّحر ينفجه بثدي معقد
رياً الرّوادف بضّة المتجرّد
متحيزاً بمكانه ملء اليد
نزع الحزور بالرّشاء المخضد

وأنشد لأعرابيٍّ آخر:

لما رأيت أنّ الرّحيل قد حان
بواضح الوجه قليل الخيلان
قامت تهادى في رقيق الكتان
وعكن مثل متون الغزلان

وقال الفرزدق:

إذا بطحت فوق الأثافي رفعتها
بثديين في صدرٍ عريضٍ وكعشب

فزعم أنّها إذا بطحت على وجهها لم تمسّ الأرض بشيءٍ من سائر جسدِها إلاّ نهود ثدييها وعظم ركبها
فصارت لبدنها كأثافي القدر.

وقال عبد بني الحساس:

من كلّ بيضاءٍ لها كعشب
مثل سنام البكرة المائل

وحلف ابن مطيع اللّيثي الشّاعر أنّ جاريته خردانة كانت تستلقي على ظهرها فتشخص كتفاها ومنكباها حتّى لقد
كان يتدحرج الرّمّان والأترج من تحت خصرها.

قالوا: كانت الزّباء بنت عبد الله تصبّ جرّة الماء على رأسها فلا يصيب فخذيها للبد عجزتها.

وقال الشّاعر:

نفج الجفينة لا ترى لكعوبها
عظمت روادفها وسهّل وجهها
حجماً وليس لساقها ظنوب
والوالدان نجيبةً ونجيب

ومن مليح ما قيل في هذا، قول الأعرابي:

أبت الرّوادف والنّديّ لقمصها
وإذا الرّياح مع العشيّ تناوحت
مسّ البطون وإن تمسّ ظهورا
نّهن حاسدةً وهجن غيورا

والعرب تمدح الملوك بسعة العيون كما يصفون ذلك النّساء ويستحسنونه.

قال ذو الرّمّة:

ومختلقٌ للملك أبيض قد غمز
أشمّ ألجّ العين كالقمر البدر

لما أنشد بشّار بن برد قول الشّاعر:

ألا إنّما ليلى عصا خيزرانيةٍ
إذا لمسوها بالأكفّ تلين

ضحك بشّار من قوله عصا خيزرانيةٍ وقال: لو زعم أنّها عصا رندٍ أو عصا ندّ لهجنها وكان ذلك خطأً بعد أن
جعلها عصاً. فهلاً قال كما قلت:

إذا قامت لسبحتها تننّت
كأنّ عظامها من خيزران

وكانت ميمونة عند هشام بن عبد الملك، خلف عليها بعد العزيز قال: لو أنّ رجلاً ابتلع ميمونة ما اعترض في
حلقه منها شيءٌ لئنيها. وقال بشّار:

إذا مشت نحو بيت جارتها
يرتجّ من مرطها مؤزّرها
خلت من الرّمّل خلفها حقف
وفوقه غصن بانةٍ قصف.

ما قيل في الضخمة

وقد قيل في الضخمة:

قليلة لحم الناظرين يزيناها
أرادت لتنتاش الرواق فلم تقم
شبابٌ ومخفوضٌ من العيش بارد
إليه ولكن طأطأته الولائد.

وقال آخر أيضاً:

ضوء برقي بدا لعينيك أم شبت بذي الأثل من سلافة نار
أوقدتها بالمسك والعنبر اللدن فتاة يضيق عنها الإزار

وأشدد أيضاً:

وتبدي على المتن من شعرها
ويجري السواك على باردٍ
وما زانها العقد لكتنها
كشمس الضحى بين أترابها
فكم من قتيلٍ بتلك العيون
فإن يك عتي قسا قلبها
أعيدك بالله أن تشتمي
عناقيد كرم تدلين سودا
لذيذ من الدرّ بيدي نصيدا
تزين بالنحر منها العقودا
موافين يوماً ليشهدن عيدا
وكم من قتيلٍ تولى عميدا
فلم يجعل الله قلبي حديدا
بنا وأشيأ أو تطيعي حسودا

وقال جران العود، وقد تزوج فلقي منها برحاً، وكانت حسنة الشعر فقال:

ألا لا يغررَ امرؤُ نوفليّة
ولا فاحمٌ يشفي الدهان كأنه
على الرأس منها أو ترائب وضح
أساود يزهاها بعينيك أفتح

وأشدد لآخر:

لا تنه قلبك أن يتوق إلى الحما
فرعاء تسحب من قيام شعرها
فكأنه ليلٌ عليها مغدّفٌ
إنّ القلوب إلى سعاد تتوق
وتغيب فيه وهو جئل مونق
وكأنها فيه نهارٌ مشرق

وأشدد لآخر:

مقدورةٌ ما أن لها مثل
فلشعرها من شعرها زجل
إن شئت قلت، إذا هي انصرفت،
لي عندها العبرات والخبل
ولعينها من عينها كحل
بين الروادف والحشا نصل

وأشدد لآخر وذكر طول العنق:

وأعجبنتني فيها غداة لقيتها
وجيدٍ كأملود الرخامي رعاية
تبليبل أردافٍ لها ومحاجر
بمنهلة صبت عليه الغدائر

وقد وصفوا الأفواه والرِّيق والشَّفاة

قال بعضهم:

ومقبلاً عذب المذاق كأنه
هَنّ الدَّواءِ لدائنا، وشفأونا
بردٌ تحدّر من غمام ماطر
من كلّ داءٍ باطنٌ أو ظاهر .

وقال ذو الرِّمة:

لمياء في شفيتها حوة لعس
وفي اللثة وفي أنيابها شنب

العلاقة بين الرِّيق وطيب الرِّيح

والعرب يزعمون أنّ أطيّب الأفواه أفواه الطّباء؛ كما أنّ أبعارها أطيّب رائحةً من سائر الأباعر. ويزعمون أنّ ليس في السّباع أطيّب أفواهاً من الكلاب. وفي النّاس أطيّب أفواهاً من الزّنج. ويزعمون أنّ علّة ذلك كثرة الرِّيق، لأنّ علّة الخلوف، جفوف الرِّيق، والبخر يحدثه الكبر وقد اعتري إشرافاً من النّاس.

الشيخ البحر

قال: سارر أبو الأسود الدؤولي عبيد الله بن زياد، فلمّا أدنى فاه من أنف عبيد الله خمر أنفه عبيد الله فجذب أبو الأسود يده فنحّاه، وقال: إنّك والله لن تسود حتّى تصير لسرار الشيخ البحر. فعجب النّاس من جلده ومراسه. والأفواه الموصوفة بالنتن أفواه الأسود وأفواه الصّقور.

النهي عن استعمال المسواك

والشّعبويّة وغيرهم ينهون عن السّواك. وقالوا: إنّما يعتري الخلوف من يستاك، والمره من يكتحل والشّعث من يدهن. وزعموا السّواك يقلّل الأسنان ويأكل ما عليها من اللّحم، أني اللّثة، ويذهب العمور التي بينها ويرخيها. وقال حسين بن مطير:

بمرتجة الأرداف هيفٌ خصورها
عذابٌ ثناياها عجافٌ قيودها

يريد أنّها صلابٌ عجافٌ غير واردة ولا مسترخية والسّواك يوهنها ويزيلها عن أماكنها.

الدفاع عن السّواك

وزعموا أنّ السّواك يجلب ماء الوجه فيغني على الأيام نضرة اللون وحمرة الوجنات، كما يصنع رضاع الطّفل في لبة المرأة وفي لون وجهها فإذا تحلب الماء المستكن في الغلاصم والأفواه أعقب ذلك في الأفواه جفوفاً، فإذا جفّت لعد الرِّيق أدريتها خلوفاً. فقال من ردّ على هؤلاء: قد علمنا أنّ من أعظم الأمم التي عليها مدار الأمور في العقل والعلم والرّضا قد اجتمعوا على السّواك والخضاب فلو كان السّواك يورث البخر لم تكن هاتان الأمتان مع ما فيهما من بعد الغور وشدة الغزل بالنّساء والتّقرب إلى قلوبهنّ والاستهتار بهنّ ليجهل هذا القدر من العيب الفاحش. فمن أحبّ أن يعرف إفراط العرب في الغزل والصبابة بالنّساء فليقرأ أشعارهم وأحاديثهم الإسلاميّة، وليقرأ كتب الهند في الباه، ولو تتبعت أشعارهم في استعمال النّساء للسّواك لطال به الكتاب.

عمر والمرأة

وعن عمر بن دينار، قال: سمعت الحسن بن علي ، عليهما السّلام يقول لذريح بن سنّة: حل لك أن فرقت بين قيس ولبنى! أما إنّني سمعت عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه، يقول: ما أبالي مشيت إلى الرّجل بالسيف أو فرقت بينه وبين امرأته! .

إثمه في عنقها

قال الزبير بن بكار: دخلت عزة على أم البنين بنت عبد العزيز فقالت: أقسمت عليك بأي شيء وعدت كثيراً حيث يقول:

قضى كل دين فوقى غريمه وعزة ممطولٌ معنى غريمها

قالت لها: وعدته فمطلته سنة، فلما ألح في التّقاضي هجرته، فضمّني وإياه طريقاً بعد حينٍ فاستحييت منه فقلت: حياك الله يا جمل، ولم أحيه، فقال:

حيّتك عزة بعد الهجر وانصرفت فحيّ ويحك من حياك يا جمل
ليت التّحيّة كانت لي فأجعلها مكان: يا جمل؛ حياك يا رجل

وهو على تقاضيه إلى اليوم. قالت: أقسمت عليك، ألا قضيتّه إياه وإثمه في عنقي؟.

أريحية عبد الملك بن مروان

أبو عبيدة قال: كان بأرض الحجاز رجلٌ له ابنةٌ جميلةٌ فوهبها ابن عمّ لها فبذل لها أربعة آلاف درهم، فأبى أبوها أن يزوجه منها، وأجدبت البادية، فدخل ابن عمّها على عمّه ذات يوم فشكا إليه ما يلقي. فقال له: قد كنت بذلت لنا أربعة آلاف درهم، فأعطنا إياها، فأنت أحبّ إلينا لقربتك. قال له: أجلني شهراً. فأجله، ولم يكن مع الفتى إلا ناقه، فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان فطلب الإذن فلم يؤذن له. فقال: إني رسول فلان عامل أمير المؤمنين على الحجاز. فأدخل عليه من ساعته. قال: معك كتابٌ من فلان؟ قال: لا، قال فرسالة؟ فأنشأ يقول:

ماذا يقول أمير المؤمنين لمن أدلى إليك بلا قربى ولا سبب
مدلّه، عقله من حبّ جاريةٍ موصوفةٍ بكمال الحسن والأدب
خطبتها إذ رأيت الناس قد لهجوا بذكرها، والهوى يدعو إلى العطب
فقلت، لي حسبٌ زاك، ولي شرفٌ قالوا: الدّراهم خيرٌ من ذوي الحسب،
إنّا نريد ألوفاً منك أربعةً ولست أملك غير الحسن والقرب.
فامنن عليّ، أمير المؤمنين، بها، واجمع بها شمل هذا البائس العرب
فما وراءك، بعد الله، مطلبٌ، أنت الرّجاء وأقصى غاية الطّلب

فضحك عبد الملك وأمر له بأربعة آلاف درهم، وقال هذا صدق أهلك، وزاده أربعة أخرى وقال له أولم بهذه، وأنفق عليها منها. فقبضها ومضى. فنزّوج بالّجارية.

خبلت عقله

وكان إسحاق بن سليمان بن علي شاكراً ظريفاً، محباً للشعر. فخرج ذات يوم، وأبوه يلي البصرة، لأبي جعفر المنصور، متنزّهاً إلى ناحية البادية. فلقي أعرابياً فصيحاً إلاّ أنّه شاحب اللون، مصفراً، ظاهر التحوّل فاستنشده، فمضى عنه، فقال له ما بالك، فوالله، إنك لفصيحٌ! قال له أما ترى الجبلين؟ قال: قلت بلى. قال: في طلابهما ما شغلني عن إنشادك. قلت: وما ذلك؟ قال: ابنة عمليّ قد تيمّنتني، وأذهلت عقلي، وتالله أنّه يأتي عليّ لا أدري أفي السّماء أنا أم في الأرض. قال: قلت وما يمنعك منه؟ قال: قلّ ذات يدي!. قلت: وكم مهرها؟ قال خمسون ناقه. قال: قلت: فيزوجونك إذا دفعتها؟ قال: نعم. فقلت له أنشد لي ممّا قلت فيها! فأنشدني:

سعى العلم الفرد الذي في طلاله غزالان مكحولان يرتعيان
أرعتهما صيداً فلم أستطعهما وخبلاً ففاتاني وقد خبلاني.

قال. فقالت له: يا أعرابي، لقد قتلتني بقتلك، فنفيت من العباس إن لم أقم بأمرك. فرجع إلى البصرة فأخذ جماعة من أهله وما أحتاج إليه، وحمل معه الأعرابي، وسار إلى الجارية فخطبها إلى الفتى، فزوجه، وساق إليه خمسين ناقه وأقام عندهم ثلاثة أيام نحر فيها ثلاثين جزوراً، ووهب للأعرابي وللجارية مثل ذلك، وانصرف إلى البصرة.

لا يخفى عنه مخاطبة الكاتب والحاك

قال نفطويه: لما فرغ المهدي من بناء قصره ركب للنظر إليه، فدخله فجأة وأخرج من هناك من الناس، فبقي رجلان خفيان عن أبصار الأعوان، فرأى المهدي أحدهما وهو دهش ممّا يفعل فقال له: ممّن أنت؟ قال: أنا أنا قال: ويلك! لا أدري! قال: لك حاجة؟ قال: لا. قال أخرجوه أخرج الله نفسه فدفع في قفاه، فلما أخرج قال لبعض الغلمان: اتبعه من حيث لا يعلم حتى يصل إلى منزله، فأسأله عن صنعه فأبى أخاله حانكاً. فخرج الغلام يقفوه ثم أتى الآخر فاستنطقه فأجابته بقلب جريء، ولسان طلق، قال له: من أنت؟ قال: رجل من أبناء رجال دعوتك. قال: فما جاء بك إلى هنا؟ قال: جئت لأنظر إلى هذا البناء الحسن، وأتمتع بالنظر إليه، وأكثر الدعاء لأمير المؤمنين بطول البقاء ودوام العز، وهلاك الأعداء. قال: ألك حاجة؟ قال: نعم، خطبت ابنة عمي فردي وقال: لا مال لك. وإتي لها عاشق، وبها وامق، قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم قال: جعلني الله فداك، يا أمير المؤمنين، قد وصلت فأجزلت الصلة، ومننت فأعظمت المنّة. فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه، وآخر أيامك خيراً من أولها، وأمتعك بما به أنعم عليك، وأمتع بك رعيتك. فأمر أن تعجل صلته ووجهه بسلام آخر معه قال: سل عن مهنته فأبى أخاله كاتباً: فرجع الرسولان جميعاً فقال الرسول الأول: وجدت الرجل حانكاً، ولم يرجع إليه قلبه، ولا تاب إلى نفسه. وقال الآخر: وجدت الرجل كاتباً. فقال المهدي أنا ابن المنصور لا يخفى عني مخاطبة الكاتب والحاك.

أريحية الجارية برير؟

قال أحمد بن أبي خثعمه: أخبرتني مولاة، كانت لآل جعفر بن أبي جعفر المنصور، قالت: علق عيسى بن جعفر جارية لأم ولده فمنعته إياها غيره عليه، وتبعتهما نفسه، فدست جارية لعيسى يقال لها برير إلى مولاتها في أن تبيعها منها، وأرغبها، فباعها منها، فأخذتها برير فصنعتهما وكانت لبرير من عيسى ليلة فوجه إليها بخلعة وبدح عالية تضمخ به شعرها.

فلما كانت ليلتها ألبست الجارية الخلعة وضمخت رأسها ووجهت بها إليه، فلما رآها سألتها عن حالها فأخبرته بالخبر. وإنها أثرت هوى نفسه على هوى نفسها. فسرى بذلك ودعا ببرير فأعتقها وتزوج بها ومهرها ضياعاً بالكوفة لها قدر. فقالت برير: إن من شكر الله على ما وهب لي من رأي أمير المؤمنين أن أجعل ما أعطاني من هذه الضياع قريبة لله عز وجل، تجري للأمير ولي أجرها. فأوقفها على أهل بيت من الأنصار منهم ابن معاذ فلم يزل ذلك يجري عليهم.

زوجها الرشيد وأمر لها بالمال

قال إبراهيم بن المهدي: حبيب مع الرشيد، فلما كنا بالمدينة خرجت إلى العقيق أسير على دابتي وليس معي غلام، فوفقت على بئر عروة وعليها جارية سوداء وفي يدها دلو تملأ قريبة لها، فقلت: يا هذه اسقني. فنظرت إلي وقالت: أنا مشغولة عنك. فقرعت قربوسي بمقرعتي موقعا بها على القربوس، وغنيت. فلما سمعت ذلك مني ملأت دلوها وبادرت به إلي وقالت: اشرب يا عم فشربت، فقالت: بالله يا عم أين أهلك أحمل إليهم هذه القربة؟ فقلت: بين يدي. فمضت معي حتى أتت المضرب فلما رأت الولدان والخدم ذعرت، فقلت لها: لا بأس عليك. وأخذت الماء وأمرت من وصله، فقال لي الغلمان: قد جاء رسول أمير المؤمنين مراراً فمضيت إليه، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بخبر الجارية، فأمر بطلبها، فأبى بها، فأمر بابتياعها من مولاها، وأعتقها، وقال لها: هل من تودينه يودك وتحبينه يحبك؟ قالت: نعم عبد لآل فلان. فأمر بابتياعه وأعتقه ثم زوجها إياه، وأمر لهما بمال.

أرجعه من اليمن وزوجه من يحب

حج الرشيد سنة إحدى عشرة من خلافته، فلما نزل بالكوفة، بعد قفوله من الحج، دعا إسماعيل بن صبيح فقال: إنني أردت الليلة أن أطوف في محال الكوفة وقبائلها فتأهب لذلك، قلت: نعم. فلما مضى ثلث الليل قام وقمت

معها، وركب حماراً وركبت أنا آخر، ومعى خادمٌ ومعها خادمٌ من خاصّة خدمه. فلم نزل نطوف المحال والقبايل حتّى انتهينا إلى النّخ فسمعنا كلاماً. فقال الرّشيد لأحد الخادمين: أُن من الباب وتعرّف ما هذا الكلام؟ فتطّلع من موضع في الباب فرأى نسوةً يغزلن حول مصباحٍ وجاريةً منهنّ تنشد شعراً وتردّد أبياته وتتبع كلّ بيتٍ برنةٍ وأتةٍ، وتبدي زفرةً. وتفيض عبرةً، والنّسوان اللواتي معها يبكين لبكائها فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجه حبيبٍ شفني،	بعد فقدانيه، أفرط الجزع؛
قد برى شوقي إليه أعظمي،	وبلى قلبي هواه وفزع.
ليت دهرأ مرّ، والقلب به	جدلّ، والعيش حلّو قد رجع؛
وعفت أثاره منه فيا،	ليت شعري، ما به الدّهر صنع؟
قد تمسّكت على وجدي به	بجميل الصّبر، لو كان نفع.

فقال للخادمين: أعرفا الموضع إلى غد. ورجعنا إلى البصرة، فلما طلع الفجر وفرغ من صلاته وتسبيحه، قال للخادمين: أمضيا إلى الدّار فإن كان فيها رجلٌ من وجوه الحيّ فجيئاً به حتّى أسأله عمّا أريده. فسار الخادمان إلى الدّار فلم يجدا فيها رجلاً، فدخلوا إلى مسجد الحيّ فقالا لأهله: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ويقول لكم: أحببت أن يجيئني منكم أربعة أسألهم عن أمر. قالوا: سمعاً وطاعةً. وقاموا معهما فدخلوا على الرّشيد، فقربهم وأدناهم، وقال لهم: طفت البارحة في بلدكم تفقّداً لأحوالكم، فسمعت في دار من دياركم امرأةً تنشد شعراً وتبكي. وقد خفت أن تكون مغيبةً، وأن نزاع النّفس أهون من نزاع الشّوق، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم.

قالوا: يا أمير المؤمنين، هذه البارحة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوّجها ابن عمّ لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهم، فهلك أبواهما من قبل أن يجتمعا، فاكتتب زوجها مع عاملك إلى اليمن لقلّة ذات يده، وخرج منذ خمس سنين، فحزنت عليه، وطال شوقها إليه، فهي تنشد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره. فأمر الرّشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن في حمل سليمان بن همام على البريد إلى حضرته إلى بغداد.

فما مضت أيّامٌ بعد وصول الرّشيد حتّى دخل عليه إسماعيل بن صبيح، فقال: يا أمير المؤمنين قد وصل النّخعي الذي أمرت بحمله إليك. فأمر بإدخاله عليه، فنظر إلى رجلٍ معتدل القامة، ظاهر الوسامة، ذرب اللسان، حسن البيان، فقال: أنت سليمان بن همام؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: أقصص عليّ خبرك! فقصّ عليه الخبر فوجده مطابقاً لما خبّره به الأربعة النّفر، فأمر له بعشرين ألف درهم، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرّشيد يتعاهده ببرّه.

تمّ الكتاب بعون الله وتوفيقه